

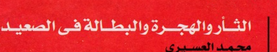
Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 45 - October 2002
مجلة شهرية . العدد الخامس والأربعون . السنة الرابعة . اكتوبر ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات

ثورة يوليو : خمسون عاما / محمد حسنين هيكل

الثورة تدق الباب!







الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الخامس والأربعون
أكتوبر ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد زويل.. أستاذ الكيمياء والطبيعة بمعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا.
- آلان بوتيير.. كاتب.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- تونى يوت.. مدير معهد رومارك بجامعة نيويورك.
- جيف ماديك.. أستاذ مساعد فى العلوم الاجتماعية وكاتب فى جريدة النيويورك تايمز.
- جيمس ميك.. كاتب متخصص فى العلوم بصحيفة الجارديان البريطانية.
- حازم الببلاوى.. أستاذ الاقتصاد بجامعة الإسكندرية.
- حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- صلاح فضل.. ناقد أدبى.
- فاروق وهبة.. فنان تشكيلى.
- مايكل بايرز.. أستاذ بجامعة ديوك الأمريكية.
- محمد حسنين هيكل.. صحفى.
- محمد العسيرى.. صحفى.
- محمود عبد الفضيل.. أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة.
- محمود المراغى.. صحفى.
- مصطفى العبادى.. أستاذ المصريات بجامعة الإسكندرية.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى - سعد الدين شحاتة - محمد حاكم - أحمد اللباد





المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــــة..

كـــــتب «أمـــــريكانى»

عن الحدث، الذى كأن لا حدثَ بعده، قذفت المطابع الأمريكية إلى المكتبات وأيدى القراء بـ ٧٠٩ كتب (عناوين). وليس فى الرقم (الدقيق) أية مبالغة. فالإحصاء لـ amazon.com السوق الإلكترونية لبيع الكتب، والتى صارت معتَمدة ورسمية.

بين مئات الأغلفة اللامعة البراقة، تستوقفك بلا شك عناوين مثل «أين كنت يوم ١١ سبتمبر»، وهو كتاب تتفرغ مؤلفته «جانيت رينولدز» لإشباع فضول أى قارئ شغوف بالمكان الذى كان فيه رجل الأعمال دونالد ترمب أو دوقة يورك السابقة سارة فيرجسون حين وقعت الأحداث. كما قد يلفت انتباهك الغلاف الجذاب لكتاب «وجوه الأمل» لمؤلفته كريستين بيزيرا وهو - لا تستغرب - لايعدو أن يكون تجميعا لصور الأطفال الذين ولدوا يوم ١١ سبتمبر بواقع طفل من كل ولاية!! أما إذا كنت قد سئمت الموضوع «المحاصِر» وتشبعت بكل ما له علاقة بالتاريخ «المشؤوم» وأدرت وجهك عن الرف - أو الأرفف - المخصصة لكتب ٩/١١، فستجد فى مواجهتك مباشرة الإعلان الترويجى يسألك مستنكرًا «ألا ترغب فى أن تشارك هذه اللحظات مع أولادك وأحفادك؟»

لا مهرب إذن. فمن ناحية هناك المصرون على «إعادة إحياء الغضب فى نفوس الأمريكيين». ومن ناحية أخرى، هناك «الفرصة» بالتعريف الرأسمالى، والتى لا يليق بمتنافسى السوق أن يضيعوها دون إضافة دولارات أخرى إلى «درج الكاشير». إذ فى أمريكا، حتى بعد الحادى عشر من سبتمبر، لا تستغرب أن يصبح كل شىء «أمريكياً». حتى المأساة القومية يتم تعليبها سريعًا ليسهل تسويقها كما يسوق معجون الأسنان.



«وجهات نظر» خصصت فى هذا العدد بابًا خاصًا لإلقاء نظرة على ما يقرؤه الأمريكيون عن ١١ سبتمبر.

كتب كثيرة أسهبت فى تفصيل أو الاكتفاء باجترار وسرد ما حدث بصورة عامة فى ذلك اليوم، وجميعها كأنه، بالاشتراك مع الشبكات التليفزيونية، قد قرر استئصال فقدان الذاكرة العام ليرسخ هذا الحدث فى مقدمة رأس وذاكرة أى إنسان. حتى الأطفال، كانت لهم كتبهم التى تخاطبهم بالصورة والكلمة وحتى «بالكارتون». فإلى جانب كتب قليلة أتاح لها مرورُ الزمن الحصول على معلومات جديدة ومنظور جديد، يُمَكِّن من طرح أسئلة جادة مثل كيف ولماذا حدثت الهجمات أو كيف تغيرت أمريكا كأمة، أو كأفراد؟، ثم ماذا يجب على أمريكا أن تفعله الآن؟، هناك مئات العناوين التى أصرَّت على أن تقف عند رواية ما حدث، مراهنةً على أن صور أحداث ١١ سبتمبر غير قابلة للزحف بعيداً عن بؤرة الذاكرة، على القائمة الطويلة جدًا للعناوين المتشابهة: « مركز التجارة ١٩٧٤ - ٢٠٠١» و«الروح الأمريكية» و«أمة فى مواجهة التحدى»، و«فلنقف معاً» و«النظر من الطابق الأرضى» و«وجوه الطابق الأرضى».. إلخ. ومع ذلك تقول الإحصائيات المنشورة أن من بين تلك الكتب ماحقق ناشروه أرباحًا كبيرة بعد أن احتلت قوائم « الكتب الأكثر مبيعاً» لأسابيع عديدة. من بين هذه كتاب «بيت النار» الذى يركز على محطة إطفاء فقدت ١٢ من أصل ١٣ من العاملين فيها. وكتاب «قلب جندى .. قصة حب وبطولة مع ١١ سبتمبر» لمؤلفه جيمس ستيوارت، ويحكى قصة ريك ريسكورلا المحارب القديم فى فيتنام ورئيس جهاز الأمن فى مورجان ستانلى والذى أدت تصرفاته إلى إنقاذ موظفى الشركة المنتشرين فى برجى مركز التجارة. كواحد من الضحايا القليلين لأحداث ١١ سبتمبر الذى وضع حياته بوعى تام فى بؤرة الخطر، فى وقت لم يكن مطالباً فيه بذلك، وذلك بعودته للمبنى فى لحظة بالغة الخطر».



بين كل هذا الزحام، وإلى جانب الكتب القليلة لمفكرين وأكاديميين كبار، تبرز كتبٌ أعدها صحفيون محترفون (ذوو خبرة) مثل كتاب «من حيث لا نحتسب Out Of The Blue » لريتشارد بيرنستين (٢٠ سنة فى الصحافة الإخبارية). والذى كتب مقدمته هاول رينز مدير تحرير صحيفة «نيويورك تايمز». يبدأ الكتاب بنظرة تأملية فى اللحظات المروعة التالية للهجمات على نيويورك يوم ١١ سبتمبر، ومن هناك يأخذنا «المخبر المحترف» إلى منزل متواضع فى مدينة بيشاور بباكستان، وتحديداً إلى العام ١٩٧٩، يوم أن بدأ رجل دين بسيط الهندام، هادئ الصوت، هو عبد الله عزام، بشخصيته الكاريزمية، فى تأهيل متطوعين صغار السن لتشكيل جيش جديد لمحاربة الملحدين السوفييت. وإلى هناك، ذهب رجال كثيرون، ممن لعبوا دوراً فى هجمات ١١ سبتمبر، بمن فيهم أسامة بن لادن. ويشرح بيرنستين بأسلوب قصصى مبنى على أرضية الأحداث، كيف تغيرت عبر عقد من الزمان الحسابات والقوى والموازين، ومن ثم «اتجاه فوهات المدافع».

على رأس قائمة الكتب «المختلفة» يأتى أيضا كتاب ناعوم تشومسكى الأشهر بغلافه الذى لا يحمل عدا اسم المفكر الأمريكى، غير كلمة (٩/١١) ببنط صغير جدا على خلفية سوداء. . والكتاب هو محاورات ارتجالية تلت فى مجملها انهيار البرجين وإصابة البنتاجون بأيام قلائل، وينقسم إلى سبعة أقسام تشتق عناوينها من موضوعات الحوار المهمة ونقاطها الأساسية. ويشرح «أستاذ اللسانيات» التحوير اللغوى الذى اعتمدته إدارات أمريكية متعاقبة من أجل تحريف أهداف سياسية واقتصادية مقصودة من وراء قراراتها بالتدخل العسكرى الخارجى، إذ استخدم الساسة الأمريكيون، عناوين بلاغية لمغامراتهم العسكرية فى عدة مناطق من العالم، ومنها «التدخل الإنسانى» كما سمى قصف صربيا ليتحاشوا الاستعمال المباشر لكلمة حرب رغم أن العمليات الأمريكية كانت أسوأ من ذلك بكثير. والرأى لتشومسكى، الذى يلاحظ أيضا أن استخدام الكلمة (صليبية) crusade لم يكن موفقاً لأنها كانت ستشمل العالم الإسلامى كله بوصفه عدوا، لهذا تم التحول سريعا إلى (حرب على الإرهاب) لضبابيتها وغياب حدودها خاصة دون وجود تعريف رسمى للإرهاب.

قريبًا من كتاب تشومسكى، أو بالأحرى من التخصص يأتى كتاب «حرب الكلمات "War Of Words لساندرا سيرلبرستين أستاذة اللغة الإنجليزية والذى تقرأ فيه تحولات ومركبات التعابير والمفردات والجمل التى يستخدمها السياسيون. وتستقصى استخدامات المشاهدين وشهود العيان للمفردات ومدلولاتها بعد ١١ سبتمبر.

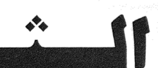


ليس بعيدا عن تلك الكتب، كان هناك كتاب بتجليد فخم من الجلد بعنوان «أمة واحدة، أمريكا تتذكر ١١ سبتمبر ٢٠٠١». ومنه يمكنك أن تجد «طبعة محدودة» Limited "Edition منقوشة بالذهب عيار ٢٢ ومشغولة بحرفية يدوية عالية كى تبقى، كما ذكرت مجلة «لايف» فى حملتها الترويجية للكتاب، «ذكرى وعبرة للأجيال المقبلة». ثم هنالك الأعلام وعلاَّقات المفاتيح والأسطوانات المدمجة وأكواب القهوة والدبابيس التى تعلق على السترات، والتى تحيى كلها المناسبة، ومَثَّل عائدها - كما يبدو - أرباحا طائلة مقابل استثمار زهيد.

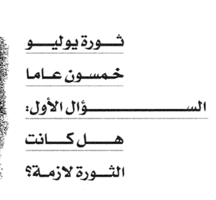
هل هناك من صلة - ولو شكلية - بين الاحتفالية السبتمبرية تلك، وبين ماحصل قبلها بأسبوعين فى الذكرى الـ٢٥ لوفاة ملك الـ«روك أند رول» الفيس بريسلى. حين تحولت المناسبة إلى سوق تجارية لبيع أسطواناته وتسجيلاته الغنائية القديمة وتذكاراته وصوره فى سراويله البراقة؟!

وحدها تعلم وكالاتُ التسويق والترويج التى كان مقرها المفضل فى ذلك البرج الذى انهار على شاطئ مانهاتن، ويبدو أنه ترك قيَمه الأمريكية وراءه؛ مبنى «التجارة» العالمى.

وجهات نظر

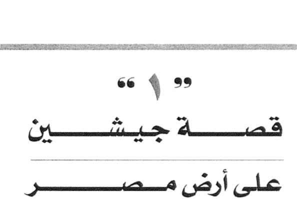



الثورة



ثورة يوليو خمسون عاما السؤال الأول: هل كانت الثورة لازمة؟

محمد حسنين هيكل



«١» قصة جيشين على أرض مصر

عندما بدأت تلك السنة الحاسمة فى التاريخ المصرى الحديث: ١٩٥٢ ـ كان واقع الحال، وراء كل المظاهر والأشكال، يكشف أنه لم تبق فى مصر غير جهتين عندهما فصل الخطاب ـ أو على الأقل حق الكلمة الأخيرة، والسبب أن القوة حلّ دورها فى مواجهة مستعصية، ومعادلة تعقدت عناصرها، حتى لم يعد بد من كسرها: إما لفتح طريق يسمح بالمرور، وإما لفك العُقد التى تشابكت ثم إعادة ترتيبها من جديد وفق قواعد مختلفة، وكانت الجهتان هما:

أولا ـ الجيش البريطانى فى منطقة قناة السويس باعتبار أن سلاحه هو الملجأ الأخير للسياسة البريطانية التى وصلت إلى آخر الطريق بتصميمها على مواصلة الاحتلال العسكرى لمصر رغم قيام وزارة الوفد بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ (يوم ٨ أكتوبر ١٩٥١).

وفى ذلك الموقف فقد كان الجيش البريطانى فى منطقة قناة السويس تشكيلا حربيا مقاتلا يدافع عن مواقع إمبراطورية توشك الشمس أن تغرب عنها، لكن الإمبراطوريات فى العادة أشد عنفا أوقات الغروب لأنها حينئذ أكثر ضعفا.

ثانيا ـ الجيش المصرى العائد من فلسطين بجرحه إلى شعب موجوع بعِللٍ اقتصادية واجتماعية وسياسية. وبصرف النظر عن الأحوال الصحية، فقد كان ذلك الجيش «المجروح» هو الأداة الوحيدة الباقية فى يد السلطة القائمة على الأمر فى القاهرة وهى سلطة العرش باعتبارها رمز السيادة، وفى يدها سلطة القرار، بصرف النظر عما تفعله أو لا تفعله أى وزارة تقوم على السلطة التنفيذية فى مصر.

لكن ظروف كل من الجيشين كانت أشد ما تكون اختلافا، فجيّش الإمبراطورية التى لحقها الغروب كانت له أحواله ـ وفى ذات الوقت فإن الجيش المجروح (لشعب موجوع) ـ كانت له أحوال مختلفة!

كان الجيش البريطانى فى قاعدة قناة السويس لحظتها يتكون من أربع فرق ـ إحداها فرقة مدرعة، وقيادته معقودة للجنرال السير «جورج أرسكين»، وتكليف هذا الجيش أن يحافظ على كفاءة القاعدة البريطانية فى منطقة قناة السويس لتؤدى دورها فى الشرق الأوسط، مرتكزة على تلك المنطقة الحيوية بين البحرين الأبيض والأحمر.

وكان تأمين القاعدة هو المشكلة التى واجهت الجنرال «أرسكين» عندما قامت وزارة الوفد بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، وتبدت بعدها احتمالات مقاومة مصرية يصعب تقدير حجمها لكنها مهما كانت، مصدر تهديد للقاعدة يستدعى التأهب.

وكانت تقديرات «أرسكين» لمهمته تطرح خطتين:

ـ خطة حد أقصى: هى الخطة «روديو» وهى خطة واسعة المدى يقع تنفيذها فى حالة اندلاع نوع من الحرب الشعبية ضد القاعدة يستند إلى العمق المصرى، وهنا فإن الخطة «روديو» تتسع إلى حد احتلال الدلتا ـ وفيها القاهرة بما يضمن السيطرة الكاملة على منطقة قناة السويس وعلى العمق وراءها عند العاصمة.

ـ وخطة حد أدنى: وهى خطة «القاعدة الصلبة» وهى خطة محدودة يقصد بها مواجهة حالة اضطرابات تقتصر على منطقة القناة، وهدف الخطة عزل هذه المنطقة عن الدلتا والقاهرة، ووضعها تحت حكم عسكرى بريطانى مباشر. وفى الواقع فإن تلك كانت الخطة الأكثر واقعية والأقل ضررا من الناحية الإقليمية والدولية، خصوصا إذا كان مستوى المقاومة التى تهدد القاعدة مما يمكن حصره محليا والسيطرة عليه.

ولعدة أيام بعد إعلان إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، كان القرار البريطانى يتأرجح بين الخطتين: خطة الحد الأقصى (روديو) وخطة الحد الأدنى (القاعدة الصلبة) ـ ومع منتصف شهر نوفمبر (١٩٥١) ـ توصل صانع القرار البريطانى إلى أن خطة «روديو» أكبر مما تستدعيه الضرورة، وكذلك فإن الجنرال «أرسكين» اعتمد خطة «القاعدة الصلبة» دون أن يحدد تاريخا لتنفيذها، وإنما تركها معلقة على إخطار لاحق ترتبط مدته بدرجة حرارة الأحداث.

وطبقا لوثائق وزارة الدفاع البريطانية (ملف ٩٦٨٦٤) فإن مقدمة الخطة كانت بالنص التالى:

(سرى للغاية

إعلان من الليوتنانت جنرال السير «جورج أرسكين»

القائد العام لقوات صاحب الجلالة البريطانية فى مصر

بما أن معاهدة التحالف الموقعة فى السادس والعشرين من أغسطس ١٩٣٦ بين حكومة صاحب الجلالة البريطانية وحكومة ملك مصر ـ والتى تم التصديق عليها فى الثانى والعشرين من شهر ديسمبر ١٩٣٦ ـ تخول لحكومة صاحب الجلالة البريطانية حق الاحتفاظ بقاعدة عسكرية لقواته فى منطقة قناة السويس بمقتضى شروط وضمانات متفق عليها فى نصوص المعاهدة المذكورة مع حصانات وامتيازات تتمتع بها قوات صاحب الجلالة البريطانية...

وبما أن هذه المعاهدة ـ وبنصوصها تظل ملزمة لأطرافها حتى يتم تعديلها بموافقة الطرفين المتعاقدين...

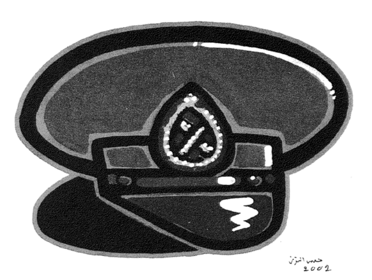
وبما أن الحكومة الملكية المصرية، بالمخالفة لالتزاماتها بنص المعاهدة قامت بإلغائها دون حق ودون اتفاق ودون إخطار مُسبق لحكومة صاحب الجلالة البريطانية...

وبما أن حكومة صاحب الجلالة الإمبراطورية رفضت أن تعترف بأى حق للطرف المصرى فى النكوص عن التزاماته التى وقَّع عليها...

وبما أن هناك عمليات عنف جرت ضد أشخاص ومؤسسات وقوات مشمولة بحماية حكومة صاحب الجلالة البريطانية...

وبما أن حكومة صاحب الجلالة المصرية عجزت عن توفير الحماية الضرورية المطلوبة ضد هذه العمليات بمقتضى التزاماتها الدولية...

تدق الباب!



وبما أن هناك تهديدات مُعلنة ضد إمدادات القاعدة البريطانية في منطقتى قناة السويس وخطوط المواصلات إليها...

بناء على ذلك كله، فإننى أنا الجنرال «جورج أرسكين» الفارس الحاصل على وسام الإمبراطورية البريطانية - والوسام الرفيع «باث» ورفيق الشرف في مجموعة الخدمة الممتازة، وبمقتضى السلطة المخولة لى كقائد عام لقوات صاحب الجلالة البريطانية في مصر - أعلن ما يلى:

«أننى المسئول عن حماية قوات صاحب الجلالة البريطانية في منطقة قناة السويس وإلى جوارها - كما أننى مسئول في هذه الحدود عن منع أى تعرض لعمل القاعدة وسلامتها، وسلامة جنودها والعاملين فيها، وكفاءة وسلاسة الخدمات اللازمة لها حتى تؤدى عملها دون تهديد أو تدخل أو تعرض من أى درجة.

وفى سبيل تحقيق ذلك فإنى أقرر الإجراءات التالية:

١ - كل من يقترف عملا أو يشرع في عمل أو يحرض على عمل من شأنه التأثير على عمل القاعدة وجوارها وسلامة العائلات أو الأفراد المشمولين بحمايتى - يُعَرِّض نفسه للاعتقال والمحاكمة والعقاب بمقتضى إجراءات ملحقة بهذا الإعلان.

٢ - سوف تُشَكَّل محاكم عسكرية بريطانية تتولى مسئولية تنفيذ ما يقتضيه هذا الإعلان والإجراءات المُلحقة به، وسوف تكون لهذه المحاكم العسكرية سلطة الاعتقال والاحتجاز والاستجواب والتفتيش والمصادرة.

٣ - لا يمتد العمل بهذا الإعلان وإجراءاته على المنطقة الواقعة غرب الخط الواصل من بورسعيد إلى الصالحية إلى العباسية إلى طريق القاهرة - السويس.

إمضاء

جورج أرسكين

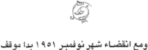
ليوتنانت جنرال

....

....

على أن سير الأمور لم يستدع كذلك تنفيذ خطة «الحد الأدنى» لأن جماعات المقاومة الشعبية ضد الاحتلال البريطانى في منطقة قناة السويس وجدت نفسها أمام معركة غير متكافئة، وقدر الجنرال «أرسكين» أنه في حاجة إلى جهد بوليسى أكثر من حاجته لجهد عسكرى، وهنا فإن الوثائق البريطانية تكشف أنه استدعى خبير أمن بريطانيا يُدعى «مايكل أورورك» وهو مفتش الأمن البريطانى في خدمة وزارة المستعمرات في كينيا، وكلفه بأن يضع لقيادته تقريرا بما يمكن عمله لضبط الأمن في منطقة قناة السويس. وبالفعل جاء «أوروك» وقضى في منطقة قناة السويس أسبوعا كاملا ثم كتب للجنرال «أرسكين» تقريرا اقترح فيه إنشاء قوة بوليس خاص رشح لقيادتها الضابط «كراكنيل» المكلف بالأمن في «إريتريا».

وكان يزكيه في مهمته المصرية أنه تعلم اللغة العربية في «إريتريا». (ومن المفارقات أن الحاكم العام البريطانى لإريتريا أبدى أنه لا يستطيع في الوقت الراهن أن يستغنى عن خدمات «كراكنيل»، وهكذا بدأ البحث عن بديل له - من وزارة المستعمرات).



ومع انقضاء شهر نوفمبر ١٩٥١ بدا موقف الحكومة المصرية حرجا في وطنها وفى الإقليم وفى العالم. فإلغاء المعاهدة أوقف المفاوضات ولم يقدم حلا. ثم إن عمليات المقاومة سببت إزعاجا، لكن تفاوت القوة وإمكانية عزل منطقة قناة السويس عن مصر أدى إلى حالة من الاضطراب. وقد وجدت الحكومة المصرية لزاما عليها أن تتصرف - خصوصا عندما قامت القوات البريطانية «بأعمال تامين» في جوار منطقة القاعدة استوجبت إخلاء قرى مصرية وهدم مبانٍ واحتلال مواقع متقدمة (في منطقة كفر عبده)، وهو أمر أدى إلى اشتباك بين أهل القرية وبين القوات البريطانية، مما دعا إلى إرسال قوات من بلوك النظام (نوع من قوات الأمن المركزى المعروفة الآن) - لتعزيز الأمن، لكن هذه القوات لم تستطع أن تقف ساكتة إزاء ما يجرى أمامها، و[illegible]ع أن عددا من أفرادها وجدوا أنفسهم بدون أوامر ينضمون إلى سكان «كفر عبده» ضد محاولات إبعادهم عن قريتهم وإخراجهم من بيوتهم!



كان الجيش البريطانى
فى منطقة قناة السويس
تشكيلا حربيا مقاتلا يدافع
عن مواقع إمبراطورية توشك الشمس أن تغرب عنها،
لكن الإمبراطوريات فى العادة
أشد عنفا أوقات الغروب
لأنها حينئذ أكثر ضعفا



وهنا طلب الجنرال «أرسكين» إلى السفارة البريطانية في القاهرة أن تتصل بوزارة الداخلية في مصر لتسحب قوات بلوك النظام من منطقة القناة كلها، والحجة أن هذه القوات - خلافا لقوات البوليس النظامية - ليست منضبطة، باعتبار أن هذه القوات (غير المدربة جيدا والمعتبرة من الفرز الثانى والثالث من المطلوبين للخدمة العسكرية) - أُرسلت على عجل إلى المنطقة في أجواء متوترة وظروف لا خبرة لهذه القوات بالعمل فيها.

ورفض وزير الداخلية «فؤاد سراج الدين» (باشا) هذا الطلب، وكان معه الحق أن يرفض - إلى جانب أنه لم يكن قادرا في ذلك الجو الملتهب على سحب قوات قامت بحماية مواطنين مدنيين تعرضوا لعدوان لا شك فيه!

وبدأت الأمور تتدافع، وقامت الحكومة المصرية بمجموعة إجراءات رأتها لازمة - ليس فقط لمواجهة الطوارئ في منطقة قناة السويس - ولكن أيضا لإعطاء معنى لقرارها بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، وهكذا أصدرت مجموعة من القرارات:

■ تشجيع عمال القاعدة البريطانية على ترك الخدمة فيها حتى تتعطل مرافقها الحيوية (وأهمها خدمات الموانئ).

■ الاستيلاء على أرض نادى الجزيرة في الزمـالك (وكـان حـتى تلك اللحظة ملكيـة بريطانية).

■ استدعاء السفير المصرى في لندن إلى القاهرة احتجاجا على التصرفات البريطانية (في كفر عبده).

■ إصدار قانون يحظر التعاون مع القاعدة البريطانية، وبمقتضى ذلك القانون جرى القبض على متعهد قبرصي اسمه «بابا استراتيس» في الإسماعيلية كان يورد مؤنا للقوات البريطانية، وأكثر من ذلك نجح الأمن المصرى في ترحيله خارج منطقة قناة السويس إلى القاهرة، واحتجت السلطات البريطانية على ذلك واعتبرته عملاً من «أعمال القرصنة».

وأدت هذه الإجراءات - وغيرها - إلى أجواء صدام ينتظر احتكاكا - وشرارة - ثم لهبا.

ووقع حادث إطلاق نار في التل الكبير على إحدى سيارات السفارة البريطانية وكانت قادمة من العاصمة قاصدة إلى القيادة البريطانية في منطقة فايد، وأحد ركابها ملحق في السفارة، ومرة أخرى احتجت السفارة البريطانية لدى وزارة الخارجية - تنسب ما وقع إلى التحريض المستمر في صحافة القاهرة.

وتلا ذلك أن السلطات البريطانية غرب التل الكبير احتجزت ضابط بوليس مصريا برتبة لواء كما احتجزت معه ١٢٠ جنديا من جنود «بلوك النظام»، واتهمت الجميع بأنهم رأوا حادث الاعتداء على سيارة السفارة البريطانية ولم يحركوا ساكنا.

وحين احتجت وزارة الداخلية على ما جرى غرب التل الكبير عادت السلطات البريطانية مرة أخرى إلى الإلحاح على ضرورة سحب قوات «بلوك النظام» لأنها - قياسا إلى قوات البوليس النظامى - أقل انضباطا وأكثر ميلا إلى الانسياق وراء التحريض. ■

«٣»

واقـع الحـــــال

داخل الجـيـش المصـرى

■ كان قرار البوليس في يد وزير الداخلية - بتفويض من رئيس الوزراء - لكن قرار الجيش في يد الملك، وذلك يطمئنه ويخيفه في ذات الوقت، وكان يدرك بعض الأسباب بالعقل ويستشعر بعضها الآخر بالغريزة - دون تحليل أو تأصيل!

كان داعى طمأنينة الملك - بالعقل - معرفته أن ضباط الجيش يقسمون يمين الولاء له - وليس لحزب أو زعيم أو رئيس وزارة. وكان شعار الجيش منذ تحولت مصر من خديوية إلى سلطنة إلى مملكة في بداية عصر والده «فؤاد الأول» هو: الله - الوطن - الملك. ثم حدث - (أكتوبر ١٩٤٤) وبعد إقالة وزارة الوفد (التى جاء بها إنذار بريطانى جرى التمهيد له بحصار قصر عابدين بالدبابات) - أن القائد العام للقوات المسلحة أمر بتغيير الترتيب في شعار الجيش بحيث أصبح: الله - الملك - الوطن.

وكان ذلك - بالعقل - يدعو للطمأنينة اعتمادا على ظاهر الأحوال، لكن المخاوف كانت ملازمة للطمأنينة (بالعقل أيضا) من عدة اعتبارات:

■ الأول - أن رجال الملك الموثوق بهم (الدكتور يوسف رشاد طبيبه الخاص) استطاعوا وسط الجيش إنشاء جماعة سرية تنفذ رغباته إلى حد قتل أعدائه السياسيين - وإذا كان «يوسف رشاد» قد استطاع النفاذ داخل الجيش وإنشاء تنظيم سرى في قلبه، فما الذى يضمن أن لا يكون هناك آخرون ينظمون - وينظمون سرا - والقصر هو البادئ بالشر وبالتالى فهو الأظلم!

■ والاعتبار الثانى - أن الجيش جزء من الشعب، وشعور الجزء يصعب أن يختلف عن شعور الكل، وإذا كان الشعور العام في البلد ناقدا للملك وساخطا، وفى بعض الأحيان إلى درجة العداء - إذن فإن بعض ذلك لابد أن يكون موجودا في الجيش ولو بالتسرب أو بالعدوى.

■ والاعتبار الثالث - أن هناك تيارات سياسية في البلد تدرك الأهمية العملية للجيش في الأوضاع الداخلية (باعتباره قوة الإجبار النهائية لسلطة الدولة)، وقد حاولت هذه التيارات أن تجد منافذ تتسلل منها إلى أفراده: سواء الضباط أو ضباط الصف - ومن يعرف مدى النفاذ الذى بلغته هذه التيارات - وكيف؟!

وراء ذلك كانت هناك أسباب أخرى للتخوف لم يدركها الملك «فاروق» تأصيلا أو تحليلا، لكنها في الغالب لم تكن طلسما على بعض رجال القصر، والحقيقة أن نظرة فاحصة ودارسة على أحوال الجيش وقتها كانت كفيلة بأن تكشف عن كثير من أحوال هذا الجيش الذى كان قراره في يد الملك، وكان عرشه مسنودا عليه في نهاية المطاف.

....

....

[والشاهد أن جيوش الدول لا تنشأ بقرارات أو قوانين، وإنما تنشأ وتنمو وتعيش في خدمة وصحبة أحلام ومشروعات، تبدأ من طموح أمير إلى خيال إمبراطور، ومن وحى عقيدة إلى بشرى مصلحة، ثم إن هذه الجيوش تمر بتجارب تاريخية طويلة تتبلور وتتركز خلالها رؤاها لمهامها في خضم صراعات مجتمعاتها، ثم تتحول الرؤى إلى ضرورات وقواعد أمن للأوطان التى تسكنها هذه المجتمعات والأقاليم التى تتصل بها وتتحرك في مجالها، ثم تتعمق تلك الضرورات والقواعد من خلال تجارب التاريخ الطويلة حتى تتجلى في نظريات للأمن القومى تستخلص من معاناة الحروب والمعارك والأعلام المخضبة بالدم تقاليد تترسخ بالخبرة والمعرفة وتتجدد مؤسسيا - زمنا بعد زمن - وجيلا إثر جيل، ثم يكون على كل زمن أن يساهم بفكره وعلمه، ويكون على كل جيل أن يعرض همته وقدرته، وأن يقدم جنوده وأبطاله، لأن فكرة الحرب لا تقوم إلا مع فكرة الوطن والشعب والتاريخ، وهى تحتاج دائما إلى المعنى والرمز (البطولة) وإلا تنازلت فكرة الحرب إلى عملية قتل مُنَظَّم وهى مختلفة عن مهمة الجيوش!

وعلى سبيل المثال فإن تجربة الجيش البريطانى على الناحية الأخرى تكفى لشرح فكرة الجيوش، فهى تجربة تبدأ من وقت بروز أمراء الإقطاع إلى زمن ظهور سيطرة الملوك - حتى كان ذلك الاقتتال بين العرش والكنيسة، واستعان كل منهما بجيش ثم استحال الحسم ووقع التراضى، فأصبح الملوك يحملون في أيديهم صُلبانا، وأصبح الكرادلة يضعون على رؤوسهم تيجانا، حتى قامت الدولة الإنجليزية الحديثة فاستوعبت التيجان والصُلبان والجيوش، ثم إن الدولة الإنجليزية وجدت نفسها تنافس غيرها من الدول في القارة الأوروبية على تجارة البحار، حتى جاء السباق الإمبراطورى يسوقها إلى الشرق مع غيرها من الإمبراطوريات الأوروبية، وأخيرا أعادها نفس السباق إلى القارة الأوروبية، لأن الإمبراطوريات (مثل الأفاعى!) تُقتل من رؤوسها وليس من ذيولها، وكذلك خاضت إنجلترا والإمبراطورية البريطانية كلها حربا عالمية في أوربا - مرة أولى ومرة ثانية. وعبر هذه التجربة الهائلة وطوالها راكم الجيش البريطانى خبرات وتقاليد، وكتب بالعرق والدم - وبالدموع أحيانا - تواريخ وأساطير، وعرض أمام العالم - بالحق أو بادعائه - أبطالا من مستوى «مارلبورو» و«ولنجتون» - وحتى «آلان بروك» و«مونتجمرى».



وفى الزمن المصرى الحديث فإن الجيش المصرى لم تكن عنده نظرية أمن استراتيجية ترسم وتحدد أهدافا ضرورية ومطلوبة في صراع المصائر. ولا كانت وراءه تجربة تاريخية ترسخ تقاليد دوره. ولا كان في خياله إلهام بطل تدرس حروبه ومعاركه (فضلا عن نظرياته وخططه).

والحقيقة أن تركيبة الجيش المصرى الحديث ذاتها كانت وحدها كافية لتبيان واقع الحال.

فقد كان ضباط الجيش المصرى حتى منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين - خليطا من أبناء أسر تركية وشركسية مما تخلف بعد انقضاء عهود المماليك، ثم طرأ تغيير في منتصف الثلاثينيات أغرت به نُذُر حرب عالمية ثانية وتمثل في السماح بقيام جيش مصرى صغير بسلاح بريطانى محدود يمكن تكليفه بخدمات للإمبراطورية البريطانية في حالة حرب محتملة مع ألمانيا وإيطاليا جنوب البحر الأبيض.

وقد تحقق هذا التغيير - وهو شديد الأهمية - في أجواء توقيع معاهدة الصداقة بين مصر وبريطانيا سنة ١٩٣٦، وعندها وفى عهد وزارة الوفد التى وَقَّعَت تلك المعاهدة تفتحت أبواب الكلية الحربية المصرية لقبول طلبة من أبناء الطبقة المتوسطة يتخرجون ضباطا في جيش راح يتحسس طريقه ضمن مشروع إقامة دولة مصرية حديثة تبحث عن مكان لنفسها وسط منطقة انكشفت فجأة أمام حقائق عصرها.

....

....

[يلحق بذلك أنه لا مفر من الاعتراف بأن التاريخ المصرى الحديث لم يمنح فكرة البطل العسكرى فرصة للاختبار وسط النار.

■ كان هناك مشروع نجم طاف بالأفق البعيد هو الفريق «عزيز على المصرى» (باشا) الذى أعجب به في ذلك الوقت عدد من ضباط الجيش الشبان، لكنهم حين اقتربوا منه

اكتشفوا أن النجم الذى تصوروه ـ تقادم في الزمن وغاب بريقه في «ثقب أسود» كما يحدث للنجوم في أواخر حياتها.

■ وكان هناك مشروع نجم ظهر سريعا في فلسطين وهو القائمقام «أحمد عبد العزيز» قائد قوات الفدائيين العاملة على الخط الشرقى للجبهة (خط العوجة ـ غزة ـ بئر سبع ـ الخليل ـ بيت لحم) ـ (وكان من حظى أننى قدمت «أحمد عبد العزيز» لجمهور واسع بهرته صورته حين رآها لأول مرة على الصفحة الأولى لأخبار اليوم) ـ لكن «أحمد عبد العزيز» لسوء الحظ واجه قدره برصاصة طائشة من موقع مصرى لم يكن لديه إخطار مُسبق بأن قائد قوات الفدائيين سوف يمر بسيارة جيب قاصدا من مقر قيادته في بيت لحم إلى مقر القيادة العليا للقوات المصرية في المجدل (شمال غزة)، حتى يسوى مع اللواء «أحمد المواوى» مشاكل تتعلق بالتنسيق بين قوات الفدائيين (على الطريق الشرقى) ومجموعة الجيش الرئيسية (على الطريق الساحلى) ـ وهكذا فإن النجم الذى لمع بسرعة ـ ما لبث أن اختفى فجأة.

■ وكان مشروع النجم الثالث هو اللواء «فؤاد صادق» القائد العام لقوات الجبهة (بعد عزل اللواء المواوى) ـ (وكنتُ شخصيا ممن أعجبوا زمنها باللواء صادق ورتبت له أن يكتب بانتظام في أخبار اليوم، كما رتبت نشر مذكراته عن الحرب في آخر ساعة، لكن اللواء «فؤاد صادق» كانت له خطط مختلفة، فقد كان مُناه أن يصبح قائدا عاما للقوات المسلحة بدل الفريق «محمد حيدر» (باشا). وعندما تصور اللواء «صادق» أنه لمح إشارة بوعد ـ فقد اعتذر عن عرض أخبار اليوم لكتابة مذكراته (وأعاد إلى الجريدة مبلغ ألف جنيه تسلمها: «مقدم حقوق») ـ ثم وقع أن إشارة القصر الملكى اختفت دون أن يتحقق وعدها).

وربما أن «عبد المنعم رياض» كان مشروع بطل عسكرى قيد الظهور، وكانت هناك شواهد تدل على أن «عبد المنعم رياض» قادر على فهم قضية الحرب، وذلك تجلى من خلال إسهامه المتميز في وضع أسس فكرة خطة «جرانيت» (١) التى تحولت فيما بعد إلى الخطة «بدر» ـ التى نفذتها القوات المصرية في أكتوبر ١٩٧٣ ـ لكن «عبد المنعم رياض» لسوء الحظ استُشهِد ولم يكن هناك عند جسور العبور!]

....

....

[فى الحقيقة فإن تجربة الجيش كانت دونها عوائق حقيقية، فالجيش لم يكن بعد في خدمة حلم أو مشروع يقدر على الإلهام، وتجربة ترسخ تقاليد تستوجب الاحترام، ولم تكن لديه نظرية أمن وطنى تحدد وتُوجه، لأن الوطن كان مازال يبحث عن استقلاله من قوى أجنبية تعاقبت على حكمه قرونا ممتدة منذ سقطت آخر أسر الفراعنة أمام غزوة الفرس بقيادة قمبيز. وهكذا فإنه لأكثر من عشرين قرنا ظل الأمن المصرى مربوطا باعتبارات في الأمن ـ أكبر وأوسع ترسمها إمبراطورية قديمة أوروبية: إغريقية، رومانية، أو خلافة عربية: أموية، عباسية، أو سلطنة: مملوكية، عثمانية، أو إمبراطورية مستجدة: فرنسية، بريطانية، وهكذا.

وداخل هذا المجرى التاريخى المضطرب فإن منطق الأمن القومى المصرى غاب، ومع غيابه لم تتخلق بالتجربة التاريخية نظرية له، وفى غياب النظرية لم يقع اختبار الصواب والخطأ، وفي العزلة عن اختبار الصواب والخطأ احتجب معنى النصر، كما احتجب درس الهزيمة، ثم إن نموذج البطل الوطنى لم يعد مجاله التاريخ، وإنما أصبح مخبؤه الأسطورة!]



على أنه بصرف النظر عن كافة الاعتبارات ـ وفيها التاريخ والتجربة ـ فإن منطق الضرورة ومقتضى السياسة كان الآن (بداية سنة ١٩٥٢) يواجه الملك بحقائق لا يستطيع أن يدير بصره عنها:

■ الحقيقة الأولى ـ أنه هذه اللحظة (من أواخر سنة ١٩٥١ وأوائل سنة ١٩٥٢) ليس أمامه غير أن يترك حكومته تفعل ما بدا لها، بما في ذلك إلغاء المعاهدة بين مصر وبريطانيا (١٩٣٦) ـ ومع أنه كان واثقا أن هذا الإلغاء تم لاعتبارات حزبية، وأنه وقع دون استعداد لعواقبه ـ فإنه من جانبه لم يكن يملك غير التصديق على ما قدمته الوزارة إليه، رغم اعتقاده في أعماقه ـ «بأن الوزارة تنتحر وهو لسوء الحظ لا يستطيع أن يمنعها ـ والمهم بالنسبة له أن لا تؤثر محاولة الانتحار عليه وعلى عرشه».

■ والحقيقة الثانية ـ أنه من نتيجة إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ وتداعياته أن الجيش البريطانى استفرد بمنطقة قناة السويس (ثلاث محافظات) ـ ومضى يحاول إخضاعها لإرادته بأقصى درجة من القمع، وأقل قدر من الخسائر.

■ والحقيقة الثالثة ـ أن الملك بذل قُصارى جهده حتى لا تتورط قوات الجيش المصرى سواء تلك المُرابطة على الحدود شمال سيناء، أو تلك التابعة لقيادة المنطقة الشرقية في الإسماعيلية ـ فيما يقع داخل منطقة القناة. وقد تحقق له ما أراد بشبه معجزة ولولاها لانفلت الزمام ووقع المحظور، وضمن احتمالاته أن تجد القوات المصرية سواء على الحدود في سيناء أو عند مواقع المنطقة الشرقية في الإسماعيلية ـ نفسها محصورة بين قوات بريطانية تحاول نزع سلاحها من جانب ـ ومن الجانب الآخر قوات إسرائيلية تنتهز الفرصة لتصفية وجودها في قطاع غزة وفى رفح والعريش!

■ والحقيقة الرابعة ـ أنه ومع انتقال الأزمة من منطقة قناة السويس إلى القاهرة، فإن الملك:

ـ ... بواقع أن الحكومة مطالبة بخطوة في الرد على ما جرى في الإسماعيلية...

ـ ... وبحقيقة أن قوات المقاومة الوطنية التى كانت تواجه الإنجليز في منطقة القناة استدارت راجعة إلى القاهرة...

ـ ... وباحتمال أن هذه الأجواء المشحونة في العاصمة أصبحت أشبه ببرميل بارود ينتظر عود كبريت...

لم يعد وراءه (وأمامه) أكثر من أى وقت مضى إلا سند الجيش.

■ والحقيقة الخامسة ـ وهى استخلاص منطقى لكل ما سبق ـ أنه والأمر كذلك فإن الملك مسئول ـ ومباشرة ـ عن ضمان تأمين جيشه بنفسه أو بواسطة رجاله الموثوقين ـ بحيث تتأكد له السيطرة على الجيش نظاما ـ وكذلك تنظيما.

وكان ذلك الاعتبار بالتحديد هو ما دعا القصر إلى التدخل بشدة في انتخابات مجلس إدارة نادى ضباط القوات المسلحة في ديسمبر سنة ١٩٥١.



ولم يكن القصر الملكى وحده هو الذى اهتم تلك الساعة الحرجة بانتخابات مجلس إدارة نادى ضباط الجيش، وإنما اتسعت دائرة الاهتمام فوصلت إلى كل حزب سياسى، بل وإلى كل سفارة أجنبية.

وكانت وراء ذلك دواع مجملها أن هذه الانتخابات سوف تكون بمثابة مرآة تنعكس عليها ـ ولو بطريق غير مباشر ـ أحوال القوات المسلحة المصرية ومشاعرها التى تبدو عصية على الرصد والمتابعة والاستقراء من خارجها. والحاصل أن الجيش بدا لكافة المراقبين في الداخل والخارج ـ منطقة معرضة لتفاعلات ضرورية بالطبيعة ـ لكن الصورة ظلت غيوما على الأفق:

ـ فهناك تداعيات الظروف التى نشأ فيها الجيش وتطور في السنوات القريبة.



ربما أن «عبد المنعم رياض» كان مشروع بطل عسكرى قيد الظهور. وكانت هناك شواهد تدل على أنه قادر على فهم قضية الحرب، وذلك تجلى من خلال إسهامه المتميز فى وضع أسس فكرة خطة «جرانيت» (١) التى تحولت فيما بعد إلى الخطة «بدر» ـ التى نفذتها القوات المصرية فى أكتوبر ١٩٧٣



ـ وهناك تأثيرات المحيط الاستراتيجى والسياسى الذى جاء بعد الحرب العالمية الثانية ووصلت حقائقه إلى الجيش ولو أصداء من بعيد (وفيه حادث ٤ فبراير ١٩٤٤).

ـ وهناك العلاقة الملتبسة بين ولاء الجيش بهيئته الكاملة للملك ـ وبين قيام تنظيم داخل الجيش مرتبط به مباشرة ومكلف بتصفية أعدائه (إلى درجة القتل كما حدث لأمين عثمان ـ أو محاولة القتل كما حدث مع «النحاس» (باشا)).

ـ وهناك الانكشاف الفكرى لشباب جيش ينشأ مستجدا في وطن يحاول نيل استقلاله بعد الحرب العالمية الثانية، وهو في محاولته مفتوح لقوى وتيارات فكرية بعضها في قوة العاصفة التى انطلقت من كل قيد (وبعضها واصل ليؤثر داخل الجيش لأن الجيش ليس بوتقة مفرغة من الهواء). وكان واضحا أن بعض المؤثرات وصلت: الإخوان المسلمين، والتنظيمات الشيوعية (بالذات تنظيم «حدتو»)، بل ومن ناحية أخرى حركة «مصر الفتاة».

وأكثر من ذلك فإن بعض الأسر ومنها عائلات «عبد الغفار» و«سراج الدين» وغيرها ـ تذكرت فجأة أن لها أبناءً يخدمون في الجيش ـ ضباطا وصل بعضهم إلى أعلى الرتب، وهكذا بدأ «الباشوات» يستدعون شبانا من أقاربهم انتظموا في سلك الضباط ليسمعوا منهم ـ وأكثر من ذلك نشط في مجال الاتصالات والحصول على المعلومات بعض ضباط الجيش من أصهار الأسرة المالكة نفسها. وفى تلك الفترة ظهر في نوادى الطبقة الراقية (كما كانوا يسمونها وفيها نادى السيارات ونادى الفروسية ونادى الجزيرة) ـ عدد من الضباط لم يكن لهم سابق تردد عليها، لكنهم في ظروف طارئة وجدوا طلبا عليهم تمتعوا بمباهجه دون أن يسألوا عن حساباته!

ـ وكانت هناك تجربة دخول حرب فلسطين وما تبعها وواكبها ولحقها من أحداث جِسام ساقت إليها الفوضى أكثر مما دعت الحكمة، وفى غِمار تلك الفوضى جرى تكليف الجيش بمهامِ الأمن الداخلى أثناء إضراب البوليس أوائل سنة ١٩٤٨ ـ ثم صدر الأمر إليه بخوض حرب بلا مقدمات وبغير استعدادات (في مايو ١٩٤٨)، ثم فوجئ بصراع مسلح داخل عاصمة الوطن التى تملك قرار الحرب وصلاحية توجيهها، فقد وقع اغتيال رئيس الوزراء داخل مبنى وزارة الداخلية ـ ووقع اغتيال مرشد الإخوان المسلمين في أكبر شوارع العاصمة ـ وهنا فإن قيادات التشكيلات في الميدان وصلتها التعليمات باعتقال جنود وضباط في وحداتها، بعدما أظهرت التحقيقات في قضايا الاغتيالات أن لهم صلة بتنظيمات إرهابية (ووصل عدد الذين طلب ترحيلهم ما بين شهر سبتمبر إلى شهر ديسمبر ١٩٤٨ من ميادين القتال إلى العاصمة تحت القبض والحراسة ٢١٠٠ عنصرا من المجندين و٢٨ من سلك الضباط).

ـ وأسوأ من ذلك فإن الجيش المصرى الذى خاض تجربة فلسطين وجد نفسه بعد وقف إطلاق النار موزعا على ستة جيوب: جيب مُحاصر في الفالوجة ـ وجيب وحده في قطاع غزة ـ وجيب محيط بالقيادة العامة في العريش ـ وجيب تابع للقيادة الشرقية في الإسماعيلية ـ وجيب مُوَزَّع حول القيادة المركزية في القاهرة ـ وذلك

غير الوحدات العاملة في إطار الحرس الملكى، وفوق الجميع قيادة عامة بهيئاتها وطواقمها يشرف عليها ضباط أطلق عليهم اللواء «فؤاد صادق» (باشا) القائد العام لقوات الجبهة في رفح - وصف «حربجية الورق» (يقصد ضباط المكاتب)!



وكان مؤدى ذلك ومعناه أن القوة الرئيسية التى يعتمد عليها النظام - العرش والجالس عليه - معرضة ومكشوفة أمام خطر يصعب تقدير درجته ومداه - لكنه الآن وهذه اللحظة (ديسمبر ١٩٥١) فإن انتخابات مندوبى أسلحة الجيش المختلفة إلى مجلس إدارة نادى ضباط الجيش - سوف تكون أول قياس عملى لما هو خفى داخل الجيش وتحت السطح، وفى نفس الوقت فإن وجود مجلس إدارة منتخب لنادى ضباط الجيش ربما يخلق لأول مرة نوعا من القيادة المعنوية موازيا للقيادة الرسمية.

وهكذا فإن السفير البريطانى في القاهرة السير «رالف ستيفنسون» يكتب يوم ٦ ديسمبر سنة ١٩٥١ إلى وزارة الخارجية البريطانية (٥٢٩/١/١٠١١) قائلا:

«إن الأهمية المعلقة على وقائع الاجتماع الذى يُعقد يوم الاثنين ٣١ ديسمبر ١٩٥١ لاختيار مجلس إدارة نادى ضباط الجيش هى مما لا يخفى على أحد والحقيقة أن انعكاساتها بالغة الأهمية (Very Considerable بنص تعبيره)».

ثم يبين أن السفارة البريطانية - في اهتمامها بانتخابات نادى الضباط - لا تريد - نظرا لأهمية الموضوع - أن تعتمد على مصدر واحد، وهنا فإن تقارير السير «رالف ستيفنسون» تشير إلى نشاط ثلاثة مصادر في آن واحد راح يعتمد عليها - وفى الغالب دون قصد شرير سواء من جانبه أو من جانب من سعى لمعرفة ما عندهم:

- كان لديه بالطبع مصدره الرسمى وهو البريجادير «توماس جولبرن» الذى تظهر تقاريره أنه كان على علاقة ود مع كثيرين من كبار الضباط، بينهم اللواء «فؤاد صادق» واللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن» (مدير إدارة الملحقين العسكريين الأجانب) واللواء «محمود صبحى» مدير الكلية الحربية (وأحد المرشحين لمجلس إدارة النادى).

- وكان لديه ابن أخ لـ «أحمد عبد الغفار» (باشا) قطب الأحرار الدستوريين المعروف (وهو القائمقام «محب عبد الغفار» وكان متزوجا من السيدة «فاطمة أبو العزيز» وهى وصيفة شرف في القصر الملكى - وكلاهما كان من نجوم المجتمع المصرى في تلك الأوقات). وكان «أحمد عبد الغفار» (باشا) يسمع من ابن شقيقه ويتحدث مع السفير البريطانى وغيره في الإطار العام لعلاقات اجتماعية مقبولة ومشروعة.

- وكان لديه أيضا - طبقا لتقاريره - معلومات يحصل عليها من الدكتور «إبراهيم قدرى» وكيل وزارة الزراعة (ومدير حديقة الحيوانات في نفس الوقت) - وكان شقيقا للعميد «جلال قدرى» الذى رأس جلسة الجمعية العامة لنادى ضباط الجيش مساء يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥١).

وعلى سبيل المثال يكتب السير «رالف ستيفنسون» بناء على معلومات من الدكتور «إبراهيم قدرى» (وذلك تقريره) ما نصه:

«لقد حضر الاجتماع ٤٥٠ ضابطا - وذلك عدد لا يستهان به إذا أخذنا في الحسبان أن معظم ضباط الجيش كانوا في مواقع خدمتهم بالضرورة».

ثم يقول السفير البريطاني:

«واللافت إلى آخر حد أن المرشحين الذين كان معروفا أن القصر يريدهم، سقطوا جميعا. فقد رفضت الجمعية العامة اختيار الفريق «محمد حيدر» (باشا) القائد العام للجيش «رئيسا فخريا» للنادى كما كانت رغبة القصر. كذلك سقط أبرز مرشحى الملك وهم «عثمان المهدى» (باشا) (رئيس أركان الحرب وقائد الحرس الملكى قبل ذلك) الذى رشح نفسه لرئاسة النادى، وأهم من ذلك سقط الأميرالاى «حسين سرى عامر» قائد سلاح الحدود وهو المعتبر رجل الملك الأهم في الجيش، بل إن الجمعية العامة وهى تختار مندوبى أسلحة الجيش إلى مجلس إدارة النادى أبدت اتجاها معاديا لحسين سرى عامر وصل إلى حد تعليق وضع سلاح الحدود بادعاء أن اختصاصه أقرب إلى البوليس منه إلى الجيش»!

والأشد من ذلك إحراجا أن اللواء «محمد نجيب» جرى انتخابه رغم أن الملك أقصاه عن قيادة سلاح الحدود وعين بدلا منه الأميرالاى «حسين سرى عامر» بعد أن رَقَّاهُ إلى رتبة لواء».

"٣"

العاصـــمة تلهـــو

فى حقـــل ألـغـــام!

كانت نتائج انتخابات مجلس إدارة نادى ضباط القوات المسلحة - صدمة عنيفة للقصر الملكى ومن فيه. وكان «حسن يوسف» (باشا) القائم بأعمال رئيس الديوان على اعتقاد لم يتزحزح عنه (طبقا لشهادته المسجلة بصوته) - مؤداه أنه «إذا فقد الملك «فاروق» تأييد الجيش فقد سقطت الملكية» - لكن مشكلة «حسن يوسف» (باشا) أن شئون الجيش بعيدة عنه، لأن الفريق «محمد حيدر» (باشا) يتكفل بالجانب الرسمى منها، كما أن الدكتور «يوسف رشاد» يتولى خطوط الاتصال الخفية بين القصر وبين عدد من ضباط القوات المسلحة، وفى تلك الفترة لحق به آخرون غيره، فقد ظهر دور متزايد للواء «محمد حلمى حسين» قائد الجراجات الملكية (وهو في الأصل سائق سيارة الملك)، وكذلك للواء «حسين سرى عامر» القائد الجديد لسلاح الحدود.

وكانت مشاعر الملك في تلك الأوقات خليطا يتذبذب: ما بين ثقة متزايدة بالنفس بغير مبرر - إلى شعور بالإحباط لدرجة اليأس بغير داع - وقد تملكه شعور بأنه يقف وحده في مواجهة أزمة ضاقت سُبُلُ حلها وليس هناك من يساعده أو يشير عليه بما يرضيه، وكان توجهه عنيدا نحو ضرورة تغيير الوزارة كخطوة أولى. ومع أن التغيير بدا له مخاطرة، فإن بقاء الأوضاع على حالها بدا له أخطر «مائة مرة»!

وفى الأسبوع الأول من شهر ديسمبر ١٩٥١ استقبل الملك (دون إعلان) - «نجيب الهلالى» (باشا) وعرض عليه رئاسة الوزارة مرة ثانية، وطبقا لنجيب الهلالى (باشا) نفسه فقد كان «منطق الملك حين قابله مرتبا بأكثر من العادة لكنه كان في النهاية سطحيا كما هى العادة!».

قال له الملك «إن الوقت قد حان لتغيير الوزارة - لكنه حتى هذه اللحظة لا يريد أن يجعل من التغيير «انقلابا في البلد»، بل يكفيه أن يكون انقلابا في الوفد»، بمعنى أنه يطلب من «الهلالى» (باشا) تشكيل وزارة تجذب إليها كتلا كبيرة من نواب الوفد وأقطابه الغاضبين من «فؤاد سراج الدين» (باشا) وبينهم في تقدير القصر اثنان من الكبار هما: «عبد السلام فهمى جمعة» (باشا) (رئيس مجلس النواب الوفدى الدائم) و«محمود زكى العرابى» (باشا) (رئيس مجلس الشيوخ الوفدى الحالى) ومعلوماته أن وراءهم كثيرين غيرهم، يعرف الملك من مصادره أنهم لا ينتظرون غير إشارة، ثم إذا هم جاهزون لإنقاذ حزب الوفد وتاريخه ووزارته استجابةً لنداء من رجل في حجم «نجيب الهلالى» (باشا).

وأحس «نجيب الهلالى» (باشا) (وفق ما روى) أن تلك توصية «حسن يوسف» (باشا) لأن ما طرحه الملك كان «سيناريو سمعه «الهلالى» من قبل واعترض عليه ولايزال يعترض لنفس الأسباب وأهمها أن مثل ذلك «السيناريو» يحتاج إلى وقت ويحتاج إلى ظروف يمكن فيها ضبط رد فعل «النحاس» (باشا) وحصره، لأنه إذا أحس «النحاس» بأن هناك مؤامرة عليه، فهو قادر على أن «يقلب الدنيا» - بما لا يتوقعه أحد»!

وفى نفس الأسبوع استدعى الملك لمقابلته «حافظ عفيفى» (باشا) (وهو السياسى المخضرم ورئيس مجلس إدارة بنك مصر وقتها) - وفوجئ «حافظ عفيفى» بأن الملك يسأله «كيف يستطيع أن يخدم العرش في الظروف الراهنة ويخدم البلد»؟ وأحس «فاروق» أن «حافظ عفيفى» ليس لديه جواب واضح. وأبدى ضيقه قائلا: «إنه لا يُعقل أن ساسة البلد الكبار يتهربون من المسئولية خائفين ويتركونه وحده». وروى «حافظ عفيفى» لنجيب الهلالى (باشا) أنه أحس خلال مناقشة طالت نصف ساعة أن الملك في حالة ضيق، وأنه حاول شد أزره بما معناه «أنه لا يوجد وطنى مصرى لا يصدع بأمر يراه «جلالة الملك» لازما في هذه الظروف». وأبدى الملك أن الضرورة أصبحت تفرض تغيير الوزارة، ورد «حافظ عفيفى» بأنه مع «جلالة الملك» في ضرورة تغيير الوزارة، لكنه يرى أن هذا التغيير لا يتم إلا بتمهيد سياسى يتولى «تحضير الأرض له». وأبدى الملك «أنه يوافق»، لكنه على «حافظ» (باشا) أن يتفضل ويمهد. وفوجئ «حافظ عفيفى» (باشا) بأن الملك يعرض عليه رئاسة الديوان الملكى حتى يكون بجواره ويقوم بالتمهيد، ولم ينتظر الملك وإنما استطرد «إذا كنت تتصور أن ذلك يُضايق «حسن يوسف» فأنا أطمئنك إلى أن «حسن» نفسه أول من يرحب بمجيئك إلى الديوان، لأنه أول من يشعر أن الموقف «صعب» عليه. أضاف الملك «إن حسن يوسف كان هو الذى اقترح عليه تعيين «عبد الفتاح عمرو» مستشارا سياسيا له بعد أن قررت الوزارة

سحبه من سفارة لندن احتجاجا على التصرفات البريطانية في منطقة قناة السويس، ومعنى ذلك أن «حسن يوسف» يشعر بحاجة القصر إلى «طاقم سياسى كامل» يتحمل المسئولية. وأثناء المناقشة وبطريقة عرضية، وفى شأن ما يجرى في منطقة قناة السويس، واحتمالات ما يمكن أن يجرى - سياسيا - خارج تلك المنطقة، وَجَّهَ «حافظ عفيفى» سؤالا عن:

«إذا كان لدى «مولانا» تقدير موثوق به للأحوال في البوليس؟» - ورد الملك وبسرعة قائلا «إنه لا يعرف».

وواصل «حافظ عفيفى» أسئلته، وكان سؤاله التالى «عن الموقف في الجيش» - ورد الملك بسرعة أيضا قائلا له: «لا تحمل هَمْ هذه المسألة، فهى «شغلى»، وأنا أتولاه بنفسى».

وفى نهاية اللقاء لم يكن أمام «حافظ عفيفى» (باشا) مفر من القبول، وكان آخر سؤال وجهه إليه الملك هو «عليك يا باشا» أن تفكر في من أستطيع أن أكلفه بتشكيل الوزارة في هذه الأجواء؟ ورد «حافظ عفيفى» (باشا) بأنه سوف يفكر، لكنه يريد توجيها يؤشر إلى حدود الاختيار ومواصفاته في رأى الملك، وقال «فاروق» «إنه عرض الوزارة على «الهلالى» - لكن «الهلالى خائف أكثر منك»!

ويوم ٢٥ ديسمبر - قبل انتخابات نادى ضباط الجيش بأقل من أسبوع، صدر المرسوم الملكى بتعيين «حافظ عفيفى» (باشا) رئيسا للديوان الملكى.

وكان القرار مفاجاة لرئيس الوزراء «النحاس» (باشا) - وكان القرار أكثر من مفاجأة بالنسبة لوزير الداخلية «سراج الدين» الذى أدرك بحسه أن تلك مقدمات انقلاب وزارى تضيع به فرصة رئاسته للوزارة - ربما إلى الأبد.

ويوم ١٢ يناير ١٩٥٢ كتب السير «سيسيل كامبل» (عميد الجالية البريطانية في مصر، وكان مازال قائما على الاتصالات السياسية بعدما توترت العلاقات وتعطلت الجسور بين الوزارة والسفارة البريطانية) - تقريرا عن مقابلة أجراها مع رئيس الديوان الملكى الجديد (وهو من الأصل صديق حميم له)، وقد سجل السفير البريطانى تقرير عميد الجالية البريطانية تحت تصنيف «سرى جدا» (رقم ج ٥٢/٥/١٠١١)، وبعث به إلى وزارة الخارجية البريطانية - قائلا: «بدأت فسألت حافظ (باشا) عن صحته، وأجاب بأن صحته على ما يرام». وأضاف «ولكنى يا صديقى في ورطة تصل بى إلى حد اليأس»، وهنا تدخلت زوجته (السيدة فردوس هانم (ابنة «أمين باشا سامى») صاحب «تقويم النيل» وهو واحد من أهم المراجع عن أحوال مصر واقتصادياتها وسياساتها) - قائلة لسيسيل كامبل «هو في موقف صعب ولكن لا تصدقه إذا قال لك أنه تعيس، لأن السياسة غرامه، وأنا لم أره في أحوال طيبة كما أراه الآن عندما عاد إلى العمل السياسى قبل أيام - زادت على ذلك قولها «حافظ روحه في السياسة».

ويستطرد السير «سيسيل كامبل» في تقريره: «دخل «حافظ عفيفى» في تحليل للموقف فقال إنه عندما قَبِلَ رئاسة الديوان كان يعرف أنه مُقْبِل على مهمة صعبة تقتضى منه تضحيات جسيمة، لكنه عندما درس الموقف وجد أن المسائل أكثر صعوبة مما تصور، وأكثر حساسية، فحكومة الوفد لم تكن مستعدة بخطة لما بعد تعطل المفاوضات، وهى على استعداد لأن تشجع أجواء العنف في البلد إلى درجة تسميم الأجواء والوصول بالموقف إلى درجة يستحيل بعدها على أى حكومة غيرها أن تحل محلها!».

(علق السفير البريطانى على هذه الفقرة في برقية إلى لندن بقوله «إن حكومة الوفد تتصرف باعتقاد أن تأزيم الموقف معنا هو بوليصة التأمين على حياتها في السلطة!).

ويستطرد السير «سيسيل كامبل» في تقريره فيقول: «إن حافظ عفيفى ذكر له أن حكومة الوفد مصممة على تصعيد حدَة الأزمة معنا، وذلك وصل بهم إلى حد أنكم لو عرضتم عليهم تحويل بريطانيا ذاتها إلى محمية مصرية فإنهم سوف يجدون عذرا للرفض». وطبقا لسيسيل كامبل فقد استطرد «حافظ» (باشا) يقول «المشكلة في الوفد أنه لم يعد فيه الآن مسئول تستطيع أن تبحث معه مشكلة وتجد عنده مشروع حل أو منطق رد: فالنحاس (باشا) أصبح حالة مستعصية على أى حديث نافع، و«فؤاد سراج الدين» رجل لا يوثق به لأنه «كذاب بشع» A Frightful Liar، و«محمد صلاح الدين» هو الرجل الوحيد (في المجموعة) الذى يستحق الاحترام لأنه أمين ومخلص، ومن سوء الحظ أن عدم استطاعته التوصل إلى شيء في التفاوض معكم (مع الإنجليز) أحرجه وأصابه بالقنوط!».

يستطرد السير «سيسيل كامبل» في تقريره فيقول «إننى سألت «حافظ» (باشا) مباشرة «ما هى الصعوبة في تغيير الوزارة الحالية؟» - ورد قائلا «المشكلة أن إقالة الوزارة لابد أن يتبعها حل مجلس النواب والدعوة إلى انتخابات عامة في ظرف ثلاثة شهور، ولابد للملك أن يتحَوَّط لذلك بإعلان الأحكام العُرفية، وهذه تحتاج في فرضها إلى سلطة الدولة، والعُقدة الصعبة أن الملك لا يستطيع أن يراهن على أجهزة هذه السلطة، فلا البوليس يمكن الاعتماد عليه ولا الجيش يمكن الاعتماد عليه».

واستطرد السير «سيسيل كامبل» «في تقدير «حافظ» (باشا) أنه في حالة مواجهة فإن ٧٠٪ من قوة البوليس يصعب ضمان أدائهم لواجبهم، والـ ٣٠٪ الباقين يمكن ضمانهم، وذلك ليس كافيا لقبول المخاطرة.

وفيما يتعلق بالجيش فإن القصر لسوء الحظ كافأ بالرُتَبْ والنياشين والترقيات الاستثنائية ضباطا لا يستحقون، وبالتالى فإن القصر ضَيَّع بعض هيبته أمام ضباط الجيش».

ويزداد إلحاح السير «سيسيل كامبل» على رئيس الديوان الملكى في سؤاله عن تصوره للمخاطر، ويقول «حافظ عفيفى» وينقل عنه السير «سيسيل كامبل» «الذى أخشى منه هو ثورة شاملة تطيح بنا جميعا، وما أركز عليه الآن هو محاولة تدعيم الموقف في الجيش، وهو ما أراه حتى الآن ممكنا، رغم أننى أرى دواعى للشر كثيرة.

وبالنسبة للبوليس فإننى أدرس الآن أحواله لأنى أريد أن أتأكد ما إذا كان موقفه ميئوسا منه أو أنه مازال هناك أمل. يبقى أن الموقف في الجامعات سيىء جدا سواء بين جموع الطلبة أو صفوف هيئات التدريس!».

ويصل السير «سيسيل كامبل» إلى توجيه سؤال محدد لحافظ عفيفى (باشا) - عن من هو رئيس الوزراء المُحْتمل في حالة تغيير وزارى إذا اقتضت الظروف. ويرد «حافظ عفيفى» «أنه يعرف أن الملك عرض على «الهلالى» (باشا) رئاسة الوزارة وأنه اعتذر. وقد قابل «نجيب الهلالى» بعد ذلك وأحس أنه «غير واثق في البوليس» وهو يستطيع أن يفهمه. ومع ذلك فهو يظن أن «نجيب الهلالى» سوف يكون مرشحا جاهزا إذا لم يكن عليه تحمل الصدمة الأولى التالية لإقالة وزارة الوفد، بمعنى أنه لابد قبله من رئيس وزراء يستطيع مواجهة ظرف الإقالة واستيعابه، وبعدها تكون الأرضية جاهزة لوزارة يرأسها «الهلالى» - وترتب لعملية إصلاح داخلى آن أوانه.

ويستطرد رئيس الديوان في حديثه مع عميد الجالية البريطانية في مصر ليقول: «إنه شعر أثناء مقابلته للملك أنه كاد في لحظة من اللحظات يعرض عليه رئاسة الوزارة، ولم يكن يريد أن يضع الملك أمام اعتذار آخر - بعد اعتذار سبق من «نجيب الهلالى»، وإلا استقر في يقين الملك أن الكل يهرب وأن الجميع خائفون!».

والحقيقة أنه يفكر في سياسى يكون لديه الاستعداد لصدمة ما بعد إقالة وزارة الوفد، وهو بالطبع لا يثق فى «حسين سرى» (باشا) ولا يراه صالحا لهذه المهمة، فالرجل باع نفسه بالكامل لأحمد عبود (باشا)، وهو «الشرير الأكبر» في مصر الآن، لأنه رجل يريد أن «يشترى» مصالحه ويبيع «كل شىء»!».

واصل «حافظ عفيفى» (باشا) كلامه مؤكدا أن الثلاثى الأكثر خطرا على الملك وعلى البلد الآن هُمْ: «أحمد عبود» (باشا) - «إلياس أندراوس» (باشا) - و«كريم ثابت» (باشا)، وكان تواطؤ الثلاثة هو ما دفع الملك إلى تصرفات غير مأمونة العواقب في الظروف الحالية.

وأضاف «أنه يتمنى لو استطاع إقناع الملك بأن يصم أذنيه عن سماع «إلياس أندراوس» و«كريم ثابت»، وأما «عبود» فمن الممكن الحد من ضرره إذا لم يجد رئيس الوزارة الذى يستطيع أن «يوظفه»!».

وفى ختام المقابلة أشار رئيس الديوان الملكى لعميد الجالية البريطانية بأنه يفكر في اتجاهين:

(اتجاه الجيش وهو ينوى أن يقترح على الملك أهمية التخلص من القائد العام الفريق «محمد حيدر» (باشا)، ومع أن الرجل (حيدر باشا) ليس فاسدا إلا أنه فقد مصداقيته في الجيش - وكذلك ينوى اقتراح إنهاء خدمة «عمر فتحى» (باشا) قائد الحرس الملكى، وخدمة «عثمان المهدى» (باشا) رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى.

وهو يفكر في ذات الوقت أن يقترح اسم اللواء «فؤاد صادق» (باشا) (قائد قوات الجبهة) لكى يحل محل «حيدر» (باشا) قائدا عاما للجيش المصرى.

■ ثم اتجاه رئاسة الوزارة، وهو في ذلك الصدد يرى (مع ما في الرأى من مجازفة) - أن «على ماهر» (باشا) هو الرجل القادر على مواجهة صدمة ما بعد

كان «حسن يوسف» (باشا) القائم بأعمال رئيس الديوان على اعتقاد لم يتزحزح عنه (طبقا لشهادته المسجلة بصوته). مؤداه أنه «إذا فقد الملك «فاروق» تأييد الجيش فقد سقطت الملكية»

إقالة «النحاس»، والداعى أن «على ماهر» (باشا) في هذا الشأن «مجرب وله سوابق»!



وفى اليوم التالى كان السير «سيسيل كامبل» على موعد مع «أحمد عبد الغفار» (باشا) قطب الأحرار الدستوريين، وقد نقل عنه في تقرير كتبه وسلمه للسير «رالف ستيفنسون» الذى صنفه «سرى للغاية» (رقم ج ٥٢/٨/١٠١١) - وبعث به إلى وزارة الخارجية في لندن:

أبلغنى «أحمد عبد الغفار» (باشا) بما يلى:

- أن «حافظ عفيفى» (باشا) طلب منه أن يحصل على كل معلومات يستطيع الحصول عليها عن الأحوال في الجيش من ابن أخيه (القائمقام محب عبد الغفار)، وأن يجعله مصدرا ثابتا للمعلومات ويقنعه بأنها خدمة وطنية، ويضمن كتمانه بقسم على القرآن يلزمه بحفظ السر!

- علم «أحمد عبد الغفار» أن «حافظ عفيفى» (باشا) يتوجس شرا من البوليس، وكذلك رتب له موعدا مع «إبراهيم عبد الهادى» (باشا) زعيم السعديين الذى أكد له أن لديه صلات في البوليس يستطيع أن يعتمد عليها، وأنه إذا أخطره رئيس الديوان قبل أيام من التغيير الوزارى أن اللحظة حانت، فهو كفيل بضمان طاعة البوليس وولائه.

- أن «حافظ عفيفى» عندما قابل الملك، واقترح عليه الاستغناء عن خدمات «حيدر - وعثمان المهدى - وعمر فتحى» لأنهم يسيئون إليه - رد عليه الملك بحدة قائلا «هؤلاء أناس مخلصون لى» - وأجابه «حافظ عفيفى» «بأنه يظن أن جلالة الملك يحتاج الآن أكثر إلى رجال لديهم ثقة الجيش واحترامه، وأن رجلا مثل اللواء «فؤاد صادق» يستطيع خدمته أفضل منهم».

- أن «أحمد عبد الغفار» (باشا) ألح على «حافظ عفيفى» بأن لا يتردد في تولى رئاسة الوزارة إذا عُرضت عليه، لكن «عفيفى» بدا مترددا، و(يظهر أنه مازال قلقا من ولاء البوليس) - وذكر له صراحة «إن المشكلة الأكبر هى إقناع الملك «فاروق» بضبط تصرفاته، فهذه هى النقطة المحورية، ولهذا فهو يظن أن بقاءه في رئاسة الديوان الملكى أكثر فائدة في التأثير على تصرفات الملك، وأما رئاسة الوزارة وتَحَمُّل صدمة ما بعد إقالة وزارة الوفد فإن رجلا مثل «على ماهر» أكثر استعدادا لها وقدرة عليها.

ويكتب السير «سيسيل كامبل» ملحقا يضيفه إلى تقريره فيذكر «إن تقدير «حافظ عفيفى» أن الحكومة البريطانية تستطيع أن تساهم في حل الأزمة إذا هى طرحت مشروع حل للمسألة المصرية أكثر كرما، على أن يظل هذا الحل سريا وموجودا في خزينة السفارة ليقدم كجرعة تقوية لوزارة ما بعد الإقالة، حتى لا يضيع عليها وقت كبير في التردد والانتظار!».



على أن وثائق الخارجية البريطانية تظهر حتى ذلك الوقت أن حكومة الوفد واصلت حركتها وكأنها في وادٍ آخر:

- وينقل السفيرُ البريطانى السير «رالف ستيفنسون» عن «إلياس أندراوس» (باشا) أن «فؤاد سراج الدين» (باشا) يتصور أن فرصته لرئاسة الوزارة تتحسن لأنه «الوحيد الذى يقدر على ضمان ولاء البوليس!».

- وينقل عن رئيس الديوان أن الملك «فاروق» تصرف مع «النحاس» (باشا) بصلف شديد شجعه عليه أن رئيس الوفد لم يتصرف «بالحساسية الواجبة في مثل هذه الظروف»، فقد انتهز فرصة مناسبة رسمية واقترب من الملك «فاروق» يسأله إذا كان يسمح له أن يتقدم إلى جلالة الملك بقائمة إنعامات بألقاب على بعض وزرائه وأعوانه في المناسبة السعيدة لميلاد ولى للعهد. وفقد الملك أعصابه أمام الحاضرين ووجه حديثا غاضبا إلى رئيس وزرائه قائلا له: «هل هذا وقته يا باشا؟ - في هذه الظروف التى تعيش فيها البلد - تريد «رفعتك» بكوات وباشوات ونياشين توضع على صدور وزرائك وأنصارك - وكلهم لا يساوون».

وانعقد لسان «النحاس» (باشا).

- وفى هذا الصدد يضيف السير «رالف ستيفنسون» نقلا عن السير «سيسيل كامبل» أن «حافظ عفيفى» (باشا) رئيس الديوان قال له «إن الملك يعامل «النحاس» و«فؤاد سراج الدين» معاملة الكلاب As if they were very little dogs كما كتب بالنص! (البرقية رقم ج ٥٢/١١/١٠١١)».

- وضمن ما يكتبه السير «رالف ستيفنسون» بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٥٢:

أن «إلياس أندراوس» أبلغنى أن «كريم ثابت» أوقف علاقاته منذ عشرة أيام بفؤاد سراج الدين، وأن وراء ذلك الفتور سببين:

الأول - أن «فؤاد سراج الدين» لم يرفع مخصصات «كريم ثابت» من المصاريف السرية لوزارة الداخلية، رغم أنه اتفق معه على ذلك.

والثانى - أنه (كريم ثابت) «موعود» - ! - بأن يُعَيَّن وزيرا لشئون القصر في وزارة جديدة يمكن أن تحل محل وزارة الوفد عندما تقع إقالتها. ■

٤

القاهـــرة تحتـــرق والقصـــور تحـــلم!

■ ■ لم تكن الأحوال في منطقة قناة السويس هادئة طوال تلك الأسابيع، تنتظر اختبارات القوة في مناطق الظل، أو ألعاب السياسة في قصور الحكم - بل لعل بعض ما كان يجرى في القاهرة كان يحدث آثاره ويسحب ذيوله على المناخ المتوتر في منطقة قناة السويس.

والذى حدث طوال الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر يناير ١٩٥٢ - أن مبررات الاحتكاك بين قوات «بلوك النظام» (وأحيانا قوات البوليس النظامى) - وبين القوات البريطانية تحت قيادة الجنرال «جورج أرسكين» زادت معدلاتها لأسباب مختلفة، منها أنه عندما انسحبت عناصر المقاومة الوطنية مرتدة إلى العاصمة أو منسحبة إلى أطراف محافظة الشرقية على حواف منطقة القناة - أصبح الاتصال أو الاحتكاك بين قوات حفظ النظام المصرية وقوات الأمن البريطانية وجها لوجه ومباشرة، ومع إصرار الجيش البريطانى على إغلاق محافظات القناة إغلاقا محبوكا، ومع رغبة وزارة الداخلية في إبقاء خطوط مواصلات جنودها مع قواعدهم مفتوحة - فإن الاشتباكات تكررت، وفى معظم المرات بدون تخطيط، أى بحركة الفعل ورد الفعل.

وصباح يوم ٢٤ يناير ١٩٥٢ توجه ضابط يمثل القيادة العامة للقوات البريطانية في منطقة قناة السويس إلى محافظ الإسماعيلية يحمل إنذارا بضرورة سحب كافة قوات بلوك النظام الموجودة في المنطقة، لأن عدم انضباطها وقلة خبرتها يجعل أفرادها عُرضة للانفلات في أى لحظة، وجاء الرد من وزارة الداخلية في القاهرة بالرفض!

ومساء نفس اليوم حصل الجنرال «جورج أرسكين» على تفويض من لندن (الإشارة ٦١٠/٨٩ - والبرقية رقم ١٢٥٠ من ملفات وزارة الدفاع) - يخوله اتخاذ الإجراءات التى يراها ضرورية لتأمين قواته بما فيها نزع سلاح قوات بلوك النظام، ولم يرد في التفويض إشارة إلى «قوات البوليس» العادية.

وهنا وجه الجنرال «أرسكين» إلى محافظ الإسماعيلية إنذارا مدته ١٢ ساعة يخرج أثناءها جنود بلوك النظام من المنطقة بدون سلاحهم وإلا فإن قواته سوف تتولى إخراجهم بالقوة، وتنزع الأسلحة الموجودة في يد كل عناصر البوليس وتجردها، ثم تتحفظ على سلاح جنود بلوك النظام وتعيد سلاح جنود البوليس العاديين لكى يتمكنوا من أداء وظيفتهم في حفظ الأمن العام.

وأكثر من ذلك فقد وجد الجنرال «أرسكين» ملحقا بالتفويض يقول له «إنك مخول بوضع جنود بلوك النظام تحت الاعتقال عندك، لأن عودتهم إلى القاهرة بعد نزع سلاحهم يمكن أن يكون عامل تحريض لزملائهم في القاهرة.

وفى الساعة السادسة والربع من صباح يوم ٢٥ يناير بدأ الجنرال «أرسكين» عملية ضد محافظة الإسماعيلية (وبجوارها قسم مبنى البوليس وكذلك مبنى الحجر الصحى)، وقد استحكم في هذه المجموعة من المبانى ما بين ثمانمائة وتسعمائة من عناصر بلوك النظام وجنود وضباط البوليس العادى.

وكان الأمر لدى القوات - من مكتب وزير الداخلية - «بالمقاومة» إلى آخر رجل وإلى آخر طلقة. وفى الساعة العاشرة والنصف، وعندما بلغ عدد الضحايا من الجنود المصريين نحو عشرين شهيدا - اتصل محافظ الإسماعيلية بوزير الداخلية («فؤاد سراج الدين» (باشا)) يعرض عليه «أن المعركة ميئوس منها». وجاء رد الوزير «أن أوامره لم تتغير ومازالت هى المقاومة إلى آخر رجل وآخر طلقة». وفى الساعة الثانية عشرة والربع وكان عدد الضحايا قد وصل إلى ٥٤ شهيدا (مقابل ٣ قتلى من البريطانيين) - أخذ قائد القوة على عاتقه

مسئولية وقف القتال، وطلبت مكبرات الصوت الموجهة من قوة الحصار البريطانية في اتجاه مبنى المحافظة حيث تستحكم قوات بلوك النظام ـ ومعها قوات البوليس العادية المحاصرة ـ أن يخرج الضباط المُحاصَرون والجنود فُرادى.

وبالفعل خرج ٧٩٠ جنديا وضابطا، معظمهم من عناصر بلوك النظام وقُرابة المائة من جنود البوليس العادى.

ولم تكن تلك معركة متكافئة، وإنما كانت درجة من البطولة بلا أمل، وهى وقفة تستحق الاحترام وتستحق التكريم ـ لكن السؤال الذى لم يكن في مقدور أحد أن يطرحه وقتها «ما إذا كان الأمر بمواصلة المقاومة حتى آخر طلقة وآخر رجل قرارا سليما ـ أو أنه جاء ضمن سياق سياسى أفلتت من يده السيطرة على الحوادث ـ أم أن وزير الداخلية كانت لديه اعتبارات أخرى؟!



وراح الجنرال «أرسكين» يتابع معركة القوات البريطانية ضد قوة بوليس مصرى أقل عددا ـ وسلاحا ـ وعُدة ـ وتدريبا. وعند الساعة الثانية عشرة ظهرا وأثناء الاجتماع الدورى لهيئة قيادته، كان السؤال المطروح هو «ما إذا كان لازما الآن وضع خطة «القاعدة الثابتة» (أى إعلان الحكم العسكرى في منطقة قناة السويس) للتنفيذ ـ وقرر الجنرال أن الأمور حتى هذه اللحظة لا تقتضى هذا الإجراء، بل إن قرارات ذلك اليوم شملت إعادة خمسين من الجنود النظاميين الذين وقع احتجازهم مع سلاحهم إلى سلطة محافظ الإسماعيلية كى يقوموا بمهام الأمن الطبيعى، مع استمرار المراقبة والمتابعة، وإخطار القائد البريطاني العام دقيقة بدقيقة بما يستجد.

وكان هناك عنصر واحد استدعى يقظة الجنرال «أرسكين» وحذره، وذلك هو الموقف الذى يمكن أن تتخذه قيادة قوات المنطقة الشرقية للجيش المصرى. وكيف يكون تصرفها ـ ضباطها وجنودها ـ إزاء ما يجرى وسط مدينة الإسماعيلية ـ لضباط وجنود بلوك النظام؟!».

كان الجنرال «أرسكين» قد أُخطر بفحوى مقابلة أجراها البريجادير «توماس جولبرن» (المُلحق العسكرى البريطانى في القاهرة) يوم ٢٣ يناير ١٩٥٢ مع القائد العام للجيش المصرى الفريق «محمد حيدر» (باشا) ـ وكان أهم ما في المقابلة أن القائد العام المصرى لم يشر بكلمة واحدة إلى ما يجرى في منطقة قناة السويس، واعتبرت هذه علامة طيبة، وقد رأى الجنرال «أرسكين» من باب الاحتياط أن يطلب مجىء البريجادير «جولبرن» إلى الإسماعيلية بنفسه ليكون حلقة اتصال مع قيادة قوات المنطقة الشرقية، خصوصا وهو على معرفة وثيقة بقائدها اللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن» (الذى كان مديرا لإدارة الملحقين العسكريين الأجانب في القيادة العامة قبل أن يُعين قائدا لقوات المنطقة الشرقية).

وبالفعل فقد وصل البريجادير «جولبرن» إلى الإسماعيلية، وتوجه فور وصوله إلى قيادة المنطقة الشرقية لقوات الجيش المصرى، واجتمع باللواء «أحمد شوقى عبد الرحمن»، وكان واضحا له (كما كتب في تقريره) «أن هذه القيادة ليست لديها أوامر متعلقة بما يجرى في الإسماعيلية»، باعتبار أن مثل تلك المهام من شئون الأمن ووزارة الداخلية وليست من اختصاص القوات المسلحة أو قيادتها العامة.

على أن ما أمكن حصاره في الإسماعيلية ـ استحال حصره في القاهرة!

كان يوم ٢٦ يناير يوما غريبا في حياة القاهرة ـ على كثرة ما شهدته العاصمة المصرية طول تاريخها.

■ من ناحية كانت أحداث الإسماعيلية طول الأسبوعين الماضيين تستثير أصداء لها في القاهرة على شكل مظاهرات ومنشورات زادت وفاضت حين استدارت عناصر المقاومة الوطنية عائدة من منطقة قناة السويس إلى العاصمة، وظنها أن المشكلة «هناك وليست هنا»!

ومع أن بعض المظاهرات خرجت حاشدة وغاضبة (خصوصا مظاهرات يوم ١٤ يناير) ـ فإن السيطرة عليها ظلت ممكنة، كما أن تعليمات وزارة الداخلية في شأنها استمرت بضرورة الحرص على مسيراتها سليمة وعدم التدخل فيها إلا بقصد «التأمين» وليس «الاعتراض».

على أنه بعد وقوع «مأساة» الإسماعيلية يوم ٢٥ يناير، فقد كان منتظرا أن تكون المظاهرات أوسع نطاقا وأكثر عنفا، وتأكد ذلك فعلا منذ ساعات الفجر حين عُرف أن ثكنات «بلوك النظام» في طرة وفى العباسية لم تهدأ طول الليل، لأن ما جرى في الإسماعيلية من تركيز البريطانيين على أفرادها، أثار هياج الثكنات عندما عرفت تفاصيله وفيها أسماء الشهداء من أفراد جنود «بلوك النظام»!

وحين بدأ أول ضوء من صباح يوم ٢٦ يناير، كانت تجمعات من قوات «بلوك النظام» تتجه أفواجا مستنفرة ومستفزة إلى جامعة القاهرة في الجيزة، وكانت تلك حركة عفوية، باعتبار أن شباب الجامعة في تلك الظروف كانوا فى مقدمة الصفوف وبؤرة الحيوية الأكثر فورانا. يُضاف إلى ذلك أن الجامعة كانت الساحة التى تركز عليها جهد كل الأحزاب والجماعات وفصائل المقاومة والجهاد، كما اتجه إليها التحريض على الثورة وضد الفساد!

وهنا فقد كان منطقيا توقع أن يكون وصول عناصر بلوك النظام الهائجين إلى الجامعة الفوارة بالحيوية والحمية الوطنية ـ لحظة يتطاير فيها الشرر، وحتى إذا لم يكن هناك تحريض إضافى أو استثارة!

■ ومن ناحية ثانية فإن الملك «فاروق» كان قد حدد هذا اليوم بالذات (٢٦ يناير ١٩٥٢) وهو اليوم الذى يبلغ فيه ولى عهده يومه الأربعين ـ لكى يقيم احتفالا ضخما في قصر عابدين، يدعو إليه أكبر عدد ممكن من قيادات الجيش وضباطه، وهدفه المُعْلَن «إرادته الملكية بإهداء ولى عهده إلى القوات المسلحة»، تأكيدا للرابطة المقدسة بين «العرش» وبين «الجيش».

لكن الهدف المُعْلَن كان وراءه قصد إضافى، هو أن يكون احتشاد الجيش أمام شُرْفة قصر عابدين وخروج الملك يحمل ولى عهده (ليهديه للجيش) ـ بمثابة مظاهرة ترد على ما جرى في انتخابات مجلس إدارة نادى ضباط القوات المسلحة.

وكان الترتيب أن أكثر من ألفى ضابط من القوات المسلحة سوف يحيطون بالملك في سرادق هائل نُصب في الساحة الداخلية لقصر عابدين، وسوف يجلسون معه على الغداء، وأن بعضهم سوف يدعون تباعا إلى مائدته ويسمعون منه ويأكلون ويشربون صحبةً معه!



وحتى الساعة العاشرة والنصف كانت الأحوال في العاصمة مضطربة ـ لكنها مازالت في إطار المتوقع والمحتمل في مثل تلك الظروف، مع ظهور تصرفات غريبة في جو أزمة تطول كل أطراف السلطة وتضغط عليهم ـ وتولدت هواجس جاءت بها أسباب من سوء الفهم كان يمكن تداركها لو أن هذه الأطراف كان بينها اتصال ـ وانزلق البعض بسوء التقدير إلى أنواع من الغفلة لا يمكن أن يكون لها تفسير مقبول أو معقول!

■ وعلى سبيل المثال فإن وزارة الداخلية (طبقا لتحقيقات المباحث العامة) تلقت في الساعة التاسعة والنصف معلومات بأن هناك تجمعا حاشدا من الإخوان المسلمين توجه إلى قصر عابدين إظهارا للضيق من تصرفات «الوزارة»، «لأنها فضحت عجزها عن إدارة مصائر البلاد والعِباد». وفي الإشارة (طبقا للتحقيقات أيضاً) «أن مكتب الإرشاد يريد أن تتوافق مسيرة الإخوان إلى القصر مع دعوة الملك لضباط الجيش، وذلك بقصد إحداث أكبر قدر من التأثير».

وكان وزير الداخلية «فؤاد سراج الدين» شديد الارتياب من مظاهرة الإخوان واتجاهها نحو القصر الملكى وقت تجمع الجيش في ساحته (وشكه أن ذلك تدبير مرسوم)!

■ وفى مثال آخر (وطبقا لشهادة «حسن يوسف» باشا) فإن الملك أُبلغ في الساعة العاشرة والنصف، وبينما هو يستعد لاستقبال قادة القوات المسلحة (بما في ذلك أنه أطل عدة مرات من وراء إحدى النوافذ على حالة الاستقبال الكبرى على الميدان، يرقب وصول مواكب الضباط إلى ساحة القصر) ـ بأن هناك مظاهرات واسعة النطاق تجتاح شوارع القاهرة، وأن أكبر هذه المظاهرات توجهت إلى رئاسة مجلس الوزراء، وأطل عليها «عبد الفتاح حسن» (باشا) من إحدى الشرفات، وألقى خطابا حماسيا ألهب المشاعر، ثم تلقى الملك معلومات بأن هناك عددا من ضباط البوليس يشاركون في المظاهرات، ثم أكد له الدكتور «يوسف رشاد» بناء على رؤية شهود عيان «أن بعض المظاهرات كانت بالفعل تحت قيادة ضباط من البوليس بملابسهم الرسمية وسلاحهم».

(وكان ذلك صحيحا لكن الضباط والجنود المشاركين في المظاهرات كانوا من قوات بلوك النظام).

واستمع الملك «فاروق» مندهشا إلى ما نقله إليه الدكتور «يوسف رشاد»، وتوجه مندفعا إلى مكتب رئيس الديوان «حافظ عفيفى» (باشا) الذى كان يتحدث مع «حسن يوسف» (باشا) ـ وطلب من الدكتور «يوسف رشاد» أن يكرر أمام الرجلين ما سبق وأبلغه به. وكان الملك مازال واقفا والآخرون وقوفا مثله يسمعون، وكان هو أول من تدخل موجها السؤال لحافظ عفيفى (باشا):

«هُمه عاوزين إيه؟»، ثم استطرد: «سراج الدين» (يقصد فؤاد سراج الدين) عنده لعبة بيلعبها ـ وهى مكشوفة»!!

ولم يكن لدى أحد ـ ممن سمعوا ملاحظته الملكية ـ جواب!

■ وفى الساعة الحادية عشرة والربع اتصل مدير الأمن العام بوزير الداخلية الذى كان يتابع التطورات من مكتبه (وصل إليه في الساعة العاشرة إلا الربع) ليبلغه أن ميدان الأوبرا يشهد مظاهرة كبيرة تتدفق على الميدان قادمة من اتجاهين: شارع فؤاد (٢٦ يوليو الآن)، وشارع إبراهيم باشا (القادم من ميدان محطة السكة الحديد)، وفى بلاغ مدير الأمن العام لوزير الداخلية «أنه لوحظ ظهور بدايات عنف ضد كازينو بديعة (سينما الأوبرا الآن)».

وكانت تعليمات وزير الداخلية بعد أن استمع إلى التفاصيل من اللواء «محمود طلعت» (مسئول القلم السياسى) ـ واضحة:

ـ متابعة التجمهر وحصره دون اشتباك.

ـ عدم الاحتكاك على الإطلاق مع مواكب المظاهرات التى تتدفق في وسط البلد.

ـ منع مظاهرات ميدان الأوبرا من دخول شارع الكيخيا (طريق قصر عابدين) وذلك بإقامة ستار عازل ـ وليس بالقوة إلا إذا صدر الأمر منه مباشرة.

■ ثم ارتأى «فؤاد سراج الدين» (باشا) أن يخطر «مصطفى النحاس» (باشا) أن المظاهرات في القاهرة كبيرة، وأن هناك عناصر تحاول استغلالها ـ



تلقى الملك معلومات بأن هناك عددا من ضباط البوليس يشاركون في المظاهرات، ثم أكد له الدكتور «يوسف رشاد» بناء على رؤية شهود عيان «أن بعض المظاهرات كانت بالفعل تحت قيادة ضباط من البوليس بملابسهم الرسمية وسلاحهم»

لكن الموقف تحت السيطرة. ومن الغريب أن وزير الداخلية لم يستطع إبلاغ معلوماته بنفسه إلى رئيس الوزراء، لأن «رفعة الباشا» كان مع مدام «جورجينا» وهي سيدة أرمنية متخصصة في قص أظافر اليدين والقدمين (مانيكور وبديكور) - وكانت تقصد مرة كل عشرة أيام إلى بيت «النحاس» (باشا) تعتنى بأظافره، خصوصا أظافر قدميه، وكان أصبعه الأكبر معرضا دائما للغرز في الجلد مما يستوجب عناية خاصة يستحقها رجل في سنه وفي ظروفه الصحية، مبالغ في حرصه طول الوقت. وعلى أي حال فظواهر التصرفات تدل على أن «النحاس» (باشا) لم يشعر بالخطر مما بلغه عن الأحوال في القاهرة.



وفيما بين الساعة الثانية عشرة ظهرا والساعة الثانية بعد الظهر، كان الموقف في العاصمة يتردى بسرعة لا يبدو أن أحدا تنبه لها أو لاحقها بقرار صائب، حازم أو مسئول.

وفي الحادية عشرة والنصف (طبقا لكل التحقيقات والشهادات) بدأ هجوم عنيف بالحجارة على كازينو أوبرا - تلته بسرعة عملية اقتحام لشرفة المبنى ومدخله - ثم ظهرت من الداخل ألسنة لهب - وفي دقائق كانت عدوى العنف تنتشر حول ميدان الأوبرا ومداخله: شارع فؤاد - شارع عدلي - شارع ثروت - شارع قصر النيل، وبدا أن قلب العاصمة كله في خطر.

....

....

[وحدث أنني كنت في الساعة الحادية عشرة صباحا داخل مبنى أخبار اليوم - وتوجهت إلى اجتماع في مكتب الأستاذ «على أمين»، شارك فيه توأمه الأستاذ «مصطفى أمين»، وبينما نحن نناقش احتمالات ما يجرى وكيف تكون تغطيتنا له إخباريا (واليوم يوم سبت - وعدد آخر ساعة المقبل بعد أربعة أيام - وعدد أخبار اليوم بعد ستة أيام (ولم تكن جريدة الأخبار اليومية قد صدرت بعد، والحقيقة أن مشروع إصدارها وُلد ذلك اليوم) - دق جرس التليفون ورفع «على أمين» السماعة، ثم قال لي همسا: «هذا أحمد حسين (زعيم مصر الفتاة) يطلب أن يتحدث إليك»، وجاءني صوت الأستاذ «أحمد حسين» بنبرته العالية - والمجلجلة معظم الأحيان - يقول: «ماذا تفعل في مكتبك حتى الآن، انزل إلى الشارع لترى بقية المناقشة التي لم تقتنع في بلبيس (كان يقصد ما كتبته ناقدا عن كتائب التحرير التي لم أعثر لها على أثر أراه وأتحقق منه غير دائرة بالطباشير الأبيض في وسطها عبارة كتائب التحرير مرت من هنا)».

ولم يترك لي الأستاذ «أحمد حسين» فرصة رد، وإنما استطرد يقول «قرأنا لك تغطى عواصم الدنيا شرقا وغربا - فانزل الآن إلى عاصمة مصر و«شوف» بنفسك!

وأعدت سماعة التليفون إلى مكانها ورُحت أروى للآخرين ما سمعته من الأستاذ «أحمد حسين» - لكن جرس التليفون دق مرة ثانية - ومرة ثانية رد الأستاذ «على أمين»، ومد سماعة التليفون في اتجاهي يقول لي «هذا إدجار جلاد (باشا) يطلبك».

(كان «إدجار جلاد» (باشا) صاحب جريدة الجورنال ديجبت من أبرز رجال القصر الملكي في تلك الأيام، وكانت معرفتي به أنه كان منظم جائزة «فاروق» الأول للصحفيين الشبان (تحت سن الثلاثين سنة)، وكنت قد حصلت على هذه الجائزة ثلاث مرات متوالية (مرة عن تحقيقات وباء الكوليرا في مصر - ومرة عن تغطية الحرب الأهلية في البلقان - ومرة ثالثة عن تغطية أحداث الشرق الأوسط وفيها حرب فلسطين، والانقلابات التي شهدتها سوريا ما بين ١٩٤٩ إلى سنة ١٩٥١) - وكان «جلاد» (باشا) في الأيام الأخيرة قد اتصل بي يطلب مني بلطف أن لا أتقدم للجائزة مرة رابعة لتحقيقات قمت بها في إيران وظهرت سنة ١٩٥١ في كتاب بعنوان «إيران فوق بركان»، وكان رأيه أن أترك الفرصة لغيري (وكان ذلك رأيي أيضا).

وهكذا فإن اتصال «جلاد» (باشا) لم يكن بلا مقدمات، لكن ذلك الصحفي الكبير وثيق الصلة بالقصر كان لديه الآن ما يريد أن يسألني فيه، وقد بادرني مستفسرا: «هل لديك علم بما يجرى في شوارع البلد؟»، وقلت له: «إننا الآن نتابع ويظهر أن هناك بدايات عنف»، وكان تعليقه: «يظهر أن المسألة خطيرة.. خطيرة جدا».

ولم أكن في حاجة إلى تنبيه جديد، وكذلك نزلت ماشيا على قدمي من مبنى أخبار اليوم إلى شارع «فؤاد» ومعي الزميل الصديق الأستاذ «محمد يوسف» المصور الأشهر في ذلك الوقت.

وكانت المشاهد التي تنتظرنا مما لا يخطر على بال أو على خيال.

كان حريق القاهرة في أوله - لكنه راح يندفع مجنونا نحو ذروته!].

وفيما بين الساعة الواحدة والساعة الثانية بعد ظهر يوم ٢٦ يناير - كان القرار الأمني في مصر معطلا، لأن «فؤاد سراج الدين» (باشا) وزير الداخلية انشغل بمسالة خاصة لم يرض بتأجيلها لأسباب رآها - وأمر بإشعال النور الأحمر على باب مكتبه من ناحية السكرتارية تحذيرا، وكذلك توقف تحويل أية اتصالات تليفونية تطلبه، واختلى الوزير (طبقا لوثيقة مسجلة في الشهر العقاري برقم ٢٣٤٥) بخمسة رجال تجمعوا في مكتبه تلك اللحظات العصيبة وهم طبقا للوثيقة:

- الأستاذ «أحمد يوسف شلبي» (مأمور توثيق الشهر العقاري بالقاهرة).

- الأستاذ «تيودور حداد» (ابن المرحوم نقولا حداد) - محام ومقيم في رقم ٣ ميدان توفيق.

- الأستاذ «محمد عبد الرحيم سماحة» (بك) (ابن المرحوم عبد الرحيم سماحة) - محام مقيم في فارسكور.

- الخواجة «جورج عريضة» مالك العقار رقم ٢٣ شارع عبد الخالق ثروت.

- والخامس هو نفسه صاحب المكتب والذي أشير إليه في وثيقة الشهر العقاري بوصف «حضرة صاحب المعالي محمد فؤاد سراج الدين (باشا) وزير الداخلية».

كانت وثيقة الشهر العقاري مكونة من أربع صفحات مكتوبة بالآلة الكاتبة هي عقد بيع العمارة رقم ٢٣ شارع عبد الخالق ثروت والتي يملكها «جورج عريضة» إلى «فؤاد سراج الدين» (باشا) بمبلغ إجمالي قدره ثمانون ألف جنيه مصري.

وكان الأستاذ «تيودور حداد» هو محامي الخواجة «جورج عريضة» بائع العمارة، وشاهد العقد من جانبه - وكان الأستاذ «محمد (بك) عبد الرحيم سماحة» هو الوكيل عن «فؤاد سراج الدين» (باشا) مشترى العمارة الجديدة وشاهد العقد من جانبه.

والمدهش أن بداية العقد كانت على النحو التالي:

إنه في يوم السبت الموافق ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ - ألف وتسعمائة واثنين وخمسين - الساعة ١:٣٠ مساء.

بمكتب التوثيق بالقاهرة وقد انتقلنا إلى وزارة الداخلية.

فإننا نحن «يوسف أحمد شلبي» موثق العقود لدى المكتب المذكور

وفي حضور كل من:

(قائمة الأسماء)

وتمضي الوثيقة إلى تلخيص اتفاق بيع «العقار المذكور» بعد الإقرار بالمعاينة وقبول المشتري للعقار بملحقاته ومشتملاته «بحالته الراهنة» - إلى بيان حدوده وجيرته من النواحي الأربعة - تتوالى بنود العقد ستا، حتى تجيء نهاية العقد لتقول:

تحرر هذا العقد في اليوم والشهر والسنة المبينة أعلاه بعد تلاوتنا له بمعرفتنا بصوت عال مفهوم، وقد صادق ووقع عليه الحاضران والشاهدان، ونحن موثق العقود بهذا المكتب، وقد صرح معالي المشتري لحضرة «محمد بك عبد الرحيم سماحة» في استلام الصورة التنفيذية.

إمضاء: فؤاد سراج الدين - إمضاء: جورج عريضة.

إمضاء: تيودور حداد - إمضاء: محمد عبد الرحيم سماحة.

يحتوي هذا العقد على سبع ملحقات.

الموثق

إمضاء

يوسف أحمد شلبي

....

....

[ولم تكن صفقة شراء عمارة الخواجة عريضة هي الصفقة الوحيدة التي أتيحت فرصتها «لُقْطَة» في تلك الظروف، وإنما الحقيقة أنه طول الفترة التي دوى فيها رصاص الاغتيالات في مصر ابتداءً من سنة ١٩٤٤، وبدأت وتوقفت معارك حرب فلسطين، واندلعت الاضطرابات ضد قوات الاحتلال في منطقة قناة السويس - كان أغنياء الأجانب في مصر قافلة هاربة تريد التخلص بأسرع ما يمكن من أملاكها الثابتة، وبالذات عقارات قلب القاهرة والإسكندرية، وكان البيع أفضل ما يكون لأصحاب النفوذ القادرين على تأمين طرق الهرب ومسالكه!.]

....

....

والآن وعندما انطفأت اللمبة الحمراء على باب مكتب وزير الداخلية في الساعة الثانية وأربع دقائق - كان الوقت قد تأخر كثيرا، كما أن فرصة غالية ضاعت بلا ثمن وبلا تعويض!



وفي الساعة الثانية والنصف كان وزير الداخلية قد تبين حجم الكارثة التي حلت بعاصمة البلاد حريقا ودمارا - ودمًا (أكثر من أربعين قتيلا بينهم ثمانية من البريطانيين في نادي «الترف» Turf Club وحده) - ومالاً (قدر يومها بمائة مليون جنيه (بقيمة النقود وقتها) وقد زاد هذا التقدير كثيرا عندما بدأ رفع الأنقاض وجرد المحتويات التي أفلتت من اللهب).

ولحظتها اتصل «فؤاد سراج الدين» (باشا) برئيس الوزراء «مصطفى النحاس» (باشا) يبلغه بنفسه خطورة ما آلت إليه الأحوال، ويعرض عليه «أنه لسوء الحظ يجد البوليس

ما بين رغبته في استشارة دولية وعدم استعداده لإجرائها مع السفير البريطاني، فإن الملك «فاروق» طلب استدعاء السفير الأمريكي «جيفرسون كافري» إلى القصر الملكي، وحاول «عبد الفتاح عمرو» (باشا) أن يرجو الملك في مقابلة السفير البريطاني أيضا، لكن الملك «فاروق» رفض وأصر على الرفض

غير قادر على ضبط الأمن واستعادة السيطرة، ولذلك فإنه اتصل بوزير الحربية طالبا تدخل الجيش، وأبلغ وكان يعرف ذلك مسبقا ـ أن تدخل الجيش لا يمكن أن يتم إلا بواسطة القائد العام للجيش الذى يلزمه أمر من الملك بوصفه القائد الأعلى للجيش».

وبعد حديثه مع «النحاس» (باشا) ظل «فؤاد سراج الدين» (باشا) يحاول الاتصال بقصر عابدين طالبا «حافظ عفيفى» رئيس الديوان مرة، و«حسن يوسف» وكيل الديوان مرة، والفريق «محمد حيدر» مرة ثالثة ـ لكنه لا ينجح في الوصول إلى أحد منهم. والرد الذى يتلقاه أنهم جميعا «في حضرة صاحب الجلالة الملك يشاركون لقاءاته مع ضباط الجيش» ـ ولم يجد «فؤاد سراج الدين» مفرا من أن يترك مكتبه ويتوجه بنفسه إلى قصر عابدين، وتمكن أخيرا (حوالى الثالثة والربع) من الوصول إلى مكتب التشريفات، طالبا تدخل الجيش ـ ملحا ـ راجيا ـ وفى إحدى اللحظات متوسلا.

ولم يكن هناك تفسير للتأخير في الرد عليه ـ وفى الاستجابة إلى طلبه غير شكوك وهواجس ساورت الملك وعددا من رجاله والدواعى ملتبسة بالشك وسوء الظن:

■ وربما أنه لم تكن لديهم صورة كاملة للموقف في العاصمة.

■ وربما أن الملك كان مازال يظن أن وزير الداخلية «عنده لعبة يلعبها».

■ وربما أنه (فاروق) كان راغبا في إحراج وزير الداخلية والوزارة إلى أقصى مدى، وبما يسمح له بحرية التصرف.

■ وربما ـ وهو احتمال وارد ـ أنه لم تكن تحت تصرف قيادة المنطقة المركزية للجيش قوات كافية ـ جاهزة.

■ وربما ـ وهو افتراض لا يمكن استبعاده بالكامل ـ أن القيادة العسكرية لم تكن واثقة من رد فعل الجيش إذا نزل إلى شوارع العاصمة وفيها بقايا المظاهرات وشراذم السلب والنهب ـ وقد لاح الغروب ولعلعت ألسنة النار وظهر وهجها مع نزول الظلام!

وفى الساعة التاسعة مساءً صدر مرسوم ملكى بإعلان حالة الطوارئ ـ وكانت طلائع وحدات الجيش (سرايا من الكتيبة السادسة المشاة) قد وصلت فعلا إلى حديقة الأزبكية ـ ثم أذاع رئيس الوزراء «مصطفى النحاس» (باشا) بيانا بصوته أعلن فيه «أن القاهرة تعرضت لجريمة نكراء».

على أن «النحاس» (باشا) كان قبل إلقاء بيانه ـ وبعد البيان شبه واثق أن خطاب إقالته بدأت كتابته، والأسباب واضحة. والمسئولية ـ مهما قيل وقال ـ لا يمكن التهرب منها، والثمن فادح وسوف يدفعه الجميع. وهو نفسه أولهم!

(وكان شعور «النحاس» (باشا) تلك اللحظة بالخلاف مع آخرين من زعماء الوفد. قدروا أن الملك لا يستطيع أن يستغنى عن الوزارة الآن ـ على الأقل لتتحمل تبعات ما جرى ـ وكانوا مخطئين وكان زعيم الوفد العجوز يعرف أكثر). ■

«٥»

واشـــنطن تقتـــرب
ولنـــدن تبتعـــد!

■■ مساء ذلك اليوم الذى احترقت فيه القاهرة وقع تطور سياسى بالغ الأهمية لم يخطط له أحد، ولم يرتب له طرف ـ لكن حقائق الأشياء فرضته على سياق الحوادث ودخلت به إلى المجرى الرئيسى للتطورات، ففى مساء ذلك اليوم قرر الملك «فاروق» ـ وبمشورة من «حافظ عفيفى» (باشا) رئيس الديوان، و«حسن يوسف» (باشا) وكيل الديوان، و«عبد الفتاح عمرو» (باشا) (وهو لحظتها مستشار الملك المكلف بالسياسة الدولية) ـ أن واقع الحال يُحَتِّم عليه إقالة حكومة الوفد، وحتى إذا لم تكن هذه الإقالة رغبة ملكية تلح عليه منذ شهور، فإنها الآن ضرورة سياسية وعقاب عادل.

وكان الملك في أعماقه يحس أنه لا يستطيع التصرف حتى في الشأن الداخلى ـ على الأقل منذ ٤ فبراير سنة ١٩٤٤ وحتى الآن ٢٦ يناير ١٩٥٢ ـ إلا بموافقة الحكومة البريطانية أو الاستئناس برأيها أو استمزاج رغباتها. وهو هذه اللحظة الحرجة يريد إقالة الوزارة ـ لكنه فى الوقت نفسه لا يريد أن يقابل السفير البريطانى السير «رالف ستيفنسون». وما بين رغبته في استشارة دولية وعدم استعداده لإجرائها مع السفير البريطانى، فإن الملك «فاروق» طلب استدعاء السفير الأمريكى «جيفرسون كافرى» إلى القصر الملكى، وحاول «عبد الفتاح عمرو» (باشا) أن يرجو الملك في مقابلة السفير البريطانى أيضا، لكن الملك «فاروق» رفض وأصر على الرفض، لأنه «قرفان من الإنجليز»، فهم «مسئولون عن جزء من المصيبة التى وقعت، لأنهم الذين أصروا دائما على ضرورة وجود «النحاس» في الحكم. وهم الذين تعنتوا في المفاوضات مع «النقراشى» و«صدقى» ـ وحين جاء لهم بحبيبهم «النحاس» ـ لم يعطوه هو الآخر شيئا».

وتدخل «حافظ عفيفى» (باشا) ـ طبقا لرواية «حسن يوسف» (باشا) و«عبد الفتاح عمرو» (باشا) ـ يعرض أنه لا بأس من أن «يرى» جلالة الملك مقابلة السفير الأمريكى أولا ـ لكن ذلك لا يمنعه أن يقابل السفير البريطاني ثانيا ـ ومع أنه (عن نفسه) يتفهم مشاعر «جلالته»، فإن هناك حقائق سياسية يصعب لسوء الحظ تجاهلها، وفيها أن هناك اتفاقا على تقسيم الاختصاصات والنفوذ بين الأمريكان والإنجليز. وفى هذا الصدد فإن الأمريكان أول من يسلم بأن البلدان العربية عموما ـ خصوصا «مصر» و«العراق» ـ في اختصاص ومنطقة نفوذ الشريك البريطاني.

وصمم الملك على رأيه، وبالفعل فإنه استقبل «جيفرسون كافرى» في قصر عابدين في الساعة العاشرة والنصف مساء يوم ٢٦ يناير وأبلغه:

ـ أنه قرر إقالة وزارة «النحاس» (باشا) (وأن ذلك سوف يحدث غدا «٢٧ يناير»).

ـ أنه اختار «على ماهر» (باشا) لرئاسة الوزارة الجديدة لأنه المرشح الوحيد الجاهز والقادر والمستعد لمواجهة ما بعد إقالة «النحاس» (باشا).

ـ وهو يعرف أن «أصدقاءكم» الإنجليز لهم رأى في «على ماهر»، لكن ذلك لا «يؤرقه» الآن بسبب خطورة الظروف. وهو على أي حال يعرف أن اختيار «على ماهر» لن يكون مفاجئا للإنجليز (لأن هناك اتصالات بينه وبينهم)، لكنه يتوقع من الحكومة الأمريكية أن تساعد الآن على «إفهامهم في لندن» أن الظروف لا تسمح لأحد أن ينتقى الآن على مزاجه، وأنه هو شخصيا في ظروف مختلفة لم يكن ليختار «على ماهر»، لكنه حتى مرشحيه المفضلين لرئاسة الوزارة (حافظ عفيفى ـ ونجيب الهلالى) ـ متحمسون الآن لعلى ماهر رئيسا لوزارة «طوارئ».

ـ أنه يطلب بصفة عاجلة تدخل الحكومة الأمريكية مع لندن «لإقناعهم بعدم اتخاذ أية إجراءات مستفزة» في منطقة القناة، فقد أُخطر من «الإسماعيلية» بأن الجنرال «أرسكين» أعطى إنذارا مدته ٤٨ ساعة لتنفيذ خطة بريطانية يقوم الجيش البريطاني بمقتضاها باحتلال الدلتا والقاهرة (يقصد الخطة روديو).

ـ أنه (الملك «فاروق») راض بالكامل عن أداء قوات الجيش التى نزلت إلى القاهرة، فهذه القوات تمكنت في ظرف ثلاث ساعات من السيطرة على قلب العاصمة، وقد قابل الناس نزولها بالتهليل والهتاف «بحياة الملك»!

ـ وذلك النجاح الذى تحقق ـ هو بين دواعى الملك إلى طلبه من «الأصدقاء الأمريكان» أن يضعوا الفرامل Put the Breaks على أى حماقة بريطانية تغريهم بتدخل عسكرى في الدلتا والقاهرة. فذلك لو حدث سوف يحول الجيش إلى عدو دون لزوم ـ على أن الملك يَعِدُ إذا أحس في أى لحظة بحاجته إلى سند عسكرى فهو «يُقسم بشرفه أنه سوف يطلبه بنفسه دون تردد أو حساسية».

أضاف الملك في النهاية أنه الليلة ـ قبل الحريق وبعده ـ قابل في القصر قُرابة ألف ضابط، وتحدث شخصيا إلى عدد كبير منهم، وهو واثق من ولاء الجيش له، وواثق من قدرة الجيش على حماية الأمن، وبالذات أمن الرعايا الأجانب وهم الحجة التى تتذرع بها الحكومة البريطانية كلما احتاجت إلى تدخل سافر في مصر».



وخرج «جيفرسون كافرى» من قصر عابدين إلى سفارته يكتب تقريره إلى واشنطن، ثم يتصل بالسفير البريطاني يطلب منه أن يمر عليه (الساعة الواحدة صباحا) ـ وحين وصل السير «رالف ستيفنسون» عبر الشارع إلى السفارة الأمريكية (وكانت في ذلك الوقت مكتبا للسفير فقط وليست مسكنا أيضا كما هو الحال الآن) ـ كان «جيفرسون كافرى» مازال جالسا مع وزيره المفوض «ماكلينتوك» يسترجع بعض النقاط التى يريد لفت النظر إليها في مقابلته مع ملك مصر.

وطبقا لخطاب كتبه «جيفرسون كافرى» إلى مساعد

وكيل الخارجية الأمريكية (ماكجى)، فقد لاحظ «أن تلك كانت أول مرة يتلقى فيها الإنجليز معلوماتهم عما يجرى في مصر عن طريقنا أى مادة مستعملة Second Hand بنص تعبيره.

وكانت هذه نقطة تحول بارزة زاد عليها أن «جيفرسون كافرى» اتصل بحافظ عفيفى (باشا) - يرجوه إقناع «صاحب الجلالة» بمقابلة السفير البريطاني، لأن ذلك يسهل الكثير من الأمور فيما طلبه منه «جلالة الملك» - وأن تلك أيضا رغبة واشنطن، ثم إن الحكومة البريطانية في الظرف الراهن سوف تعاند إذا أحست أن تجاهلها مقصود، بينما هى بحقائق الأمور الآن على استعداد لأن تقبل دور Second Fiddle) أى الوتر الثانى في آلة الكمان، بدلا من الوتر الرئيسى)!

ومعنى ذلك أن الطرف المصرى (الملك فاروق في هذه الحالة) - تصرف تلقائيا ودعا الولايات المتحدة إلى الدور الرئيسى في أزمة شرق أوسطية، وأن واشنطن على مستوى وزارة الخارجية استجابت طبيعيا، وأن الحكومة البريطانية - مهما كان ضيقها - نزلت على حكم الضرورات.

وبصرف النظر عن كل الاعتبارات فإن تغييرا شديد الأهمية طرأ تلك الليلة (٢٦ يناير ١٩٥٢) - على موازين القوى في الشرق الأوسط كلها.



والحاصل أن السير «رالف ستيفنسون» لم يكن في وضع يسمح له باعتراض الدخول الأمريكى (العلنى والرسمى) في الشأن المصرى، كما أنه في المقابل لم يكن راضيا عن ترك المجال لهذا الدخول الأمريكى يوسع وجوده وحدوده، وكان يأمل وقد لفت نظر لندن إلى ذلك (ببرقية عالية السرية رقم ١٧٩) - إلى أهمية أن يكون الدور الأمريكى مجرد جسر أو سد فجوة عارضة لا ينبغى للحكومة البريطانية أن تتركها تتسع. وفى تلك البرقية قال السير «رالف ستيفنسون»: «أن عبد الفتاح عمرو (باشا) نفسه يبدى القلق من أن بعض الزعماء المصريين يدور في خلدهم «أن الولايات المتحدة لا تؤيد سياساتنا بالكامل وأنها قادرة على ممارسة نفوذ يؤثر على قراراتنا»، وهم يظلنون أنهم رأوا في إيران مثالا يمكن الاستفادة منه. وقد أكدت على «عمرو» (باشا) ضرورة أن أقابل الملك «فاروق» بسرعة حتى نستطيع استعادة الزمام بسرعة، وتبديد أية أوهام بشأن إمكانية الالتفاف حولنا باستعمال نفوذ حلفائنا».

وعلى أساس إلحاح تعددت مصادره في الديوان الملكى (حافظ عفيفى - وحسن يوسف - وعبد الفتاح عمرو) - بل ومن السفارة الأمريكية نفسها، تم تحديد لقاء للسير «رالف ستيفنسون» مع الملك «فاروق» في الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ٣٠ يناير ١٩٥٢ (متأخرا ثلاثة أيام عن السفير الأمريكى).

وكتب السفير البريطاني إلى وزارة الخارجية في لندن (٢٠٣ سرى للغاية) يقول:

«استقبلنى الملك «فاروق» بعد ظهر اليوم، وقد بدا لى أن أحواله تحسنت وأعصابه هدأت عما كانت عليه وِفق الصورة التى نقلها إلى زميلى الأمريكى الذى قابله يوم ٢٦ يناير. قال لى الملك أنه ومصر كلها كانوا في حالة رعب وأسى نتيجة لما جرى في القاهرة ٢٦ يناير. وهو يعتبر تلك ضربة موجعة أصابت بلاده. وأكد الملك أن الشيوعيين كانوا القوة الموجهة لما حدث، وأن الحزب الاشتراكى «أحمد حسين» كانوا مجرد أداة تنفيذية لهم في الشوارع، وأن ما دعا الشيوعيين إلى الاقتصار على التوجيه، أنهم لم يكونوا حاضرين في الشوارع عدديا.

وأبدى الملك سعادته لأن الجيش تصرف بكفاءة وبولاء.

انتقل الملك ليقول لى: «أنه عرف باننا كنا نرتب لدخول قوات الجيش البريطاني إلى القاهرة». وقلت له: «إننى شديد العرفان لأن سيطرة الجيش المصرى على الموقف بسرعة تكفلت بإعفائنا من التقدم إليه (إلى الملك) نطلب إذنا - ثقيلا علينا كما هو ثقيل عليه - لكى يسمح بزحف قواتنا إلى القاهرة». ورد الملك «بأن أداء الجيش المصرى لم يستدع حاجة عنده إلى طلب النجدة منا»، وأضاف: «إننى أتعهد لكم بكل جدية أننى سوف أخطركم إذا أحسست بعدم قدرتى على السيطرة على الموقف - وفي هذه الحالة فإننى سوف أقوم بإخطاركم بنفسى». أضاف الملك: «لعلمك فإنه إذا جاء مثل هذا الظرف فلن أطلب منكم عملا محددا، وإنما سوف أخطركم بأن الموقف خرج من يدى، تاركا لكم أن تتصرفوا على النحو الذى ترونه» - زاد الملك فقال: «لو أن الاضطرابات التى وقعت يوم ٢٦ تكررت مرة ثانية يوم ٢٧ يناير، فقد كنت واثقا أنه لم يتبق أمامى غير إبلاغكم أن الأمور خرجت من يدى».

كان السير «رالف ستيفنسون» (السفير البريطاني في مصر) مقتنعا أن وزارة «على ماهر» «وزارة استيعاب صدمة» - ! - وليس أكثر، وأن المسئولية الآن مركزة في القصر ومرهونة بقراره، وهكذا حرص على مد قنوات اتصاله مع القصر، وبعد عشرة أيام من لقائه مع الملك «فاروق» عاد يُلح في طلب لقاء آخر.

وصباح يوم ١٣ فبراير ١٩٥٢ - كان السفير البريطاني على موعد آخر مع ملك مصر. وكتب «ستيفنسون» تقريرا عن المقابلة - رفع درجة سريته بنص في رأس التقرير يقول: «هذه البرقية لها سرية مخصوصة، ولا ينبغى لأحد الاطلاع عليها إلا لمن يصرح له وزير الخارجية، ولا تُنقل البرقية خارج ذلك النطاق»، وأمر مكتبه أن يكون إرسالها بالشفرة الخاصة المستعملة في إرسال البرقيات الموجهة إلى مكتب الوزير مباشرة أو رئاسة مجلس الوزراء. (ومن الملاحظ أنه أشار إلى أهمية إرسال نسخة منها إلى «واشنطن» وإلى القائد العام للقوات البريطانية في البحر الأبيض).

«استقبلنى الملك «فاروق» بعد ظهر اليوم بناء على طلبى وعلى التوجيهات التى وردت منكم تطلب منى:

١ - أن أسأله صراحة إذا كان مازال متأكدا من سيطرته الكاملة على الموقف.

٢ - أن أقنعه بإنشاء مكتب اتصال عسكرى (في البر والجو) للتنسيق بين الجيش البريطاني (في قاعدة قناة السويس) وقيادة الجيش المصرى (وزارة الحربية في القاهرة).

وقد بدأت فأبلغت الملك أن تأكيداته لنا مباشرة وعن طريق السفير الأمريكى بأنه قادر على مواجهة الموقف (حريق القاهرة وتداعياته) - هى وحدها التى أقنعتنا بتأخير تقدم قواتنا إلى الدلتا والقاهرة، على أن هناك ضرورة للاحتياط من الآن لاحتمال أن تتعطل الاتصالات في أى وقت، ثم يَجِدَّ طارئ ويتصرف كل طرف في أوضاع خطيرة بدون تشاور مُسبق. أضفت أن هناك ظروفا قد تستدعى تدخلنا عسكريا بالتنسيق معه، وذلك يحتاج إلى الاتفاق على ترتيبات معينة، منها أن تكون الطرق مؤمنة، وأن يتم تشوين بعض المعدات الضرورية على مواقع محددة، وذلك

وكان الملك وكل رجال قصره.
مدنيين وعسكريين. على اعتقاد بأن أداة
السيطرة الوحيدة الباقية لهم هى الجيش.
وكذلك فإن الجيش المصرى كان فى تلك اللحظة الحرجة من حياة مصر.
بقوة الأشياء والأحكام. وبضغط الحوادث
والتداعيات. وبكافة احتمالات
المستقبل وضروراته:
ميزان الموقف ومكياله!



حتى نضمن سرعة تقدم قواتنا وسرعة وصولها إلى أهدافها وقت الحاجة إليها. والنقطة المهمة أن مثل هذه الإجراءات ينبغى أن لا تثير شكوك القوات المصرية، وهذه أهمية إنشاء مكتب اتصال بين الجيشين. أضفت أن الشكوك تؤدى أحيانا إلى تعقيدات يمكن تجنبها، ومن ذلك أن القوات المصرية في العريش أطلقت النار في اتجاه طائرة استكشاف بريطانية كان هدفها في الواقع أن تتأكد من أن الإسرائيليين لن يستغلوا الظروف الطارئة، لكن القوات المصرية ـ بسبب تعطل الاتصالات ـ شكت في الأمر.

ـ قال لى الملك «فاروق» أنه يتفهم بالكامل موقفنا ويرغب مثلنا في إقامة نظام للاتصال والتنسيق، واقترح على اجتماعا بين الملحق العسكرى في سفارتى وبين رئيس أركان حرب الجيش المصرى، وقال لى أنه سوف يصدر التعليمات اللازمة، على أنه تَحَفَّظَ مستدركا «أنه فيما يتعلق بالتنسيق بين القوات الجوية فقد يكون الأمر صعبا». ولم يشرح لى الملك سبب الصعوبة، ولاحظ أننى لم ألح عليه، وعقب قائلا: «إن ذلك يمكن ترتيبه فيما بعد»!

ـ عاد الملك إلى أحداث يوم ٢٦ و٢٧ يناير الأخيرة، وقال لى أنه في ذلك اليوم أرسل أحد ضباطه الموثوق بهم إلى مواقع الجيش المصرى على طريق السويس، وكانت مهمته أن يراقب تنفيذ تعليماته (الملك) بأمانة، وكانت تعليماته إلى القوات:

١ ـ أن تقاوم تدخل قواتنا إذا وقع ذلك دون إذن منه، وهو يعرف أن أى مقاومة تقوم بها قواته يائسة، لكن اعتبارات الكرامة لها أهميتها في هذه الظروف.

٢ ـ أن تسهل عملية تدخلنا إذا وصلها عن طريق رسوله أننا حصلنا على إذن منه، لأن الموقف في القاهرة أفلت من سيطرته.

قال لى الملك أنه فكر ذلك اليوم في استدعاء بعض قوات الجيش المصرى المُرابِطة على حدود فلسطين، لكنه غير رأيه حين وجد أن القوات المتاحة له في القاهرة قادرة على السيطرة، وهو مرتاح لأن الظروف لم تُلجئه إلى هذا الخيار.

قلت للملك «فاروق» «إننى سبق أن أرسلت الملحق العسكرى في سفارتى للقاء القائد العام للجيش المصرى لإخطاره أنكم إذا أردتم استدعاء أى وحدات من القوات المصرية في فلسطين إلى القاهرة، فإننا سوف نساعد على ذلك ونسهل عودة القوات إلى مصر لأداء واجبها، كما نسهل رجوعها مرة أخرى إلى غزة لإعادة احتلال مواقعها!

وهذا الاستعداد من جانبنا لايزال قائما، وقد شكرنى الملك «فاروق» وعاد فأكد أن هذه المسائل بالضبط هى ما تستوجب إنشاء مكتب اتصال عسكرى بين الجيشين».

ركز الملك كثيرا على ولاء الجيش له، وقال إنه يشعر بالرضى لأن الوفديين رغم كل محاولاتهم لم ينجحوا في إفساد علاقته بضباط الجيش أو بجنوده. ولم ينجح الوفديون إلا في استمالة أحد عشر ضابطا وسوف يصدر أمرا ملكيا بتسريحهم غدا أو بعد غد، وقد عرف أن أحدهم قام بدور فاعل في المظاهرات التى أشعلت الحريق فى القاهرة، وأنه تأكد له أن عناصر من البوليس شاركت في تدبيرها»!

كان الملحق العسكرى البريطاني البريجادير «توماس جولبرن» على اتصال مستمر مع الدكتور «يوسف رشاد» الذى بدا في تلك الأوقات وكأنه ممثل الملك الحقيقى في اتصاله «بالعمق» داخل الجيش المصرى، وكان «يوسف رشاد» هو الذى نقل تعليمات الملك إلى رئيس أركان الحرب بشأن التنسيق الضرورى بين الجيش المصرى والجيش البريطاني طبقا لما وافق عليه الملك أثناء لقائه مع السفير البريطاني ووعد بتحقيقه. ومن الواضح ـ طبقا للوثائق ـ أن العلاقات بين مكتب الملحق العسكرى البريطاني وبين الدكتور «يوسف رشاد» كانت متصلة، ويلفت النظر تلك الأيام تقرير من مكتب البريجادير «جولبرن» مرسل إلى لندن عن طريق الحقيبة الدبلوماسية للسفارة (برقم ٩٦٨٧٣/ ٣٧١) وفى التقرير ما نصه:

طلب الدكتور «يوسف رشاد» مقابلتى، وتوجهت للقائه في قصر عابدين، ثم اجتمعنا في مكتب الياور الخاص للملك، وأخطرنى «يوسف رشاد» بالمعلومات التالية:

١ ـ هناك أدلة متزايدة على تورط عدد من ضباط البوليس في اضطرابات ٢٦ يناير.

٢ ـ سوف يتم اعتقال عدد منهم وسوف يُطال الاعتقال شخصيات مهمة (التلميح واضح إلى «فؤاد سراج الدين» (باشا)).

٣ ـ هناك حاجة إلى عقوبات رادعة للمسئولين تكون عبرة لغيرهم.

٤ ـ قام بعض ضباط البوليس بمحاولات لتجنيد ضباط شبان في الجيش وقصدهم تلويث ولاء بعضهم للملك ولمصر.

٥ ـ هناك إلحاح من ضباط الجيش الشبان على تعيين اللواء «فؤاد صادق» (باشا) قائدا للجيش بدلا من «حيدر» (باشا)، وسوف يتم ذلك فور إقناع الملك بهذا التغيير.

٦ ـ أن الملك «فاروق» ألمح أمامه إلى رغبته في لقائى مباشرة، وأشار عليَّ بأن أتقدم بطلب رسمى، وأبديت استحسانا للفكرة، ووعد بعرض طلبى على «حسنى» (باشا) سكرتير الملك الخاص، وقد صعدت مع «يوسف رشاد» إلى طابق أعلى في القصر حيث مكتب سكرتيره الخاص.

٧ ـ صحبنى «يوسف رشاد» بعد ذلك بسيارته إلى وزارة الداخلية لألتقى مع وزيرها الجديد «أحمد مرتضى المراغى» (بك). ورحب بى «المراغى» (بك) بود، وشرح لى تفاصيل ما جرى في حوادث الاضطراب، وركز هو أيضا على أهمية تطهير البوليس (من رجال فؤاد سراج الدين)، وكذلك ركز على أهمية متابعة أى محاولة هدامة تتسلل إلى الجيش، خصوصا بين شباب الضباط.

٨ ـ عندما تكلم «المراغى» (بك) عن رأيه في ضباط البوليس، لفت نظرى قوله لى: «إننى في هذه اللحظة لا أستطيع أن أطمئن حتى إلى العناصر التى تقوم على حراسة وزارتى نفسها ـ وزارة الداخلية!

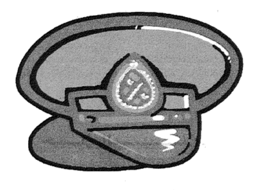
٩ ـ طلب منى أن أحتاط لاحتمال عمل إرهابى يوجه ضدى شخصيا ـ! ـ ونصحنى بالحذر!



وكان الملك وكل رجال قصره ـ مدنيين وعسكريين ـ على اعتقاد بأن أداة السيطرة الوحيدة الباقية لهم هى الجيش.

وكذلك فإن الجيش المصرى كان في تلك اللحظة الحرجة من حياة مصر ـ بقوة الأشياء والأحكام ـ وبضغط الحوادث والتداعيات ـ وبكافة احتمالات المستقبل وضروراته: ميزان الموقف ومكياله!

والسؤال الكبير المُعَلَّق هو: كيف يستطيع الملك ضمان ولاء وطاعة هذا الجيش في يده ـ وفى يده وحده؟!







الاقتصاد

رهان على المستقبل والمستقبل محفوف بالمخاطر!

حازم الببلاوى



يكثر الحديث هذه الأيام عن قروض متعسرة لدى البنوك، وتضييق فى الائتمان المتاح للأفراد والمشروعات، وتعثر فى السداد، ونقص فى السيولة. وكلها أمور تشير إلى اضطراب فى أسواق الائتمان، فالبنوك تجد صعوبة فى استيفاء حقوقها لدى الأفراد والمشروعات، وهؤلاء بدورهم يجدون صعوبة من البنوك فى تجديد تسهيلاتهم وتشددًا فى منح تسهيلات جديدة. وهكذا يدور الجميع فى حلقة مفرغة.. فما هو أصل الحكاية؟

ليس من السهل رد هذه الأمور إلى سبب واحد. فلابد أنه تكاتفت عوامل متعددة ساعدت على خلق هذا الوضع المتأزم، وقد ترتب على هذه الأوضاع أن تقلصت الأعمال، واتجه المتعاملون فى الأسواق إلى تفضيل المعاملات نقدًا، وبدأ الائتمان فى التراجع، فلا البنوك تقبل - بسهولة - منح تسهيلات جديدة للمتعاملين، ولا التجار يقبلون - عادة - البيع مع تسهيلات فى السداد. وهكذا بدا أن التعامل النقدى In Cash يكاد يصبح الأصل، ويتراجع دور الائتمان أو الدفع الآجل إلى حدود ضيقة. وفى هذا خطر كبير على النمو الاقتصادى. فالائتمان، قد أصبح - إلى حد بعيد - أساس الاقتصاد المعاصر، ولا يمكن أن يستمر الازدهار الاقتصادى مالم يستعد الائتمان دوره وأهميته فى النشاط الاقتصادى. هذه إحدى بدهيات الاقتصاد. ولكن لا بأس من ترديد هذه البدهيات. فقد أثبتت التجربة، أن أكبر المشاكل وأخطرها تأتى عندما نتجاهل البدهيات والمبادئ الأولية. ولذلك لا نرى ضررًا كبيرًا من إعادة التذكير بهذه البدهيات، بل قد يكون هناك بعض النفع من وراء ذلك.

الاقتصاد تعامل مع المستقبل:

نقطة البدء فى فهم النشاط الاقتصادى هى أن ندرك أن هذا النشاط هو بطبيعته، نشاطٌ ممتد فى الزمن، وأن العائد من وراء أى جهد لا يأتى معاصرًا لبذل هذا الجهد، وإنما يتحقق فى فترة زمنية لاحقة. ومن هنا فإن جوهر النشاط الاقتصادى هو المقامرة على المستقبل، والرهان عليه. الأمر الذى يتطلب الثقة فى هذا المستقبل، والثقة فى المتعاملين. فالحديث عن المستقبل، هو حديث عن المخاطر وعدم اليقين. فالمستقبل مشوب دائمًا بكل أنواع الاحتمالات. ولذلك فإن التعامل مع المستقبل يتطلب توافر درجة معينة من الثقة فى النجاح والرهان عليها. وما لم تتوفر هذه الثقة توقفت الأعمال أو تضاءلت إلى حد بعيد.

فانظر إلى الزراعة مثلاً. فهى ليست عملاً لحظيًا يتم وينتهى فى لحظة، بل لابد من بذل الجهد أولاً ثم ظهور النتيجة فى وقت لاحق، بعد مرور وقت قد يطول أو يقصر بحسب طبيعة المحصول. فالزارع يبذر البذور بعد أن يمهد الأرض ويحرثها، وعليه أن يواليها بالرى والرعاية وربما تغذيتها بالأسمدة والمخصبات، وفى النهاية يظهر المحصول والعائد. وقبول الزارع بذل الجهد والمال فى أول الأمر، إنما هو رهان على المستقبل، وإدراكه أن هذا الجهد والمال سوف يكافأ فى النهاية بظهور المحصول وتعويضه عما بذله من جهد ومال، وهذا الرهان إنما هو نتيجة لثقة فى الأرض لتجارب سابقة ناجحة، وثقته فى العمالة وقدرتها لخبرته



الطويلة فى هذا النشاط استمدها من خلال أجيال متعاقبة. وهكذا فإنه بدون هذه الثقة ما قامت زراعة، وقل نفس الشىء عن الصناعة. فصاحب المشروع يوفر رأس المال، لشراء الأرض وإقامة المبانى والمنشآت وتركيب الآلات والأجهزة، ثم تقتضى بداية الإنتاج الإنفاق على أجور العمالة والموظفين، وشراء المواد الأولية والمصاريف العمومية، وفى النهاية فقط، تظهر النتيجة عندما يظهر إنتاج المصنع ويتم بيعه فى السوق وتحصيل حصيلة البيع.. وهنا أيضًا، لا يمكن أن يتحقق إنتاج صناعى، مالم تكن هناك ثقة فى المستقبل، وثقة فى المشروع، وفى سلامته الفنية، وفى توافر الأسواق للمنتج النهائى. فالثقة فى المستقبل هى أساس الصناعة كما كانت أساس الزراعة. ومادام النشاط الاقتصادى نشاطًا ممتدًا فى الزمن، تتعلق النتائج فيه بالمستقبل، فإنه لا أمل فى نشاط اقتصادى مزدهر مالم تتوافر ثقة المتعاملين فى هذا المستقبل، والثقة فى الأوضاع بشكل عام؛ والثقة فى الآخرين وقدرتهم على الوفاء بالتزاماتهم، والثقة فى الاستقرار القانونى وقدرته على حماية حقوقهم، والثقة فى الاستقرار النقدى وعدم تدهور قيمة النقد، والثقة فى النظام السياسى وعدم تعرضه للقلاقل والهزات، وهكذا.



ولكن الأمر لا يقف عند حد امتداد النشاط الاقتصادى زمنيًا، بل إن تجربة معظم المجتمعات البشرية أظهرت انقسام الأفراد إلى مجموعتين، مجموعة قادرة على أن توفر جزءًا من دخلها فى شكل فائض، أو مدخرات، فى حين أن مجموعة أخرى - أقل عددًا - من الأفراد الذين لديهم أفكار لمشروعات ولكن ينقصهم المال، وهؤلاء يطلق عليهم اسم الوحدات العاجزة Deficit Units، بالمقابل بالمجموعة الأولى وهى جموع المدخرين أى الوحدات الفائضة Surplus Units. وليس من الضرورى أن تكون هذه المدخرات كبيرة، بل قد تكون صغيرة بالنسبة لكل فرد على حدة، ولكنها تمثل حجمًا كبيرًا إذا أخذنا مجموع هؤلاء من صغار المدخرين. وفى المقابل فإن مجموع الوحدات العاجزة تمثل جمهور المستثمرين من أصحاب المشروعات والأفكار التى يحتاج تنفيذها إلى أموال ومدخرات تجاوز طاقة وإمكانية هؤلاء المستثمرين. ومن هنا فإن مصلحة الاقتصاد هى أن تنتقل هذه المدخرات من الوحدات الفائضة إلى الوحدات العاجزة. بحيث تتنازل الوحدات الفائضة - المدخرون - عن أموالها لكى تستخدمها الوحدات العاجزة - المستثمرون - مقابل ضمانات يقدمها هؤلاء المستثمرون برد هذه الأموال مع العائد فى وقت معين، أو بالسماح لهم بالمشاركة فى ملكية المشروعات وأرباحها. وهذا أمر لا يمكن أن يتحقق مالم تتوافر ثقة المدخرين فى أن حقوقهم لن تتعرض للضياع أو التبديد. وهنا أيضًا نجد أن قدرة الاقتصاد على تحقيق المدخرات، وعلى حسن استخدام هذه المدخرات فى استثمارات ناجحة، تتوقف على مدى توافر الثقة فى أن هذه الحقوق غير مهدرة. أما كيف يتم ذلك؟ وهناك مجموعة كاملة من الهياكل المالية المتكاملة التى تساعد على تحقيق هذه الحماية وتوفير الثقة للمتعاملين. هناك

سلامة الأوضاع المالية للبنوك وحماية حقوق المودعين لا تتوقف فقط على حسن اختيار عملاء الائتمان، فهناك قواعد أخرى لضمان عدم تعرض البنك لمخاطر قد تعرض بالتالى حقوق العملاء للخطر ومن ذلك مثلاً وضع نسبة معينة لحجم ائتمان البنوك بالنسبة لرأس ماله

مؤسسات مالية متخصصة من بنوك وشركات تأمين وصناديق وبورصات وشركات تقييم ومؤسسات للمحاسبة والمراجعة. وهناك أدوات مالية متنوعة من أسهم وسندات وخيارات ومشتقات مالية مختلفة. وهناك أخيرًا نظام قانوني وثقافي لتحديد خصائص ومواصفات ووظائف هذه المؤسسات وتلك الأدوات، وحماية كافية لأصحاب الحقوق وضمانات للتنفيذ.

والحديث عن التعامل مع المستقبل وأهمية الثقة، هو حديث عن المخاطر. فعند التعامل مع المستقبل ليس هناك يقين، ولا بد من تقبل بعض المخاطر. ودون ذلك لن يقوم أى نشاط اقتصادى. والمطلوب هو فقط حسن تقدير هذه المخاطر والتحوط لها قدر الإمكان بأخذ بعض الضمانات الإضافية.

الائتمان عصب النشاط الاقتصادى المعاصر:

رأينا أن النشاط الاقتصادى فى جوهره هو تعامل مع المستقبل، وسواء تعلق الأمر بالنشاط الإنتاجى - من زراعة أو صناعة - أو تعلق بتكوين المدخرات وتوفيرها للاستخدام فى الاستثمار. وقد عرفت المجتمعات منذ القدم النشاط الإنتاجى، وتعاملت معه بدرجة معقولة من الكفاءة رغم أنه يتضمن أيضاً مقامرة على المستقبل. ومع ذلك فإن التعامل مع المستقبل قبل ظهور المجتمع الصناعى كان يبدو أقل خطورة. فالمزارع له خبرة طويلة مع الزراعة، وهى خبرة متوارثة مع الأجيال.. وبالتالى فليس صعبًا عليه أن يقبل المقامرة بالقيام بأعمال الزراعة وانتظار النتيجة بعد فترة - ليست طويلة - وظهور المحصول. وقل مثل ذلك، إلى حد بعيد، مع الإنتاج الحرفى، فهو عادة متوارثة من جيل لآخر، ولذلك فإن المخاطرة فيه محدودة، لذا فإن معظم المجتمعات قد أقبلت على القيام بالنشاط الزراعى والحرفى منذ فترات طويلة نسبيًا. وليس الأمر كذلك تمامًا مع الإنتاج الصناعى. فهذا الإنتاج يختلف عن مرحلة الإنتاج الحرفى، فى أن هذا الإنتاج لا يتم بناء على طلب مسبق من زبون معروف مسبقًا، كما هو حال الحرفى الذى ينتج لزبون محدد، وإنما يظهر الإنتاج الصناعى للسوق بشكل عام. ومن هنا مخاطر السوق. لذلك فقد كان الإنتاج الصناعى دائمًا أكثر مخاطرة، لأنه إنتاج مبنى على توقعات للطلب فى السوق وليس بناء على طلب سابق متفق عليه. وإذا كانت الصناعة تتضمن مخاطر أكبر بالنظر إلى توجهها إلى السوق وليس لزبون محدد، فإنها تنطوى على جانب آخر من المخاطر يرتبط بتمويلها. فالصناعة، وعلى عكس الإنتاج الحرفى، تحتاج عادة إلى رؤوس أموال كبيرة تجاوز قدرات الفرد الواحد، ومن هنا حاجته إلى استمالة الآخرين لكى يقدموا له الأموال حتى يتمكن من القيام بهذا الإنتاج الصناعى. أما الحرفى، فهو لا يحتاج، عادة إلى رؤوس أموال كبيرة. فهو كنجار أو حداد أو ترزى، قد يحتاج إلى قليل من الأدوات، وبالتالى فهو فى غير حاجة إلى تمويل الآخرين. وليس الأمر كذلك مع الصناعة. فلا يتصور قيام صناعة دون مشاركة وتعاون العديد من الأفراد على توفير التمويل لهذه الصناعة. ومعنى ذلك أن هناك حاجة إلى ثقة هؤلاء فى المشروع وفى قدرته على حماية أموالهم، بردها فى المستقبل مع العوائد، أو بتقديم أرباح مجزية خلال حياة المشروع. وهكذا نجد أن الصناعة قد ارتبطت - منذ البداية - بدرجة أكبر من المخاطر - مخاطر السوق، ومخاطر التمويل - وبالتالى بالحاجة بدرجة أكبر إلى الثقة. وبالإضافة إلى هذه المخاطر، فإن تسويق المنتجات الصناعية أصبح يعتمد بدرجة أكبر على منح تسهيلات فى السداد، مع السماح بالبيع بالتقسيط، أو الدفع المؤجل. وكل هذا يزيد من درجة المخاطر التى تحيط بالصناعة، وهى ترتبط بشكل أو بآخر بمنح آجال للدفع، سواء فى تمويل الإنتاج، أو فى تسويقه. لذلك فقد قبل بأن نمو الصناعة وتطورها رهن بنمو إمكانيات التمويل، أو ما اصطلح عليه بوجود نظام كفء للائتمان. فماذا يقصد بذلك؟

الائتمان Credit يقصد به مبادلة آجل بعاجل، وأهم مظاهره القرض. فالقرض هو منح الغير مبلغًا من المال الآن، مقابل استرداده فى وقت لاحق، وبذلك فهو يتضمن - كما فى التعريف - مبادلة آجل بعاجل. ولكن البيع بالتقسيط يتضمن - هو الآخر - قدرًا من الائتمان، حيث يتسلم المشترى البضاعة الآن، ويسدد ثمنها على أقساط فى المستقبل. وبذلك يتفق مع التعريف السابق للائتمان. وقد وفق علم الاقتصاد فى اختيار تعبير «ائتمان» فى اللغة العربية لهذه الظاهرة. ذلك أن هذا التبادل لا يمكن أن يتم إلا إذا تحقق قدر من الثقة والأمانة بين المتعاملين. فالعادة أن التبادل يتم بين شيئين فى نفس الوقت، وبالتالى يتم التسليم والتسلم لموضوع التبادل دون فارق زمنى، وتنتهى العملية فورًا، ويذهب كل من الأطراف فى حال سبيله. أما فى حالة الائتمان، فإن أحد الطرفين يتسلم مالاً - نقودًا أو سلعة - مقابل تعهد برد المقابل فى المستقبل. مما يعنى أن هذه العلاقة لا يمكن أن تتم مالم تتوافر الثقة فى أن هذا الطرف سوف يسوى التزامه ويفى بتعهده فى المستقبل، وهذه الثقة لا تقتصر على أمانة هذا الطرف، بل تتضمن الثقة أيضًا فى أن الظروف الاقتصادية سوف تكون مواتية لكى يتمكن من أداء التزاماته. فقد يكون الرجل أمينًا ومخلصًا، ولكن الأوضاع الاقتصادية أو السياسية مضطربة بما يجعل وفاءه بهذه الالتزامات غير ممكن أو غير محتمل. ومن هنا تتضمن الثقة عناصر مختلفة، بعضها متعلق بالطرف الآخر، والبعض الآخر متعلق بأوضاع الاقتصاد فى مجموعه وفى النظام القانونى والقضائى وكل ما يتعلق باحترام التعهدات فى المستقبل.

والائتمان بهذا الشكل، هو ائتمان للاقتصاد على المستقبل، ونجد مظاهره فى كل مناحى الحياة. فالمدخر - وهو عادة غير قادر على استثمار مدخراته بنفسه - يقوم بوضع هذه المدخرات لدى البنك، أو لدى صندوق التوفير أو لدى إحدى شركات الاستثمار. وفى كل هذا فإن هذا المدخر يأتمن هذه المؤسسات على حماية مدخراته والقدرة على استردادها مع الفوائد. إذا تعلق الأمر بالبنوك أو صناديق التوفير، أو بالقدرة على الحصول على أرباح مناسبة، إذا تعلق الأمر بشركات أو مؤسسات للاستثمار. أما إذا انعدمت الثقة - لتجارب فاشلة فى الماضى، أو لشائعات، أو غير ذلك. فإن هذا المدخر سوف يحجم عن وضع مدخراته فى هذه المؤسسات ويحبسها عن التداول فى شكل من أشكال الاكتناز. وبذلك يحرم الاقتصاد القومى من المصدر الأساسى للتمويل.

وإذا كان المدخر يأتمن البنوك والمؤسسات المالية عندما يضع مدخراته بها، فإن هذه المؤسسات، وخاصة البنوك، تقوم بتوظيف هذه الأموال بإقراضها - عادة - للمشروعات الصناعية، ومن ثم بتوفير ائتمان لها للقيام بنشاطها الإنتاجى. ودون ذلك تفشل هذه المشروعات الصناعية فى توفير التمويل اللازم، نظرًا لأن احتياجات الصناعة، تفوق - كما سبق أن ذكرنا - قدرات أى مستثمر فرد، وبالتالى فإنه يكون عادة فى حاجة إلى الالتجاء إلى أموال الآخرين، ويتم ذلك عادة عن طريق المؤسسات المالية، وفى مقدمتها البنوك. وهكذا نجد أن البنوك هى مؤسسات مالية وسيطة، وظيفتها التوسط بين جمهور المدخرين الذين يضعون أموالهم لديها من ناحية، وبين جمهور المستثمرين الذين يقترضون هذه الأموال لتشغيل إنتاجهم الصناعى من ناحية أخرى. وتكسب البنوك من الفرق فى أسعار الفائدة التى تقترض بها من المدخرين، وأسعار الفائدة التى تُقرض بها المستثمرين. فالبنوك بهذا الشكل هى الجهاز الذى يقوم بنقل الأموال من المدخرين إلى المستثمرين، مع توفير أكبر حماية لأموال المدخرين من ناحية وأفضل شروط للمستثمرين من ناحية أخرى. وعندما تقوم البنوك بهذا الدور، فإنها تحرك النشاط الاقتصادى. ويقال عادة أن عملية التمويل هى أشبه بالدورة الدموية حيث تنتقل الأموال من خلالها، كما ينتقل الدم من خلال الشرايين لمختلف أجزاء الجسم فتدب فيه الحياة. وكذا البنوك، فإنها تقوم بنقل الأموال بين مختلف قطاعات الاقتصاد، بما يساعد على بعث الحياة فى النشاط الاقتصادى. ورغم أن البنوك ليست هى كل المؤسسات المالية، فإنها بلا شك من أكثرها أهمية وخطورة. وهى أكثر المؤسسات تعاملاً فى الائتمان، ولذلك فإن التعرض لطبيعة ائتمان البنوك وما يرد عليه من مخاطر يعتبر محورًا جوهريًا فى الاستقرار الاقتصادى.

البنوك والائتمان:

البنوك هى مؤسسات مالية وسيطة، تجمع مدخرات الأفراد، وتضعها تحت تصرف المستثمرين، وبذلك تظهر كمؤسسات تتعامل أساسًا فى الائتمان. فالأفراد يودعون أموالهم لدى البنوك، أى أنهم يمنحون البنوك ائتمانًا. والبنوك تمنح العملاء قروضًا وتسهيلات أى أنها تمنحهم ائتمانًا. وهكذا يتمركز دور البنك فى التعامل مع الائتمان، وعندما يقوم الفرد بإيداع نقوده لدى البنك، فإنه - كما قلنا - يمنح هذا البنك ائتمانًا، حيث يقدم له عاجلاً - نقود الوديعة - مقابل آجل، هو الوعد باسترداد مبلغ الوديعة مع الفوائد فى وقت لاحق. والأصل أن الفرد وهو يتعامل مع البنك، عليه أن يتأكد من استحقاق البنك لهذا الائتمان، بمعنى التأكد من أن البنك قادر من الناحية المالية والإدارية والمهنية على حماية أموال المودع. ومع ذلك فإن القوانين فى معظم الدول، تعفى المودع من القيام بهذا البحث عن الجدارة الائتمانية للبنك، وتقوم الدولة - ممثلة فى السلطات النقدية - بضمان توافر هذه الجدارة المالية للبنك. ويتم ذلك عن طريق ما تشترطه القوانين من شروط ومقومات فى البنك للموافقة على قيامه بنشاطه. وتتضمن هذه الشروط - عادة - تحديد حد أدنى من رأس المال لضمان حقوق المودعين، والتأكد من وجود نظم داخلية سليمة لدى البنك من الناحية المحاسبية ومن ضمانات اتخاذ القرار وإجراءات المراجعة، وتقديم تقارير دورية للبنك المركزى، فضلاً عن خضوع البنك للرقابة المباشرة من إدارة الرقابة على البنوك فى البنك المركزى أو فى شكل إدارة مستقلة للإشراف والرقابة على أعمال البنوك، والتأكد من التزامها المستمر بالقواعد والشروط التى تضعها السلطات النقدية. وهكذا توفر القوانين عادة على المودع الفرد عبء القيام بدراسات مستقلة للتأكد من السلامة المالية للبنوك بما تضعه الدولة من قواعد للرقابة على البنوك، ولكن ذلك لا يمنع من قيام حالات تعثر أو حتى إفلاس بعض البنوك. ولعلنا نذكر ما حدث منذ عدة سنوات لبنك الاعتماد الدولى وفروعه عندما عانى من مشاكل مالية فى مختلف البلدان ومنها مصر. وقامت مصر - حينذاك - بتوفير ضمانات لحقوق المودعين فى هذا البنك عن طريق قيام بنك مصر بشراء الفرع المصرى وإدماجه فى حسابات بنك مصر. ومع ذلك ترى دولٌ أخرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية أن تترك الأمر لقوى السوق، ومنها الإفلاس، لكى تعمل كما هو الحال بالنسبة للشركات بصفة عامة. وتأخذ بعض الدول بتوفير تأمين على حقوق المودعين لدى شركات التأمين - عادة التأمين فى حدود سقف معين - وهناك آراء متعددة فى مزايا ونقائص هذه النظم للتأمين. فمن المزايا، توفير حماية لحقوق المودعين، خاصة الصغار منهم، والذين لا يتمكنون من تقدير الجدارة الائتمانية للبنوك. ولكن هناك بالمقابل عيوب لمثل هذه النظم وخاصة عند المبالغة فى توفير مثل هذا التأمين. ومن هذه العيوب، أن هذا النظام مكلف ويتحمل المودع نفسه تكلفة

لا أمل فى نشاط اقتصادى مزدهر مالم تتوافر ثقة المتعاملين فى هذا المستقبل، والثقة فى الأوضاع بشكل عام؛ والثقة فى الآخرين وقدرتهم على الوفاء بالتزاماتهم، والثقة فى الاستقرار القانونى وقدرته على حماية حقوقهم





كتاب الطبقات الكبير
ابن سـعـد

يعد كتاب «الطبقات الكبير» من أوسع الكتب فى تاريخ الأنساب العربية والرجال والتراجم، وقد اعتمد عليه المؤرخون، ولم يسبقه فى هذا المجال سوى كتاب الطبقات للواقدى أستاذ المؤلف ابن سعد.

قسَّم ابن سعد كتابه إلى قسمين: قسم للرجال وقسم للنساء ثم جعل صحابة رسول الله ﷺ الذين يمثلون الجيل الأول من الرجال فى خمس طبقات. وبنى تقسيمه هذا على السابقة فى الإسلام والفضل، وفى داخل كل طبقة راعى عنصر النسب والشرف. فبدأ بالطبقة الأولى، وهم أهل بدر، برسول الله ﷺ ثم الأقرب فالأقرب إلى الرسول فى النسب. وسار على هذا المنهج فى الطبقة الثانية من الصحابة وهم الذين لم يشهدوا بدرًا واتبع نفس المنهج فى الطبقة الثالثة وهم الذين شهدوا الخندق وما بعدها، وجعل الطبقة الرابعة فيمن أسلم فى فتح مكة وما بعد ذلك، أما الخامسة فهى فيمن ولدوا قبيل وفاة الرسول ﷺ ولم يغز منهم أحد معه، وبعد أن أنهى ابن سعد حديثه عن الصحابة وطبقاتهم تناول طبقات التابعين، ثم تلى ذلك بذكر طبقات النساء وهى تمثل الجزء الأخير من الكتاب.

والمؤلف هو محمد بن سعد بن منيع الكاتب الزهرى واشتهر بابن سعد. ولد فى البصرة سنة ١٦٨هـ ثم توجه إلى بغداد ولازم شيخه الواقدى ثم رحل إلى الكوفة ومكة والمدينة. وصفه عبدالله النديم بأنه كان عالمًا بأخبار الصحابة والتابعة. وقد حقق الكتاب الدكتور على عمر. واعتمدنا هنا على طبعة خاصة من مكتبة الخانجى لمكتبة الأسرة بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب صدرت عام ٢٠٠٢.




إجراءات الموافقة على الائتمان وتنفيذه ومتابعته قد أصبحت فناً عالمياً معترفًا به، وهناك إجراءات متفق عليها فى معظم الدول، ولذلك فيجب على كل نظام مصرفى أن يتبع هذه الإجراءات بشكل معقول. وينبغى لكل بنك أن تكون هذه القواعد والإجـراءات واضحة ومعلنة ومطبقة

التامين. فاقساط التامين لابد أن تحسب ضمن أعباء البنك، وبالتالى فإن البنك يعيد تحميلها على العميل فى شكل إنقاص العائد على وديعته لدى البنك. فالتامين على ودائع الأفراد ليس منحة حرة بلا تكاليف، بل إن لها تكاليف يتحملها المودع نفسه. والعيب الثانى هو ما يطلق عليه بالإنجليزية Moral Hazard، والمقصود بذلك هو أن توافر هذه الضمانة قد يغرى بالتساهل فى الرقابة على أعمال البنوك، وبالتالى يؤدى إلى ترك بنوك دون القيام بالدراسات الائتمانية الكافية للاستمرار فى النشاط نظرًا لأن أموال المودعين مؤمنة على أى الأحوال. أما غياب مثل هذه الضمانة فإنه يلقى بعبء كبير على إدارات البنك وأجهزة الرقابة والإشراف بالتاكد من سلامة الأوضاع المالية للبنوك، وبالتالى حماية أموال المودعين. وإزاء هذه الآراء المتعارضة، فيبدو أن الرأى المرجح هو ضرورة الاعتماد بشكل أساسى على قواعد الرقابة والإشراف على أعمال البنوك، مع إمكان الاتجاه فى حدود ضيقة إلى التامين على ودائع الأفراد بسقف غير مرتفع لحماية صغار المدخرين. وبذلك توضع المسئولية الأولى فى ضمان سلامة قروض البنوك على سلامة نظام السوق وكفاءته من ناحية وعلى دور السلطات النقدية الإشرافية (البنك المركزى) وكفاءتها من ناحية أخرى.



والآن، ماذا عن ائتمان البنوك للأفراد والمشروعات؟ الواقع أن هذا هو جوهر عمل النظام المصرفى كله، وهو يمثل مسئولية مشتركة بين إدارة البنك من ناحية وبين أجهزة الرقابة والإشراف من ناحية أخرى. فعمل البنك - بعد أن تجتذب أموال العملاء فى شكل ودائع - هو أن يقوم بتوظيفها بالإقراض وتقديم التسهيلات المختلفة للعملاء بعد دراسة أوضاعهم الائتمانية، أى بعد تقدير أوضاعهم المالية ومستقبلهم ومدى قدرتهم على الوفاء بالتزاماتهم فى المستقبل. ويتمحور الفن المصرفى حول وضع الأسس والقواعد لإجراء هذه الدراسات الائتمانية، بدءًا بالحصول على معلومات كافية عن العميل ومعاملاته السابقة، وأوضاعه مع البنوك والعملاء وسمعته فى السوق (الاستعلام)، ومرورًا بإجراء الدراسة الائتمانية لطلب القرض أو التسهيل، مما يقتضى دراسة الأوضاع المالية للمؤسسة وتاريخها ونشاطها وتحليل ميزانياتها، ودراسة أحوال السوق التى يعمل فيها، والتنبؤات حول تطور المستقبل، والأوضاع القانونية للمؤسسة وعلاقاتها المالية والتجارية وما يمكن أن يقدم من ضمانات، إلى ما هو مستقر فى أساليب التحليل المالى، وإذا كان استقصاء المعلومات وإجراء الدراسات والتحاليل أمرًا ضروريًا، فلا يقل أهمية اتباع مجموعة من الإجراءات فى اتخاذ القرار تضمن سلامته، من حيث ضرورة عرض القرار وفقًا لسلسلة محددة ومعروفة سلفًا من المراحل بما يسمح بالرقابة الداخلية ومناقشة الآراء الأخرى، وأحيانًا الاستعانة بالخبراء والمختصين من الخارج فى المسائل الفنية. وبعد استكمال إجراءات القرار بمنح الائتمان واتباع القواعد المرعية، فيجب أن يتم التنفيذ من خلال أجهزة أخرى تحقق، عند التنفيذ، نوعًا من الرقابة على صحة بيانات الموافقة الائتمانية. ومع هذا كله لابد أن تقوم متابعة مستمرة لحالة العميل ووضع المؤشرات الكافية لمنع وقوع المخاطر، وتحاشى تفاقمها إذا حدثت.

وينبغى الإشارة فى هذا الصدد، إلى أن إجراءات الموافقة على الائتمان وتنفيذه ومتابعته قد أصبحت فنًا عالميًا معترفًا به، وهناك إجراءات متفق عليها فى معظم الدول، ولذلك فيجب على كل نظام مصرفى أن يتبع هذه الإجراءات بشكل معقول. وينبغى لكل بنك أن تكون هذه القواعد والإجراءات واضحة ومعلنة ومطبقة وتقوم أجهزة الإشراف فى السلطة النقدية (البنك المركزى) بالتاكد من وجود هذه الأنظمة داخل البنوك، ومن مراعاتها. كما تقوم هذه السلطات الإشرافية بوضع القواعد والشروط التى تراها مناسبة من وقت لآخر لضمان سلامة القرارات الائتمانية. وتقوم أجهزة المراجعة والتدقيق (مراجع الحسابات) بدور أساسى فى هذا الصدد. وقد أثبتت التجربة الأخيرة فى الولايات المتحدة الأمريكية، وخاصة مع شركة إنرون Enron والمحاسبين اندرسون - كيف أن ضعف المراجعة والتدقيق قد يؤدى إلى كوارث مالية. كذلك فإن قواعد الشفافية المالية، والنشر الدورى للبيانات المالية يعتبر أساسيًا فى هذا الخصوص. وقد دأبت بعض المنظمات الدولية وخاصة بنك التسويات الدولى (BIS) Bank of International Settlement على إصدار - من وقت لآخر - قواعد للرقابة على المصارف وعلى حسن إدارة هذه المصارف. وهى قواعد أثبتت فاعليتها فى معظم الدول.

على أن سلامة الأوضاع المالية للبنوك وحماية حقوق المودعين لا تتوقف فقط على حسن اختيار عملاء الائتمان، فهناك قواعد أخرى لضمان عدم تعرض البنك لمخاطر قد تعرض بالتالى حقوق العملاء للخطر ومن ذلك مثلاً وضع نسبة معينة لحجم ائتمان البنوك بالنسبة لرأس ماله (مبدأ كفاية رأس المال) Capital Adequacy، ومنها عدم التركيز على عدد محدود من كبار العملاء، أو على قطاع بعينه ومنها مراعاة التوازى بين التزامات البنك وأصوله من حيث آجال السداد، ومن حيث أنواع العملات.. وكل هذا - وغيره - هو من الأمور المستقرة فى أعمال البنوك، وينبغى الحرص على اتباعها بدقة، وهى مسئولية البنك كما هى مسئولية أجهزة الرقابة والإشراف على البنوك (البنك المركزى).

وإذا كانت هناك حاجة وضرورة لاتخاذ واتباع الإجراءات والأساليب المستقرة فى العرف المصرفى لحماية ائتمان البنك من التعرض لمخاطر يمكن تجنبها، فإنه من الواجب، فى نفس الوقت، وضع ضمانات للعاملين فى البنوك فى إدارات الائتمان والتنفيذ، بالا تلاحقهم مطالبات أو مسئولية لا ترجع إلى خطئهم المهنى. فيجب أن يكون مفهومًا، منذ البداية، أن المخاطر هى جوهر



النشاط الاقتصادى. فمادام هذا النشاط متعلقًا بالمستقبل، فإنه لا يمكن القطع بتحقق النتائج المرجوة، هناك دائمًا مخاطر، وهناك دائمًا احتمالات للنجاح كما أن هناك احتمالات للفشل. والمطلوب ليس هو استبعاد الفشل كلية، وإنما فقط تقليل احتمالاته والتحوط له بأخذ ضمانات مناسبة. وفى جميع الأحوال فإن التعامل مع المستقبل يتضمن أمورًا يتدخل فيها الحظ أو سوء الحظ، كما يتطلب إبداء الرأى والحكم على الأشياء. وقد يصدق هذا الحكم كما أنه قد يخطئ. والخطأ الائتمانى لا يرجع إلى عدم تحقق النتيجة - عند فشل العميل فى السداد - إذا كان هذا الفشل راجعًا لأسباب خارجية مثل ظروف طارئة أو غير متوقعة، كما حدث من آثار سلبية على السياحة بعد حوادث الأقصر فى ١٩٩٧ أو بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١. فهنا فشل فى تحقيق النتائج بسبب ظروف خارجة أو سوء حظ لا يمكن توقعه. كذلك قد يختلف التقدير بين شخص وآخر حول أهمية أحد العوامل، وتظهر التجربة سوء هذا التقدير. فهنا أيضًا ليس من الضرورى أن يكون هناك خطأ ائتمانى، إذا توافرت النية السليمة، وتم اتباع الإجراءات بدقة وتوافرت المعلومات الكافية، ولم ترتكب أية أعمال لحجب الحقيقة أو تغيير القرار فى اتجاه أو آخر. الخطأ الإنسانى فى التقدير - مادامت الإجراءات السليمة قد اتخذت - هو أمر طبيعى وأحيانًا أمر لازم. والتشدد فى هذا الجانب قد تكون تكلفته أعلى بكثير على المجتمع من إباحته، فالتشدد فى تحميل أخطاء التقدير يؤدى إلى التشدد فى منح الائتمان، وبالتالى تقليل الخسائر المحتملة من الفشل، وفى نفس الوقت ضياع آلاف الفرص الكبيرة والتى تعود على الاقتصاد بفوائد يصعب تعويضها. لذلك فإن اتباع إجراءات مشددة وصارمة فى اتخاذ قرارات الائتمان، لا يعنى معاقبة حالات الفشل، إذا كانت قد اتخذت بحسن نية وفى حدود الممارسة المصرفية السليمة.

كذلك فإن العبرة عند المحاسبة عن قرارات الائتمان، هى بالنظر إلى الأوضاع التى تم فيها اتخاذ هذا القرار، وليس النظر فى ضوء ما ظهر من تطورات لاحقة. وبعبارة أخرى فبقدر ما يلزم من وضع الضوابط الصارمة والإجراءات الفاصلة لاتخاذ قرارات الائتمان، بقدر ما يجب إعطاء مسئولى الائتمان قدرًا معقولاً من الحماية لهم فى اتخاذ قراراتهم ضمن الضوابط المرعية وعدم تعريضهم للمساءلة أو تعريض سمعتهم للضرر مما يلجم قراراتهم. فليس أخطر على الاقتصاد من منح الائتمان غير المسئول، سوى منع الائتمان وتضييقه وحرمان الاقتصاد من فرص النمو والازدهار. مسئولية اتخاذ قرارات الائتمان مسئولية كبيرة، ويجب أن يراعى فى اتخاذها العديد من الضوابط، وأن تخضع للمراقبة والإشراف والمراجعة الدائمة، ولكن يجب فى نفس الوقت توفير الاحترام والاستقرار والاطمئنان لمتخذى هذه القرارات. كذلك فإن اختيار مسئولى الائتمان يجب أن يخضع لضوابط دقيقة، وأن تتم مراجعة أوضاعهم بشكل مستمر، ولكن برقة وبغير غلظة.



القول بأن ائتمان البنوك يتوقف على مدى كفاءة الإدارة فى البنوك من ناحية، وكفاءة أجهزة الرقابة والإشراف من السلطات النقدية من ناحية أخرى، يتضمن الكثير من أسباب نجاح الائتمان المصرفى، ولكنه لا يشمل كل شىء. هناك أمور متعلقة بالأوضاع العامة تؤثر فى الائتمان رغم أنها تخرج عن مسئولية البنوك والسلطات النقدية. هناك الأوضاع الاقتصادية العامة. فلاشك أن رواج الاقتصاد وانتعاشه بشكل عام يساعد على تقليل مشاكل الائتمان وحالات التعثر وعدم السداد. وعلى العكس فإن شيوع الكساد والركود الاقتصادى يؤدى بالضرورة إلى تعدد حالات التعثر والإفلاس. كذلك فإن طبيعة النظام القانونى، ومدى ما يتوافر للدائن من حقوق أو للمدين من حماية، يؤدى فى مدى القدرة على استيفاء الحقوق وسرعة التنفيذ. ويقوم النظام القضائى بدور أساسى فى هذا الصدد من حيث مدى الحماية التى يسبغها على المتعاملين والسرعة التى يتم الفصل بها والفاعلية لتنفيذ ما يصدر من أحكام. وكلما زادت فاعلية القانون والقضاء فى حماية حقوق الدائن، كلما زادت قدرة البنوك على التوسع فى الائتمان، وبالتالى استطاع المدينون الإفادة من خدمات البنوك. فهناك رأى شائع يرى أن مزيدًا من حماية الدائن لتحصيل حقوقه بسرعة وكفاءة يتم على حساب المدين. وهى نظرة - عادة - قصيرة، ولا تأخذ فى الاعتبار أن مصلحة المدين الأساسية هى أن تكون أبواب البنوك مفتوحة أمامه، وأن يتوسع النظام المصرفى فى منح القروض والتسهيلات. وهو أمر لا يمكن أن يتحقق مالم تكن حقوق البنك - كدائن - متمتعة بحماية كافية، وتؤدى هذه الحماية لحقوق الدائن - فى النهاية - إلى خدمة مصالح المدينين، بإتاحة الفرصة أمام البنوك للتوسع فى منح الائتمان.

كذلك فإن التشدد فى محاسبة مسئولى الائتمان - على تقديراتهم - وليس عن أخطائهم المهنية، يؤدى إلى مزيد من التضييق فى الائتمان، وفى النهاية معاقبة العملاء والبنوك على السواء. معاقبة العملاء لأن البنوك سوف تحجم عن منح الائتمان إلا فى حالات الضمان شبه الكامل، ومعاقبة البنوك، لأن ذلك يحرمها من فرص للنشاط وبالتالى من فرص للكسب. وخسارة البنوك هى خسارة للمودعين كما هى خسارة للاقتصاد القومى. حماية الائتمان تتحقق بمزيد من وضع الضمانات والضوابط عند اتخاذ القرارات، ومزيد من الرقابة والإشراف والمتابعة، ومزيد من التدقيق فى اختيار قيادات البنوك، ومزيد من الشفافية، ومزيد من وضوح القوانين وسرعة القضاء. وبعبارة أخرى بتمكين البنوك من أداء وظائفها، مع وضوح كامل فى الضوابط المصرفية، ودقة فى الرقابة والمتابعة، واحترام للمسئولين بها، وأخيرًا تأتى العقوبات فى النهاية، وهى وحدها لا تقيم نظامًا ناجحًا.. والله أعلم. ■

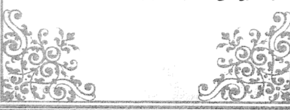


حمزة بن عبد المطلب
(الطبقة الأولى)

أسد الله وأسد رسوله وعمّه، رضى الله عنه، ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصىّ، وأمّه هالة بنت أهيب ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مُرّة، وكان يكنى أبا عمارة. وكان له من الولد يعلى وكان يكنى به حمزة أبا يعلى، وعامر دَرَج، وأمهما بنت الملة بن مالك بن عبادة بن حجر بن فائد بن الحارث بن زيد بن عبيد بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف من الأنصار، من الأوس، وعُمارة بن حمزة، وقد كان يكنى به أيضًا، وأمه خولة بنت قيس بن فهد الأنصارية من بنى ثعلبة بن مالك بن النجار، وأمامة بنت حمزة وأمها سلمى بنت عميس الخثعمية.

قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال أخبرنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب، قال سمعت محمد بن كعب القرظى، قال: نال أبو جهل وعدى بن الحمراء وابن الأصداء من النبى ﷺ، يومًا وشتموه وآذوه، فبلغ ذلك حمزة بن عبد المطلب، فدخل المسجد مغضبًا فضرب رأس أبى جهل بالقوس ضربة أوضحت فى رأسه، وأسلم حمزة فعز به رسول الله ﷺ والمسلمون وذلك بعد دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم فى السنة السادسة من النبوة.

وقُتل، رحمه الله، يوم أُحد على رأس اثنين وثلاثين شهرًا من الهجرة وهو يومئذ ابن تسع وخمسين سنة، كان أسَن من رسول الله ﷺ بأربع سنين، وكان رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير، قَتَله وحشىّ بن حرب وشق بطنه، وأخذ كبده فجاء بها إلى هند بنت عُتْبَة بن ربيعة، فمضغتها، ثم لفظتها، ثم جاءت فمثلت بحمزة، وجعلت منّ ذلك مسكتين ومعضدين وخدمتين حتى قدمت بذلك وبكبده مكة.



خرج ولم يعُد

■■ بينما كانت التحقيقات فى الفضائح المالية بالولايات المتحدة جارية وبما استدعى إصدار تعديل تشريعى يشدد عقوبة التلاعب فى البيانات المالية للشركات ويصل بها إلى السجن.. كانت هناك فضائح مالية أخرى فى مصر يجرى التحقيق فيها والإعلان عنها.. وكانت الفضائح المصرية أقل حجمًا من الفضائح الأمريكية، لكنها لم تكن أقل خطرًا، فكلتا الحالتين تمس سلامة الاقتصاد.. بل سلامة النظام الاقتصادى القائم على الحرية.

وقد بدا المشهد فى مصر غريبًا، فهذا صيف ساخن شهد سقوط وزيرين سابقين ودخولهما السجن مع عدد آخر من رجال المال والسياسة.. وهذا حكم قضائى هو الأول من نوعه حيث تشير فيه محكمة أمن الدولة العليا «أنها تأسف لأن النصوص التشريعية لم تمكنها من أن تحيل المتهمين إلى المفتى لأنهم حقًا يجب أن يحالوا إليه جزاء أفعالهم والتى كانت بمثابة اغتيال لأموال هذا الوطن».



ولم تكن هذه القضية التى صدر الحكم فيها يوم ٣١ يوليو الماضى والتى اشتهرت باسم «قضية نواب القروض» غير واحدة من قضايا وحالات كثيرة لأموال مصرفية «خرجت ولم تعد» خرجت من البنوك، ثم خرج بعضها من مصر، وخرج بعض أصحابها أيضًا.. وكان الخروج ـ أو المسيرة كلها ـ فى اتجاه واحد: «خروج بلا عودة»!

وقد تجمَّع كل ذلك تحت عنوان شهير هو (المتعثرون) أو (المتعسرون)، وكلاهما تعبير لغوى صحيح عن الأزمة التى واجهت البنوك المصرية عدة سنوات، ثم تصاعدت إلى بؤرة الاهتمام فى صيف (٢٠٠٢) عندما باتت قاسمًا مشتركًا فى أعمال البنك المركزى، وأجهزة الرقابة، والإنتربول.. بل إنها كانت محل تعليق من رئيس الدولة فى حوار عام.. كما كانت محل نقاش فى مجلس الوزراء ومحل اهتمام من أعضائه بمن فيهم وزيرا الدفاع والداخلية.

حينذاك امتلأت الصحف المصرية (بمانشيتات) تتحدث عن نداء العودة الصادر من رئيس الوزراء للهاربين، كما تتحدث عن إمكانية التسوية للهاربين وغير الهاربين وشملت خطة العمل المعلن عنها التفاوض لتوفيق أوضاع كبار العملاء من الحاصلين على (٢٥٠) مليون جنيه فأكثر وعددهم ـ طبقًا للمصادر الرسمية ـ خمسون عميلاً، مع إبلاغ (الإنتربول) و(١٨٧) منفذًا وميناءً دوليًا للقبض على سبعة من عملاء البنوك المصرية الهاربين خارج البلاد، والذين وصلت مديونية أحدهم (وهو حاتم الهوارى) إلى (٤) مليارات جنيه أى ما يعادل تكاليف السد العالى عشر مرات إذا تجاهلنا فروق أسعار العملة، كما يعادل ما يزيد على (١) بالمائة من الناتج المحلى لمصر عام (٢٠٠٢).

وحينذاك أعلنت المصادر الرسمية أن حجم المشكلة أى القروض المتعثرة هو (١٢) مليار جنيه من بين (٣٥٥) مليارًا كحجم إجمالى للقروض حتى نهاية أبريل ٢٠٠٢، وبما يعادل (٣.٤) بالمائة من القروض المستحقة للبنوك لكن ذلك الرقم لم يكن متفقًا عليه.

حجم المشكلة كان موضع خلاف، لكنه لم يكن محل التساؤل الوحيد، بل كانت هناك سلسلة من الأسئلة ذات الأهمية البالغة.

تساءل البعض، ومعهم الحق: هل نحن أمام عملية جديدة من عمليات (نهب مصر) والتى تحدثنا عنها فى القرن التاسع عشر وربما فى فترات لاحقة أيضًا.. وإلا ماذا يعنى الاستيلاء على أموال بالمليارات دون أمل كبير فى العودة؟.. وماذا يعنى أن يكون النهب (وهو المصطلح الذى استخدمته محكمة نواب القروض) لأموال هى فى طبيعتها مدخرات شعبية اتجهت للبنوك اطمئنانًا.. فظهر من ينزحها دون رادع؟.. وما هو موقع ذلك من الاقتصاد والسياسة فى مصر؟.. وهل نحن أمام مشكلة ذات طابع اقتصادى بدأت مع الركود وعجز البعض عن السداد اضطرارًا وعجزًا، أم أننا أمام مشكلة فنية تتعلق بخبرة البنوك، أم هى مشكلة فساد وتواطؤ؟.. وهل نحن بصدد مشكلة أحادية الجانب «من الاقتصاد تبدأ.. وعند الاقتصاد تنتهى»، أم هى مشكلة مركبة تدخلت فيها عوامل السياسة تشجيعًا للقطاع الخاص.. أو تشجيعًا لزواج بين المال والسياسة عند اتخاذ القرارات، سواء كانت قرارات سيادية يصدرها مجلس الشعب أو قرارات مصرفية يتخذها رجال البنوك بإيحاء، أو ضغط، أو رشوة؟

والأسئلة ممتدة إن تحدثنا عن الاقتصاد السياسى للأزمة وموقعها من تطور حدث منذ الانفتاح الاقتصادى، أو إن تحدثنا عن ظاهرة التركز فى الثروة وانقسام المجتمع المصرى وبروز ظاهرة (انتشار الفقر وتركز الثروة) فالذين يأخذون المليارات ويبنون مشروعاتهم بأموال الآخرين هم أنفسهم بناة الطبقة الجديدة، أو النتوء الاجتماعى الذى يزداد ظهورًا فى مصر والذى أصاب بعضه فبنى وشيد وأخفق بعضه فأساء اختيار المشروعات وتوظيف ما حصل عليه من مال، أو أساء اختيار الطريق فاعتمد منهج (اهرب.. واجر).

الأسئلة كثيرة، ونحن نناقش أمرًا هو فى طبيعته بمثابة الدورة الدموية للاقتصاد، لكنه فى شذوذه: تجلط يمنع انسياب الدم فى الجسد، فتموت أجزاء منه، وتتعرض أجزاء للخطر.

[١]

البداية: مصر أخرى

حتى نفهم ما يجرى لابد أن نعود قليلاً للوراء، فالقصة لم تبدأ فى النصف الثانى من التسعينيات، لكنها بدأت من منتصف السبعينيات، وكان فارق التوقيت بين السبعينيات والتسعينيات كفيلاً بأن تتضخم المشاكل وأن تظهر الثمار الفاسدة.

فى السبعينيات، ومع بداية الانفتاح، كنا نتحدث عن انحراف اسمه «شارع الشواربى» أو تهريب السلع إلى الداخل مع تهريب القيمة بالعملة الأجنبية إلى الخارج، وكنا نتحدث عن استيراد الأغذية الفاسدة.

وفى الثمانينيات تحدثنا عن تجار العملة والمضاربة على الجنيه وتخفيضه نتيجة للسوق السوداء، ثم تحدثنا عن توظيف الأموال وجمع المليارات، ونزحها إلى خارج البلاد أيضًا!

ولكن فى التسعينيات وحتى الآن بات حديث الفساد ممتدًا لخروج الأموال.. بالمليارات، ونزح أموال البنوك بالجملة.

نما الفساد إذن ولم يقل، وبينما كان بعضه مجرَّمًا فى السبعينيات حيث حظر القانون حينذاك استيراد مواد معينة، كما حظر تصدير رؤوس الأموال، سقط فى التسعينيات عنصر التجريم، فالتجارة ـ فى معظمها ـ حرة، وتحويل رؤوس الأموال للخارج مشروع، ومن الانفتاح إلى التحرير الاقتصادى مضت الرحلة: سياسة واقتصادًا وأعمالاً وهرمًا تشريعيًا جديدًا.

فى البدء، كان القرار السياسى: مصرًا أخرى غير التى عرفناها فى الستينيات.. وكان عام ١٩٧٤ هو عام التحولات الكبرى، ففى ذلك العام وبعد فض الاشتباك ومحادثات الكيلو

وصلت مديونية أحد المتعثرين (وهو حاتم الهوارى) إلى (٤) مليارات جنيه أى ما يعادل تكاليف السد العالى عشر مرات إذا تجاهلنا فروق أسعار العملة، كما يعادل ما يزيد على (١) بالمائة من الناتج المحلى لمصر عام (٢٠٠٢)

---

١ ـ ملف القضية رقم ٣٩٠ لعام ١٩٩٧ جنايات الأزبكية والمقيدة برقم ١ / ١٩٩٧ كلى شمال القاهرة.

٢ ـ خطة التنمية ـ وزارة التخطيط، ٢٠٠٢.

(١٠١) حسم الرئيس السادات خياراته بعد أن تراجع قيد القضية الوطنية وخطت مصر خطوات نحو استعادة الأرض المحتلة.

في ذلك الوقت كان القرار العسكرى الانتقال من الغرب إلى الشرق على ضفاف القناة وهو ما حدث فى أكتوبر (١٩٧٣) أما القرار السياسى فكان متعدد الوجوه وأحد هذه الوجوه: الانتقال - وعلى عكس القرار العسكرى - من الشرق إلى الغرب، بكل ما يعنيه ذلك من تحول فى السياسات.

كان الرئيس السادات، وكما أشارت دراسات سابقة مولعًا بالنموذج الرأسمالى. ربما لأسباب تتعلق بوجهة نظر فى الطريق الأصوب لنمو المجتمع وهو ما كتمه السادات طويلاً إبان حكم عبدالناصر فذهب يؤيد الاشتراكية، ثم راح فى السبعينيات يمهد الطريق لاقتصاد حر قد يكون هو قناعته.

وربما يكون التحول أيضًا مرتبطًا بصفقة أمريكية - مصرية.. تساند فيها واشنطن مصر فى استعادة الأرض وتقدم مصر التحول السياسى والأيديولوجى ثمنًا لذلك.

أيضًا، قد تكون بعض أسباب التحول هو ذلك الاقتراب بين الرئيس وأصهار ينتمون للطريق الرأسمالى ولقطاع الأعمال مثل عثمان أحمد عثمان وسيد مرعى وأحمد عبدالغفار.

وقد ننفى سوء النية والقصد كسبب للتحول، ذلك أن السادات لم يكن مثل سوهارتو الذى نزح المليارات من أندونيسيا، أو ماركوس الذى نزح أموال الفلبين، رغم أن شقيقه قد تم اتهامه فى قضية فساد فيما بعد.



على أى حال، وأيًا كان سبب التحولات فقد جرى ما جرى: من الشرق إلى الغرب، ومن الاقتصاد الموجه إلى الاقتصاد الحر وفى ظل ما أسماه الرئيس حينذاك (أخلاق القرية) والتى كانت تعنى التسليم بالسلطة الأبوية للحاكم.

فى ظل هذا التحول الاستراتيجى، والذى سار بطريقة (الخطوة - خطوة) جرى بناء هرم سياسى وتشريعى جديد، لم يدرك أحد قمته حينذاك، ولكن وحجرًا فوق حجر جرى تشييد الهرم وبات هو النظام بعد نحو ربع قرن.

بدأ بناء الهرم الجديد بقانون استثمار المال العربى والأجنبى عام ١٩٧٤ والذى أطلقوا عليه اسم (قانون الانفتاح)، ومن بعده جاءت قرارات إلغاء المؤسسات العامة، وإلغاء احتكار القطاع العام لتجارة الاستيراد ولقطاع المال بشقيه: البنوك وشركات التأمين.

وكان ذلك يعنى تحويل القطاع العام من قطاع قائد للاقتصاد إلى مجرد مال مستثمر، ومن قطاع يحتكر بعض الأنشطة إلى قطاع متنافس، ثم قطاع متراجع خاضع لسيف الخصخصة، وشمل ذلك فيما شمل قطاع البنوك الذى أصبح يضم نحو ستين مصرفًا. أغلبها ينتمى للقطاع الخاص والذى حاز ما يقرب من نصف الودائع والنشاط.

التحول إذن حدث على جبهتين: جبهة (القطاع العام والخاص) مع تشجيع الأخير ليكون هو الأساس فى العملية الاقتصادية، وجبهة البنوك (مصرية وأجنبية)، وبما يعنى تحرير قطاع المال إلى جوار تحرير قطاع الإنتاج.

ومن انفتاح السبعينيات إلى خطة الإصلاح الاقتصادى فى التسعينيات والتى تمت باتفاق مع صندوق النقد تم وضع سياسة التحرير: تحرير التجارة استيرادًا وتصديرًا، تحرير الأسعار، تحرير التملك، تحرير سعر العمل، وتحرير العملة والتعامل مع العالم الخارجى وربما يكون تعديل قانون النقد الأجنبى وإلغاء الرقابة على النقد علامة رئيسية على هذا الطريق فمن خلال هذا التعديل ذهبت مصر إلى أبعد ما ذهبت إليه دول عريقة فى الرأسمالية مثل بريطانيا، فسمحت بخروج رأس المال أو التحويلات الرأسمالية دون قيد، وهو ما أعطى رخصة للبنوك ولبعض رجال الأعمال لكى يأخذوا (الطريق الشرعى للهروب) إن جاز التعبير!!

تطور النظام الاقتصادى بما سمح بموقع متميز للقطاع الخاص جرى تأييده سياسيا على مدى الحقب الثلاث الأخيرة وجرت مساندته اقتصاديًا وجاءت الأرقام لتشير إلى أن القطاع الخاص قد أسهم بمقدار (٧٣) بالمائة من الناتج المحلى عام (٢٠٠٠ - ٢٠٠١) كما أسهم بثلثى حجم الاستثمار المحلى ولكن عندما اتجه للاستثمار فإنه لم يمول أكثر من (٤٧) بالمائة من مدخراته الخاصة، واعتمد على الاقتراض مصرفيًا أو من خلال السندات أو غير ذلك بنسبة (٥٣) بالمائة طبقًا لأرقام ١٩٩٦.



قامت مشروعات كبيرة إذن اعتمادًا على المدخرات العامة وقروض البنوك ولم تقم على أساس ما يمتلكه القطاع الخاص من مدخرات، ولم يكن ذلك من باب تشجيع الدولة للاستثمار الخاص فقط، ولم يكن فى حالات كثيرة نتيجة نفوذ سياسى، لكنه كان نتيجة لرباط عضوى حيث أسهم القطاع الخاص فى (٢٤) بنكًا جديدًا، وعشرين فرعًا لبنوك استثمار وأعمال أجنبية، كما أسهم فى بعض البنوك المتخصصة وكان ذلك امتدادًا لما جرى فى السبعينيات التى شهدت خمسة أنواع من التطورات:

* تطور النظام الاقتصادى والبناء الاقتصادى والعلاقات الاقتصادية الخارجية على النحو الذى أشرت إليه.
* تطور موقع القطاع الخاص.
* انتشار الرأسمالية العائلية.
* اختلاط السياسة بدوائر الأعمال.
* صاحب ذلك تطور فى أشكال الفساد وآلياته.

وكانت مجموعة (عثمان أحمد عثمان) هى الأكثر تعبيرًا عن كل ذلك. فقد انتقلت المجموعة (وليست الشركة) من قطاع المقاولات والتشييد إلى قطاعات متعددة أخرى بينها قطاع المصارف حيث دفع المهندس عثمان أحمد عثمان - رحمه الله - لإنشاء سلسلة البنوك الوطنية وبنك المهندس وبنك قناة السويس وكلها ظهرت أسماؤها فى قضية نواب القروض.

كذلك فقد قام المهندس عثمان أحمد عثمان بإنشاء شركات خاصة ملحقة بالمقاولين العرب، وتحتل بعض مواقع ومكاتب الشركة الأم وتنقل ثمرات (المقاولون العرب) لجيوب غير حكومية.

وبنفوذ خاص جرى احتلال المناصب والمواقع المختلفة، ثم حدث الصدام المكتوم بين المجموعة وجهاز الرقابة الإدارية الذى تم إنشاؤه فى الستينيات وجرى تجميده (أو إلغاؤه) بقرار من الرئيس السادات عام ١٩٨٠، واستمر التجميد لمدة عامين حين أعاد الرئيس مبارك الجهاز للحياة، وإن كان السؤال ظل معلقاً: أين ذهبت أوراق الرقابة الإدارية؟

العميل الأول

فى هذا السياق تجىء الأزمة التى نتحدث عنها، والتى تبرز الرقابة الإدارية أيضًا كأحد أطرافها حيث لعبت دورًا رئيسيًا فى الكشف عن الفساد فى عدد من البنوك وإحالة الأمر إلى القضاء.

وبطبيعة الحال فإن الرقابة الإدارية، ومثلها مباحث الأموال العامة ونيابة الأموال، مجرد أجهزة تتابع، وتطارد، وتفتح الباب للمحاسبة. ولكن وقبلها يجىء دور الأجهزة الاقتصادية بل وبعض الأجهزة السياسية أيضًا.. ويجىء السؤال: ما هو الحجم الحقيقى للمشكلة التى نحن بصددها؟.. وهل نبدأ بالحديث عن الاقتصاد غير الرسمى أو الاقتصاد الخفى الذى قدره البعض بـ(٣٢,٧) مليار جنيه فى منتصف التسعينيات، أم نبدأ من رقم أكثر تواضعًا أذاعته السلطات وهى تتحدث عن حجم الأموال المتعثرة فى البنوك؟

ولاشك أن الأرقام تتداخل فالكثير مما نتحدث عنه كمشكلة تواجه البنوك أو كأموال هاربة يدخل فيما يسمى الاقتصاد الأسود، لكن الفصل رغم ذلك ضرورى حتى لا نذهب بعيدًا عن دائرة المصارف.

وبالرجوع لمصادر عدة فإن الآراء والأرقام تتفق على الأهمية المتزايدة للقطاع الخاص وأنه أصبح العميل الأول للمصارف. وطبقًا لبيانات المركز المصرى للدراسات الاقتصادية فقد زاد نصيب الائتمان الخاص من ثلث الناتج المحلى لمصر عام (٩١ - ٩٢) إلى (٥٥) بالمائة من هذا الناتج عام (٩٦ - ٩٧). ومازال للائتمان الخاص هذه الأهمية النسبية العالية سواء بالنسبة للدخل القومى (الناتج) أو بالنسبة لجملة الاقتراض وهو ما يمثله رقم يقول أن القروض والمساهمات الرأسمالية للبنوك لحساب القطاع الخاص قد بلغت (١٦٢,٥) مليار جنيه فى يونيو عام (٢٠٠٠) وبما يعادل (٣٦٥) بالمائة مما كان متاحًا فى نفس التاريخ للحكومة والقطاع العام.



وقد استمرت هذه الأهمية النسبية العالية، فأشارت بيانات البنك المركزى المصرى إلى أن جملة الائتمان المحلى (قروض وخلافه) قد بلغت (٣٥٩) مليار جنيه فى آخر مايو ٢٠٠٢ بينها (١٦٥) مليار جنيه للقطاع الخاص فى مقابل (١٦٩) مليارا للحكومة، و(٣١,٥) مليار لقطاع الأعمال العام.

ولم يكن هذا النمو الكبير فى موقع القطاع الخاص من الائتمان المصرفى معبرًا عن نمو مماثل فى تمويل البنوك وتزويدها بالودائع حيث أشارت إحصاءات البنك المركزى أن القطاع العائلى كان الممول الرئيسى للبنوك بودائع بلغ حجمها (٢١٥,٥) مليار جنيه فى مايو ٢٠٠٢، وهو ما يعادل أربعة أضعاف ودائع القطاع الخاص تقريبًا، والذى لم تتجاوز ودائعه (٤٩,٤) مليار جنيه.

مجموع أفراد الشعب إذن يودعون أموالهم، وقطاع الأعمال الخاص هو الذى يستثمرها، ومن هنا كانت خطورة ظاهرة الديون المتعثرة، أو المشكوك فيها، أو الهاربة، وبينما أشارت البيانات المذاعة أن المشكوك فى تحصيله - أو المتعثر - هو (١٢) مليار جنيه فقط، أشارت مصادر أخرى أن الرقم (ربما بإضافة الفوائد غير المحصلة) هو ثلاثون مليار جنيه.

وأشار تقرير للسفارة الأمريكية فى القاهرة حول مناخ الاستثمار فى مصر (يوليو ٢٠٠٢) أنه بالرغم من تحسن الموقف عن عام مضى فإن القروض المتعثرة تتراوح بين (١٥) و(٢٠) بالمائة من حجم الائتمان المصرفى.

وأيًا كانت الأرقام والتى قد تختلف لأسباب متعددة من بينها طريقة الحساب وما إذا كان الحديث عن القروض أن القروض والتسهيلات وخطابات الضمان، وهى أشكال مصرفية متعددة.. وما إذا كان الحديث يتناول القروض أم القروض والفوائد والتى يعادل حجمها حجم الإقراض فى الوقت الراهن.

الأرقام تختلف لكنها وفى كل الأحوال تستوقف النظر وتستحق ما جرى من اهتمام.



محمود المراغى

..حكاية المليارات الهاربة!

ركـــود أم فـــســـاد؟!

حول أسباب الظاهرة، وإجابة لسؤال: لماذا لا تعود بعض الأموال إلى بنوكها، يأتي أكثر من تفسير:

** فـهـنـاك حـالـة الركـود التي أصـابت الأسـواق في مـصـر خـلال السنوات الـثـلاث الأخيـرة والتي كـانت تعني: زيادة المخـزون وتراجع النشـاط والأرباح وربما العـجـز عن سداد الالتزامات المالية سواء كانت للبنوك أو الضـرائب أو الجـهـات الحكوميـة.. بل وتجـاه العاملين أيضًا.

** وهناك وفي الدائرة الاقـتـصـادية ذلك التغير في أسعار الصرف والذي هبط بسعر الجنيه بنحو الثلث في عام واحد مما ضاعف تكلفة المواد المستوردة وتكلفة الإنتاج كما ضاعف مستحقات البنوك التي أعطت ائتمانًا بعملة أجنبية فلما تغيرت أسعار العملة لعملاء يعملون في السوق المحلية أصبح الجميع في موقف عجز عن السداد.

** تـضـاف لذلك مـسـارات خـاطـئـة للاستثمار ودراسات غير متأنية للسوق فقد اتجه الكثير من الاستثمار والذي تموله البنوك لسوق العقارات الذي سرعان ما واجه ركودًا في المباني فوق المتوسطة والفاخرة وفي القرى الـسـيـاحـيـة والمدن الجـديدة (تقـدر وزارة التـخطيط عـدد الشـقق المغلقـة سـواء التي تم تشطيبها أو توقفت وهي تحت التشطيب بـ ٣ ملايين شقة).



ومعنى الخـيارات الخـاطـئة للاسـتـثمار تجـمـيـد الأمـوال، بل وتآكلـهـا بـفـعل الأعـبـاء المتزايدة للتمويل والتي بلغت نحو (١٤:١٥) بالمائة كفوائد ومصروفات إدارية تتقاضاها البنوك، وهو ما اعتبره كثير من الاقتصاديين أحد أسباب الركود وانكماش الاستثمار والعجز عن سداد القروض للبنوك، وهو الموقف الذي استمر رغم تخفيض نسبي في أسعار الفائدة.

** تضاف لذلك ظاهرة تركز الإقراض ففي نهاية مارس عام ٢٠٠٠، كان هناك ثمانية عملاء (سوبر) قد حصلوا على (١٢,٤) مليار جنيه بمتوسط (١٥٥١) مليون جنيه لكل عميل، وبما يمثل حينذاك ستين بالمائة من حقوق المساهمين في جميع البنوك المصرية.

كان هناك أيضًا، وفي نفس التاريخ: (٢٨) عميلاً حصلوا على نحو (٢٦,٧) مليار جنيه وبما يعادل (١٣٥) بالمائة من حـقـوق المساهمين، وكان هناك (٣٤٣) عميلاً حصلوا على (٤٢) بالمائة من جملة التسهيلات الممنوحة للقطاع الخاص.

وبينما تُبرز الأرقام السابقة ظاهرة التركز في الإقراض فإنه يبرز أمران آخران في نفس الوقت:

الأول.. هو الطبيعة الخاصة للبنوك التي ثار الجدل حول خصخصتها، وألحت الدول المانحة في ذلك من خلال صندوق النقد الدولي أو المعونة الأمريكية أو اجتماع شرم الشيخ الذي انعقد لبحث حالة الاقتصاد المصري واحتياجاته بعد ١١ سبتمبر، والمقصود هنا بالطبيعة الخاصة أن البنوك تختلف عن منشآت صناعية أو تجارية أو زراعية تعمل برؤوس أموال أصحابها، فالبنوك هنا وعاء لمدخرات المصريين - أو مدخرات أي شعب - أكثر مما هي تعبير عن مساهمات مالية لأصحاب البنوك ومساهميها.

الأمر الثاني.. وفي سياق الاقتصاد السياسي لمصر (١٩٧٥ - ٢٠٠٢) فإن القروض الضخمة كانت آلية رئيسية لخلق طبقة رجال أعمال، بل طبقة من الأثرياء ثراء غير مسبوق حيث ظهر رقم المليار لأول مرة، وحيث تشير البيانات التي تسربت إلى الصحف أن مدينًا واحدًا (رامي لكح) قد اقترض من (١٦ بنكًا) وأن مديونيته قد بلغت ٢ مليار جنيه، بينها ١,١ مليار جنيه لبنك واحد، كذلك فقد حصل عمرو النشرتي على مئات الملايين كقروض أو بضائع تم تحويلها من البنوك واستولى عليها عندما اشترى محلات (سينسبري وقبلها إيدج) وصدر ضده ٦١ حكمًا قضائيًا مجموع أحكامها ١٨٠ سنة سجنًا.

ويصف الاقتصاديون ما حدث وبدأ تداركه أنه نوع من السفه من جانب البنوك وتصف دراسة لبنك مصر أن أسباب التعثر في سداد الديون متعددة وتشمل: نقص خبرة المصارف وغياب الإدارة المالية السليمة وعدم حساب المخاطر بشكل دقيق واستخدام القروض - وبلا رقابة - في غير الغرض المخصصة له، والتوسع غير المحسوب الناتج عن تنافس البنوك وميلها في إحدى الفترات للبحث عن عملاء ومجالات لتشغيل ما لديها من أموال مع غياب الدراسات الكافية للسوق إضافة لسبب مهم هو: سوء نية بعض العملاء.

هكذا جاءت دراسة بنك مصر بينما أشارت دراسة تقرير الاتجاهات الاستراتيجية السابق الإشارة إليه إلى الدرجة العالية من المخاطرة التي صاحبت هذه الظاهرة سواء بتركيز الإقراض - على النحو السالف - في عدد محدود من العملاء، أو تركزه في مجالات خطرة (كالتشييد في بعض السنوات)، أو بسبب حصول القطاع الخاص على ٥٣ بالمائة من قروضه بلا ضمان عيني، وقد أسفر ذلك عن تداعيات تشير إليها الدراسة فقد تآكل فائض السيولة عند البنوك، وهو الفائض الذي يمول النشاط الاقتصادي ويحركه، وفي نفس الوقت زادت شكوى رجال الأعمال من تقاعس البنوك عن إقراضهم مما زاد من مشكلة نقص السيولة، وقد اضطر كل ذلك بعض البنوك للاقتراض بسعر فائدة يزيد على سعر الإقراض للعملاء كما اضطرها للجوء للبنك المركزي مع محاولة خلق أوعية ادخارية جديدة تجذب أموالاً أكثر.

الأخطر، وهو ما يفتح باب الحديث عن الفساد مخالفة البنوك لقرارات البنك المركزي والتي تقضي بألا يزيد تمويل العميل الواحد عما يعادل ٣٠ بالمائة من القاعدة الرأسمالية للبنك، وهو حد تصوره القانون ٢٥ بالمائة فقط، ثم زاده البنك المركزي وتجاوزت عنه بعض البنوك بالنسبة لبعض العملاء).

و.. بينما كان كبار العملاء ينهلون من البنوك، فقد اتجهوا أيضًا للاستدانة من الأسواق، وعرفت مصر السندات التي تصدرها شركات خاصة بعد أن كانت السندات حكومية ومضمونة، وكان غريبًا وفي هذا المناخ أن يصدر قرار من وزير الاقتصاد يسمح لشركات القطاع الخاص بقرار من هيئة سوق المال بطرح سندات تتجاوز قيمتها صافي أصول الشركة، حتى وإن لم تتمتع بالتصنيف الائتماني (وهو القرار الذي استفادت منه مجموعة شركات لكح التي أصدرت سندات بموافقة هيئة سوق المال وبضمان أحد البنوك الذي تورط في الالتزام أمام مشتري السندات بعد أن تعثرت مجموعة لكح).

* هل هو الفساد إذن؟

* هل هي الفوضى في السوق المصرفية أو قلة الخبرة؟

* هل هو زواج المال والسياسة؟

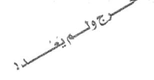
* هل هو استيلاء رجال الأعمال على البنوك وعضوية مجالس إداراتها؟

قضية نواب القروض تصلح حالة للدراسة، وإن كان مجموع ما تم إهداره بواسطة ٣٢ متهمًا يقل عن المليار.. أي أنه يقل عن مديونية عميل واحد من العملاء «السوبر»!.. كذلك فإن القضية لم تكن الأخيرة، ففي الوقت الذي أذيع فيه الحكم، أو بعده بأسابيع تم رفع الحصانة البرلمانية عن رئيس بنك آخر يشغل في الوقت نفسه موقع الرقيب على السياسة الاقتصادية للحكومة بحكم موقعه كرئيس للجنة الاقتصادية في مجلس الشعب، ثم بدأ التحقيق معه في نفس التهم: تسهيل الاستيلاء على أموال عامة مصرفية!

[٤]

حكـمـت المحكمـــــة!

في اليوم الأخير من يوليو ٢٠٠٢ وفي العاشرة صباحًا وفي قاعة محكمة أمن الدولة العليا بوسط القاهرة دخل إلى قفص الاتهام ١٩ متهمًا وسط حراسة مشددة، وغاب عن مسرح الحدث ١٣ متهمًا آخرون، أحدهم بسبب الوفاة، وأحدهم لوجوده بالمستشفى، أما الآخرون فقد تغيبوا بسبب الهرب وبما رفع عدد الهاربين في قضية نواب القروض من أربعة عند المحاكمة الأولى إلى ١١ عند المحاكمة الثانية لنفس الأشخاص.



غابت عن الحضور المتهمة الأولى المتواجدة في باريس والتي تعذر إحضارها (علية العيوطي نائب رئيس بنك النيل) وغاب والدها رئيس البنك (عيسى العيوطي) - الموجود حينذاك بالمستشفى - كما غابت منى العيوطي شقيقة الأولى وابنة الثاني، وغاب معهم محمود عزام (زوج الأولى). الأسرة إذن - باستثناء المصرفي العجوز الذي طالما عارض تصرفات ابنته - استطاعت الفرار قبل أن يصدر الحكم النهائي، ولكن في القفص كان يقف وزير سابق هو توفيق عبده إسماعيل الذي كان في بداية تداول القضية مسئولاً عن ميزانية مصر كـرئيس للجنة الخطة والموازنة بمجلس الشعب، وهو الرجل الذي أدلى بحديث صحفي من وراء القضبان جرى نشره عام ٩٩، وأكد فيه أنه لا يود الهرب لأنها ليست شيمته، ولأنه بريء مما ينسبون، وحين سأله الصحفي حينذاك عن أخطائه التي يعترف بها ذكر ثلاثة أخطاء هي: أنه لم يخطر البنك المركزي بما كان ينبغي إخطاره به وأن بعض مستندات البنك قد ضاعت أثناء عملية نقل أحد المقرات وأنه قد وافق على منح بعض أعضاء مجلس إدارة البنك (وهو بنك الدقهلية) قروضًا رغم أن القانون يمنع ذلك.



اعترف الوزير وضابط المدرعات والمصرفي وعضو مجلس الشعب السابق بثلاث تهم، لكن النيابة كانت قد أسندت له تهمًا بالجملة وأقرت محكمة أمن الدولة في حكمها الأول عام ٢٠٠٠ أن توفيق إسماعيل مدان في ٢٥ تصرفًا، هكذا دخل إلى القفص في المرة الثانية ليستمع للحكم النهائي: أشغال شاقة لمدة خمسة عشر عامًا رغم بلوغه سن السبعين، وإجرائه لجراحات سرطان عدة مرات، ورغم وثوقه من البراءة!

كان معه في القفص أيضًا: اثنان من أعضاء مجلس الشعب (والثالث هارب)، وبذلك يكون النواب (بمن فيهم توفيق عبده إسماعيل) أربعة مما جعل الصحافة تتداول القضية تحت عنوان (قضية نواب القروض) والتي شهدت طورًا جديدًا لها حين وقع رئيس مجلس الشعب على قرار رفع الحصانة عن النواب أثناء وجوده في مصيف مارينا فدخلت القضية بذلك مسارًا جديدًا خلط السياسة بالمال وتمثيل الأمة بالفساد.

وفي يوم ٣١ يوليو ٢٠٠٢ وحين جرى إغلاق الملف كانت قد مضت سبعة أعوام على تداول القضية منذ أن رفعت الرقابة الإدارية مذكرتها للنيابة ولرئيس الوزراء وللبنك المركزي، وكانت سبع دوائر قضائية قد تداولت الدعوى على مدى خمس سنوات في محاولة لحل ألغازها وتشابكاتها، وكان حكمان قد صدرا في القضية، الأول في يونيو عام ٢٠٠٠ والثاني - وبإجراءات نقض وإعادة نظر في الدعوى - كان في ذلك اليوم المشهود: ٣١ يوليو ٢٠٠٢، حين أدين ٣١ متهمًا وقضت المحكمة بأحكام سجن يصل مجموعها إلى ٣٨٢ عامًا كما قضت بغرامة مقدارها ٨٨٧,٣ مليون جنيه، مع رد مبلغ مماثل لبنوك أربعة هي: بنك النيل، بنك الدقهلية التجاري، بنك المهندس، بنك قناة السويس.

قبل هذا التاريخ وبعده كان قد أثير لغط وثار جدال حول حقيقة التهم المنسوبة لنفر من علية القوم، فأثار البعض - ومنهم توفيق عبده إسماعيل في حواره الصحفي - أن مسألة الضمانات اللازمة للإقراض والتي ضمنتها

النيابة اتهاماتها ليست ملزمة، فقرار الائتمان قرار تقديري للبنك ولا يهم وجود ضمان عيني، لكن المهم الثقة في رغبة العميل وقدرته على السداد وجديته. وأثير لغط حول إجراء رفع الحصانة (وإن كان ذلك إجراء شكليًا) كما أثير السؤال: كيف يؤدي المتهمون ما عليهم من قروض وتسهيلات ائتمانية ثم تتم إدانتهم رغم ذلك؟.. وهل صحيح أنهم أعادوا الأموال إلى مكانها.

ولأن الحكم هو (عنوان الحقيقة) كما يقولون فليس أمامنا إلا أن نتوقف أمام الحكمين الصادرين بحق المتهمين، فماذا نجد عندما نقرأ الأوراق والتي بلغ عددها في الحكم الأول وحده ٣٦٠ صفحة ممهورة بتوقيع رئيس الدائرة؟

أوجزت المحكمة في الحكمين التهم المنسوبة، وردت - في الحكم الأخير - على ما يثار وأبرزه حقيقة سداد المتهمين لمديونياتهم والذي نفته المحكمة استنادًا لفحص البنك المركزي ناسخة أقوال رؤساء البنوك الذين شهدوا لصالح المتهمين واتهمتهم المحكمة بالكذب!



وقد بدأت الدعوى - كالمعتاد - بعريضة من النيابة تشرح فيها ما انتهت إليه تحقيقاتها والتي استمرت نحو عامين ووضعت العريضة في الصدر أسماء أربعة يتولون مناصب مرموقة في بنك النيل، وهم بالترتيب: نائبة رئيس مجلس الإدارة، ورئيس المجلس، ومساعده، ومدير فرع القاهرة، ذلك أنهم - وكما تقول العريضة «قد أضروا عمدًا بأموال ومصالح بنك النيل الخاضع لإشراف البنك المركزي المصري بأن أصدروا تعهدات بنكية قيمتها ١٣١,٧٣٩ مليون جنيه ومنحوا تسهيلات ائتمانية قيمتها ٢١٤,٥٧٦ مليون لعدد من الشركات (أوردت أسماؤها) إضافة لمحمود عزام (زوج نائبة رئيس مجلس الإدارة) بصفته الشخصية، ومنى عيسى العيوطي (شقيقة نائبة رئيس المجلس)، وخالد محمد حامد محمود (عضو مجلس الشعب ونجل وزير سابق).. و.. ذلك:

* دون إعداد دراسات كافية.
* أو وضع حدود ائتمانية يتم التعامل من خلالها.
* أو وضع برامج للسداد.
* ودون إجراء قيود محاسبية لإثبات التعهدات المنوه عنها بسجلات البنك أو دون استيفاء الضمانات اللازمة.
* ودون العرض على مجلس الإدارة.
* ودون التوقيع على مستندات مديونية البعض!
* وإجراء تسويات دون تفويض من مجلس الإدارة.

كانت هذه هي التهم الموجهة للأربعة الرئيسيين تم تتابعت الاتهامات التي حققتها الدوائر القضائية المختلفة، وانتهت قضاء بالحكم الأخير: ٣١ يوليو عام٢٠٠٢، هكذا كانت البداية والتي يبدو منها أمران:

الأول: أن جملة من التصرفات قد تمت دون اعتبار لقانون أو نظام أو حرمة لمال عام أو قواعد مصرفية، وأن بعض هذه التصرفات قد صدرت من أشخاص تربطهم صلة القربى إضافة لصلة العمل.

الأمر الثاني: وبقراءة أكثر للأوراق فإن جبهتين تبرزان على الفور: جبهة البنوك وجبهة المستفيدين، ونختار هنا كلمة «جبهة» لأن أسماء الشركات وأصحابها تتكرر عند كل بنك وكان هناك اتفاقًا لتوزيع الأموال، ولكن من منافذ مصرفية مختلفة، وهي منافذ لها صفة العمومية بحكم أنها تتعامل في أموال وودائع الآخرين أكثر مما تتعامل في أموال مملوكة للمساهمين في هذه البنوك.. أيضًا بحكم أن بعض المساهمات في رأس المال كانت من هيئة الأوقاف (بنك فيصل) وشركة قطاع عام هي مصر للتأمين (بنك قناة السويس) ونقابة المهندسين (بنك المهندس).

لم يكن المتهمون إذن - والذين تمت إدانتهم بعد ذلك - يتعاملون في أموال خاصة بحكم ملكيتهم أو بحكم مشاركتهم في الإدارة وإنما كانوا يتعاملون في أموال مملوكة للشعب المصري (ودائع ومدخرات).

وربما نضيف ما أبرزته الأوراق حول حقيقة الكيانات الاقتصادية التي تم الاقتراض أو الحصول على تسهيلات منها، فالبعض منها - وكما قالت المحكمة - مجرد شركات وهمية جرى إنشاؤها بغرض الاقتراض، كما أن بعضًا منها تم إنشاؤه بشهادات مزيفة من بنك الدقهلية، وهي شهادات تشير - على غير الحقيقة - بأنه قد تم إيداع رأس المال!

وفي التفاصيل وكما أشار الحكم الأول، فقد كانت هناك قروض وتسهيلات بلا ضمانات حقيقية، وكانت هناك شركات برأس مال غير موجود، وكانت هناك - وعلى سبيل المثال - شركة تأسست في نهاية ١٩٩٢ كشركة توصية برأس مال قدره ٩٠ ألف جنيه، لكنها استطاعت أن تقترض من بنك الدقهلية ٤,٦ مليون جنيه حتى سبتمبر ٩٥، كما سمح لها البنك بتسهيلات قدرها ٣ ملايين دولار.. أي أنه لا تناسب بين رأس المال المملوك للشركة وما منحه لها هذا البنك أو ذاك!

أيضًا وفي التفاصيل أن علية العيوطي (نائب رئيس مجلس إدارة بنك النيل) تزوجت محمود عبد الفتاح عزام في مايو٩٢ وكان هناك (حظر تعامل) معه من بنك فيصل لكنها - ورغم ذلك - أصدرت تعهدات بنكية من البنك الذي ترأسه لشركات كان يمتلك نصفها ويديرها، وكانت قيمة التعهدات تقترب من الثمانين مليون جنيه، وبما يتجاوز القاعدة المصرفية التي تقضي ألا يأخذ عميل واحد أكثر من ٣٠ بالمائة من القاعدة الرأسمالية للبنك!

وهكذا تكثر التفاصيل التي تصفها المحكمة بأنها تشير لعلاقات (عنكبوتية) يصعب الوصول فيها للحقيقة، وهي وقائع تمت في تاريخ سابق على ٣٠ سبتمبر ١٩٩٥، حين تحركت الرقابة الإدارية، وحين كانت هناك تعليمات من البنك المركزي باتباع قواعد (بازل) الدولية التي تربط بين الامتلاء المالي للبنك وحجم ما يخصصه من قروض، وهي القواعد التي ألزم بها البنك المركزي المصري المصارف المصرية اعتبارًا من يناير ١٩٩١.

(راجعت المحكمة اجتماع محافظي البنوك المركزية في العالم والذي تم في مدينة بازل، كما راجعت ما انتهت له الاجتماعات من تنبيه لمواجهة المخاطر الائتمانية وتقرير لجنة بازل الذي اعتبر مصر ضمن مجموعة الدول ذات المخاطر المصرفية العالية).

تمت الجرائم إذن في ظل تحذير من البنك المركزي، وقواعد تتسم ببعض الصرامة، وهو ماحدا بالدائرة القضائية الأخيرة التي أعادت النظر في القضية بناء على حكم من محكمة النقض، حدا بها لأن تقول:

* **«إن القضية ليست قضية نواب لأن هؤلاء الأشخاص من بين المتهمين الذين دخلوا مجلس الشعب في غفلة من الزمن لفظهم المجلس على الفور بعد أن تيقن من أنهم ليسوا نوابًا للشعب وإنما هم سارقون لأمواله».**
* **«كما أنها ليست قضية قروض لأن ما ارتكبه المتهمون لا يمكن أن يوصف بأنه اقتراض بل هو نهب من أموال البنوك».**
* **«والمحكمة إذ تأسف لأن النصوص التشريعية لم تمكنها من أن تحيل المتهمين إلى المفتي، لأنهم حقًا يجب أن يحالوا إليه جزاء أفعالهم والتي كانت بمثابة اغتيال لأموال هذا الوطن.. المحكمة إذ تأسف لذلك فإنها تطالب بتعديل الحد الأقصى لعقوبة هذه الجرائم لتصل إلى الإعدام!»**



وفي الأسباب قالت المحكمة أنها قد تأكدت أن المتهمين قد ارتكبوا جنايات تسهيل الاستيلاء على أموال البنوك وعلى تسهيلات بنكية بدون وجه حق وإضافة قيمة هذه التسهيلات لشركاتهم.

وأضافت المحكمة أن المتهمين قد أضروا أيضًا بأموال بنكي فيصل وقناة السويس (إلى جوار النيل، والدقهلية، والمهندس)، وأن ادعاءهم السداد كان مجرد حيلة لتعطيل محاكمتهم.

(و.. كذبت المحكمة شهادة رؤساء البنوك حول سداد القروض، وقالت إنها أقوال مصطنعة لإنقاذ المتهمين).

وتقول المحكمة إن المتهمين لم يتعثروا في السداد ولكنهم تفننوا في سرقة الأموال!

وما لم تتوقف عنده المحكمة وكشفت عنه القضية إضافة لقضايا أخرى: دور المرآة الذي تصاعد في العديد من قصص الفساد طوال الخمسة عشر عامًا الماضية.

لم يكن حكم قضية نواب القروض مفاجئًا، ولم تكن الأموال التي تم الاستيلاء عليها بواسطة الجناة هي الأكثر فيما يسمى (الديون المشكوك فيها) بل إن رجل أعمال واحدًا من الحجم السوبر ينسخ كل ذلك ويقدم لنا أرقامًا مضاعفة وإن لم تقدم حيثيات مفضوحة كتلك التي شاهدنا خلال تحقيق ومحاكمات استمرت سبع سنوات.

الفارق: هو ما تم - أو لن يتم - تحقيقه.

والهاجس: لماذا يحاكم البعض وتجري المصالحة - وفقًا لمبادرة حكومية - مع البعض.

وربما ترتعش يد العدالة وهي بين نارين: نار القانون والعدل الإلهي.. ونار المصلحة في استرداد ما يمكن استرداده من أموال هاربة.

ومع ذلك تظل قضية نواب القروض ذات دلالات تفسر كل ما يجري وتصل بنا إلى ما بدأنا به من قصة الاقتصاد السياسي للأزمة منذ السبعينيات وحتى الآن.

والدلالات واضحة وتقول:

أولاً: إن البنوك غير المنشآت الاقتصادية وأموالها ليست ملك أصحابها في معظم الأحوال ومن ثم فإن إدارتها والرقابة عليها وتحديد مصيرها لابد أن يكون مختلفًا.

ونفس النقطة تقودنا للتعرف على حقيقة أن القطاع الخاص المصرفي كان أكثر فسادًا، أو أنه لم يكن الأفضل مقارنة بمصارف القطاع العام التي أعطت في قضايا أخرى، ولكن بنفوذ سياسي أو حماسي لانفتاح واستثمار زائفين.

والسؤال بعد ذلك: هل تمضي مصر فيما التزمت به أمام الدائنين والمانحين الدوليين من (خصخصة) أحد البنوك التجارية الكبرى الأربعة أم توقف هذه المحاولات بعد أن انكشف الغطاء عن خطورة القطاع الخاص في مجال المال والائتمان.

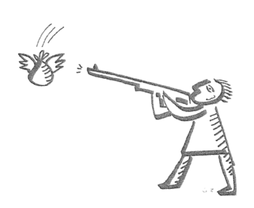
ثانيًا.. وكما يتضح من قضية نواب القروض وغيرها من ديون متعثرة فإن قضية نفوذ رجال الأعمال باتت مطروحة، كما أن قضية اختلاط السلطة بالمال باتت خطرًا يهدد الجميع.

في الشارع المصري، ساءت سمعة الكلمة (رجل أعمال) حتى طالبت بعض منظمات التجارة بألا تستخدم الكلمة، واستجابت وزارة الداخلية فمنعت مصلحة الهجرة



لم يكن هذا النمو الكبير في موقع القطاع الخاص من الائتمان المصرفي معبرًا عن نمو مماثل في تمويل البنوك وتزويدها بالودائع حيث أشارت إحصاءات البنك المركزي أن القطاع العائلي كان الممول الرئيسي للبنوك بودائع بلغ حجمها (٢١٥,٥) مليار جنيه في مايو ٢٠٠٢، وهو ما يعادل أربعة أضعاف ودائع القطاع الخاص تقريبًا





والجوازات ومصلحة السجل المدنى من استخدام كلمة (رجل أعمال) وطلبت النص فى جوازات السفر والبطاقات المدنية على نوع العمل صراحة (تاجر - صاحب مصنع - مقاول.. إلخ).

وفى الشارع المصرى، كان معلومًا أن خلطًا قد حدث بين دوائر الأعمال ودوائر السياسة، وهو خلط بدأ فى السبعينيات كما أشرت قبل ذلك، ثم تصاعد فى إحدى الحكومات التى كان يدعو رئيسها رجال الأعمال لحضور بعض الاجتماعات الرسمية لمجلس الوزراء، وامتد ذلك لسفر رجال الأعمال فى وفود رسمية، ثم أصبحت عضوية المشتغلين بالأعمال فى مجلسى الشعب والشورى والحزب الحاكم والمجالس المحلية رخصة من أجل كسب أكثر.

الخطير أن تنظر بعض الجهات الحكومية لرجال الأعمال نظرة خاصة تمنحهم من خلالها امتيازات وموافقات نظير تبرعهم لإنشاء طريق أو إصلاح مدرسة أو تأجير بلاج، وقد تصرف الكثير من المحافظين على هذا النحو بحثًا عن تمويل لبعض مشروعاتهم، ومن منطلق الحاجة المالية الحكومية.

والخطير أن تصبح نسبة كبيرة من جهاز التشريع (مجلس الشعب) من رجال الأعمال وأن يتم إسناد اللجان ذات الطابع الاقتصادى لهم، فيكون رئيس لجنة الخطة والموازنة السابق متهمًا فى قضية نواب القروض وهو الذى أنيط به التصديق على ميزانية الحكومة ومحاسبتها، ويكون رئيس اللجنة الاقتصادية فى الدورة التالية رئيسًا لبنك ومتهمًا فى قضية وتحت التحقيق، ويكون ثالث رؤساء اللجان أحد كبار المدينين للبنوك.

وفى خلفية المسرح يجرى الحديث عن الملايين التى ينفقها رجال الأعمال للحصول على موقع سياسى.. مباشرة بعضوية مجلس الشعب أو بصفة غير مباشرة حين يمولون انتخابات الآخرين.

إنه الفساد السياسى الذى دعا قاضى «نواب القروض» لأن يقول إن المتهمين قد ظنوا أنهم «فوق القانون» وأن «مستندات مزورة وضمانات وهمية بمبالغ ضخمة قد صدرت مستغلين تمتع بعضهم من أعضاء مجلس الشعب السابقين بحصانتهم البرلمانية».

ثالثًا: تبرز القضية سيطرة الرأسمالية العائلية فى مصر وهى سمة غالبة بصرف النظر عن الفساد وقضايا البنوك، لكنها سمة تمنع انفتاح الاقتصاد المصرى كما تحجب فرصة أن تكون البورصة أو أن تكون الشركات

المساهمة على سبيل المثال وعاء لجذب المستثمرين.

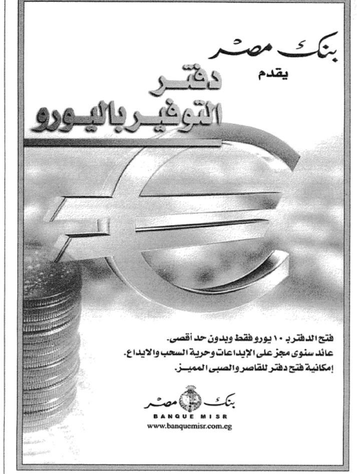


(العائلية) منتشرة فى مصر، لكنها - وفى قضية نواب القروض - كانت معول فساد.. فرأس القضية ذو تشابكات عائلية واضحة ومدانة، والشركة التى أشرنا إليها والتى بدأت بـ ٩٠ ألف جنيه واستدانت الملايين هى شركة عائلية بين المتهم العشرين (إحسان مصطفى دياب) وزوجته والأخوين (عجلان) لهما باع فيما ثبت من اتهامات، وقد قام أحدهما بتعيين نفسه عضوًا بمجلس إدارة بنك الدقهلية، وعندما هوجم على هذا التعيين باعتبار أنه مخالف لنص المادة ٣٩ مكرر من القانون رقم ١٦٣ لعام ٥٧ أتى بوالدته التى تدعى أمينة على الفار وحلت بدلاً منه فى عضوية مجلس إدارة البنك.

رابعًا: ولو أن العدالة لم تكن بطيئة ولو أن التحقيق لم يستغرق سبع سنوات هل كان الفساد المصرفى قد استشرى؟ ولو أن كفاءة القرار المصرفى عالية، هل كان التسيب يستمر؟ أم أن رجال السياسة كانوا أقوى من رجال البنوك، حتى أن بعض القروض كانت تتم بالتليفون أو عشية هروب أحدهم للخارج كما تشير بعض التحقيقات أيضًا، هل لعب ازدواج الجنسية دورًا فى فرار بعض كبار المدينين إلى الخارج، فكان لهم الوطن الآخر مستقرًا آمنًا؟

لقد أخذ من أخذ، وبالمليارات، ولمشروعات غير مرشدة وبضمانات قال عنها أعضاء مجلس الشعب عند نظر قضية الأراضى بالمجلس أنها وهمية.. حدث كل ذلك وظل الفاسدون فى القمة، أو على مقاهى (الشانزليزيه)، وبجوار اللاعبين بالمليارات بدت أزمة الصغار مرتين.. مرة بأنهم عاجزون عن التعامل مع البنوك لأن شيكًا بألف جنيه يحصل عليه البنك عن طريق الحبس ومن خلال ضمانات مضاعفة.. ومرة لأنهم يرون الفساد فى الأدوار العليا بأرقام فلكية وهم عاجزون عن أن يفعلوا شيئًا، فلا مال لديهم ولا صوت فى مجلس الشعب!

ويبقى السؤال: ما علاقة كل ذلك بمناخ وحجم التنمية والاستثمار فى مصر؟.. ومن أين يبدأ الإصلاح من دائرة السياسة أم من دائرة الاقتصاد؟.. من قرار وقانون وتقرير يصدره مجلس الشعب.. أم من جهاز فنى يحرس أموال البنوك، أموال الناس؟ ■





الطريق إلى غزو العراق وانتهاك القانون الدولي



مايكل بايرز

> شعر الرئيس الأمريكي بقدرته على المطالبة بحق موسع لاتخاذ إجراء إجهاضي، لأن الدول الأخرى لا تملك في الوقت الراهن القدرة على الانتقام. وما لا يدركه بوش هو أن تلك الإجراءات سوف تشجع الدول الأخرى على امتلاك نفس الأسلحة التي يدعي هو أنه يبغضها

في يونيو الماضي، وفي مستهل كلمة ألقاها في كلية ويست بوينت العسكرية، قال جورج دابليو بوش: «لا بد أن ننقل المعركة إلى العدو، ونربك خططه، ونواجه أسوأ الأخطار قبل ظهورها»، معلنًا بذلك سياسة جديدة موسعة للعمل العسكري الإجهاضي. وحيا الخريجون الإعلان بتصفيق حماسي، فكانوا بذلك لا يعلنون عن وطنيتهم وحسب، بل كذلك عن نقص ما في الوعي التاريخي.

ففي عام ١٨٣٧ كان البريطانيون يسحقون تمردًا في كندا العليا. وفشلت الولايات المتحدة، التي لم تكن على استعداد لمعاداة قوة عظمى بدعمها المباشر للمتمردين، في منع تشكيل قوات الميليشيا الخاصة. واستخدم المتطوعون باخرة اسمها «كارولين» لنقل السلاح والرجال إلى جزيرة على الجانب الكندي من نهر نياجرا. ورد البريطانيون بشن غارة ليلية. وبعد استيلائهم على الباخرة أثناء رسوها في فورت شلوسر بنيويورك، أضرموا فيها النار ودفعوا بها من فوق شلالات نياجرا.

أثار الحدث استياء في واشنطن. فبعد أن أحرق البريطانيون البيت الأبيض والكابيتول عام ١٨١٤، هاهم يتدخلون ثانية في الأراضي الأمريكية. وبلغ التمثيل الدبلوماسي مداه في تبادل الرسائل بين اللورد أشبرتون وزير المفاوضات الخاص ودانييل ويبستر وزير الخارجية الأمريكي. واتفق الاثنان على أن مثل تلك الغارات يمكن تبريرها فقط إذا كانت هناك «ضرورة عاجلة وشديدة للدفاع عن النفس، بحيث لا تترك خيارًا لأية وسيلة أخرى، ولا تتيح لحظة للتروي» وما لم يقع أي شيء «غير منطقي أو زائد عن الحد».

وحتى وقت قضية «كارولين» كان الدفاع عن النفس تبريرًا سياسيًا لما كان أعمالاً حربية عادية من المنظور القانوني. وكان القانون الدولي الوضعي في القرن التاسع عشر يرفض تمييز القانون الطبيعي بين الحرب العادلة والحرب غير العادلة. ولم يكن العدوان العسكري يخضع لأي من النظم وكان الغزو يعطي الحق في السيطرة على الأرض، وهو ما أوضحه استيلاء بريطانيا على جزر الفوكلاند عام ١٩٣٣، ولم تمنع قضية «كارولين» العدوان، ولكنها أوجدت تمييزًا قانونيًا بين الحرب والدفاع عن النفس. فبما أن العمل الذي يجري التصدي له لم يكن في حد ذاته عملاً من أعمال الحرب، فلا بد من حفظ السلام، وهي مسألة على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للدول الضعيفة نسبيًا، كما كانت الولايات المتحدة في ذلك العهد.

أصبحت معايير «كارولين» الخاصة بالضرورة والتناسب مقبولة على نطاق واسع باعتبارها قانونًا دوليًا متواضعًا عليه؛ وهو مجموعة من القواعد غير المكتوبة صيغت بناء على سلوك الدول وآرائها. ولكن الأمر احتاج إلى قرن آخر وإلى الحرب العالمية الأولى كي يقتنع الساسة بضرورة فرض قيود على العدوان العسكري. وكان أول مسعى في عام ١٩١٩ حين أُقر ميثاق عصبة الأمم في فرساي. وطبقًا لما ينص عليه الميثاق يمكن لمجلس عصبة الأمم إصدار توصيات للدول المعرضة لخطر الدخول في حرب. إلا أنه في حال عدم توصل المجلس إلى اتفاق يكون للأطراف المتنازعة حرية اتخاذ الإجراء الذي تعتبره «ضروريًا للحفاظ على الحق والعدل». وكانت العصبة تفتقر كذلك إلى القدرة على فرض القرارات، بينما اختفى أي أمل في تنسيقها لفرض الإجراء الذي يتخذه أعضاؤها حين رفض مجلس الشيوخ الأمريكي الميثاق عام ١٩٢٠.

حظرت معاهدة كيلوج - برياند (الأول وزير خارجية أمريكا والثاني وزير خارجية فرنسا) في ١٩٢٨ «اللجوء للحرب كحل للخلافات الدولية». واستثنت المعاهدة التي أقرتها في النهاية ٦٢ دولة الدفاع عن النفس، إلا أنها لم تضع تعريفًا له؛ وكانت نتيجة ذلك أن المعايير المتواضع عليها التي أوجدتها قضية «كارولين» ظلت الأسس القانونية الوحيدة لاستخدام القوة في الشئون الدولية. ولأن المعاهدة كانت قوية من حيث المبدأ، بينما تفتقر إلى آلية تنفيذ، فقد كان أثرها العملي ضئيلاً. وتحايلت بعض الدول عليها عن طريق تجنب إعلان الحرب بشكل رسمي.

وفي عام ١٩٤٥ طالب ميثاق الأمم المتحدة كل الدول بـ«الامتناع ... عن التهديد باستعمال القوة». وبذلك وسَّع الحظر المفروض على الحرب ليشمل الصراعات غير المعلنة. والمهم هو أن الميثاق نص على آلية للتنفيذ. ومُنح مجلس الأمن - الذي يضم ١١ عضوًا (١٥ الآن) - سلطة تحديد «وجود أي تهديد للسلم، أو انتهاك للسلم، أو عمل عدواني»، وفرض العقوبات، و«تنفيذ ذلك بواسطة القوات الجوية أو البحرية أو الجوية حسبما تقتضي الضرورة». وكانت تلك لحظة مهمة في الشئون الدولية؛ فقد تحول العالم الفوضوي الخاص بالاعتماد على النفس والتحالفات المؤقتة إلى نظام ناشئ للمراقبة.

ولم يكن واضعو الميثاق سُذَّج. فاعترافًا منهم بأن الأمم المتحدة قد تتعرض للخطر إذا تعرضت الدول القوية لتهديد من عمل جماعي، منحوا الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن حق النقض (الفيتو) على إجراءاتها لبريطانيا والصين وفرنسا والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. ولعلمهم بأن المجلس قد لا يرد فورًا على أي عمل من أعمال العدوان، فقد ضمَّ الميثاق استثناء للدفاع عن النفس. إلا أنه أُدخلت ثلاثة قيود جديدة بالإضافة إلى الضرورة والتناسب، وهي أن أية دولة يمكنها ممارسة الدفاع عن النفس فقط إذا تعرضت لـ«هجوم مسلح»، وأنه لا بد من إبلاغ مجلس الأمن في الحال بأعمال الدفاع عن النفس، وأن حق الرد ينتهي بمجرد اتخاذ مجلس الأمن لإجراء ما.

ويبطل شرط «الهجوم المسلح» الحق في اتخاذ أي إجراء استباقي. واعترافًا بهذا، تمتنع معظم الدول منذ عام ١٩٤٥ عن المطالبة بحقها في الدفاع الإجهاضي عن النفس. وبررت إسرائيل الضربات التي بدأتها في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ على أساس أن إغلاق مصر لمضايق تيران كان عملاً مسبقًا للعدوان. وبررت الولايات المتحدة الحصار الذي فرضته على كوبا عام ١٩٦٢ بأنه حفظ للسلام الإقليمي، كما بررت إسقاطها لطائرة الإيرباص الإيرانية عام ١٩٨٨ بأنه رد على هجوم متواصل. ولم يكن الرأي الدولي بشأن هذا الأمر في يوم من الأيام أوضح مما كان عليه حين دمرت إسرائيل المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١، حيث زعمت أنه دفاع إجهاضي عن النفس. ووقتها قالت رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر: «لا يمكن تبرير الهجوم المسلح في مثل هذه الظروف. إنه يمثل خرقًا خطيرًا للقانون الدولي». ووافق مجلس الأمن بالإجماع على قرار يدين الإجراء الإسرائيلي باعتباره غير مشروع؛ وتلك إدانة قوية في الواقع، وخاصة أن الولايات المتحدة شاركت فيه.

وفي سياق الحرب الباردة، كان فهم الدفاع الإجهاضي عن النفس سهلاً. ذلك أنه حتى أكثر الزعماء تشددًا كانوا يعارضون الموافقة على الحق في اتخاذ إجراء إجهاضي، بينما الدولتان المتنازعتان الرئيسيتان في العالم لديهما غواصات مزودة بصواريخ نووية لتحاشي أي هجوم مباغت. وفي الوقت الراهن، يبدو الموقف كما يُرى من المكتب البيضاوي مختلفًا تمام الاختلاف. فقد أصبحت روسيا حليفًا، وليس هناك عدو محتمل آخر لديه صواريخ نووية تحملها الغواصات، كما أنه بُدئ بالفعل في بناء نظام صواريخ دفاعي لصد الهجمات المحدودة. ولا يشعر الرئيس الحالي أن احتمال وقوع معركة فاصلة كبرى يردعه.

وغالبًا ما تحدد الاعتبارات الداخلية سياسة الولايات المتحدة الخارجية. ولذلك ليس مفاجئًا أن يلجأ الرئيس إلى اتخاذ إجراء إجهاضي في الخارج كوسيلة لتحسين أجندته السياسية في الداخل. والأولوية القصوى في الداخل هي السيطرة على عملية التصديق الخاصة بالقضاة الفدراليين الذين يقومون بدور شديد القوة في السياسة الأمريكية؛ وهو ما يدل عليه شَغْل بوش للبيت الأبيض. وسوف يتيح الأداء الجيد للجمهوريين في انتخابات التجديد النصفي التي تجري في شهر نوفمبر للرئيس فرصة تغيير النظام القضائي الأمريكي بكامله نحو اليمين بصورة كبيرة ودائمة إلى حد ما. وقد أدت ثماني سنوات من انقطاع السبل بين البيت الأبيض ومجلس الشيوخ إلى وجود ثغرات عديدة في المحاكم الفدرالية ومحاكم الاستئناف، بينما لا يحتمل أن يستمر وجود العديد من القضاة المحافظين المسنين أطول من ذلك. كما أن الرسوم المفروضة على الصلب والأخشاب، والدعم الزراعي الضخم، والدعم القوي لأريئيل شارون موجهة جميعها إلى الحفاظ على تأييد حلفاء بوش في ولايات فلوريدا وأوهايو والغرب الأوسط المذبذبة، مع عدم الاهتمام كثيرًا بالعواقب الدولية. ولكن حتى في هذه الحالة لا تعد التوقعات طيبة. فالاقتصاد آخذ في الضعف منذ انتخاب بوش ولا يعرف أحد على وجه الدقة مقدار انتشار الفساد في إنرون وورلد كوم وزيروكس الذي ساعده أرثر أندرسن ودعمه. بل إن هناك شكوكًا في أنه كان من الممكن منع الهجمات التي وقعت في الحادي عشر من سبتمبر. يضاف إلى ذلك أنه حتى في الظروف العادية كانت الانتخابات التكميلية في الغالب ضد الحزب الذي يسيطر على البيت الأبيض، وقد تبدو التوقعات الجمهورية مشكوكًا فيها بعض الشيء.

ولكن النزعة الوطنية قد تكون هي الملجأ؛ فقد يثير الإجراء العسكري الكبير قدرًا كبيرًا من التأييد عند صناديق الاقتراع، وخاصة في البداية. ولسوء الحظ أن القاعدة تبعثرت في قرى أفغانستان وباكستان، مما حدا بالولايات المتحدة إلى القيام بسلسلة من العمليات الصغيرة التي تتسم بالفوضى التي لم تظهر بشكل جيد على شاشات التلفزيون. والحاجة إلى المزيد من الأهداف الكبيرة هي التي أدت إلى التركيز الجديد والمبالغ فيه بعض الشيء على الأسلحة البيولوجية والكيماوية والنووية. ويقدَّم استخدام صدام حسين للغاز السام ضد القرويين الأكراد عام ١٩٨٨ كدليل على أنه قد يستخدم هذه الأسلحة ضد الولايات المتحدة اليوم، حتى وإن كان في ذلك هلاكه هو. وتعتبر رغبة إيران في امتلاك رادع موثوق به داخل منطقة نووية تهديدًا لدولة تبعد عنها ستة آلاف ميل. كما اختير نظام الرعاية الصحية الكوبي (الذي قد يعتبر مثيرًا للشك لأنه يُدار بشكل علني) مصدرًا محتملاً للأسلحة البيولوجية. وأي من تلك التهديدات ليس تهديدًا وشيكًا، ولكن كما يوضح الرئيس فإننا «إذا انتظرنا على التهديدات حتى تتحقق بصورتها الكاملة، فسوف ننتظر طويلاً جدًا».

والأمر الأكثر إثارة للانتباه بشأن السياسة الجديدة هو أنها تصور أسلحة الدمار الشامل على أنها مشكلة جديدة، واتخاذ إجراء من جانب واحد على أنه الطريقة الوحيدة للتعامل معها. والواقع هو أن أول معاهدة بشأن الغاز السام تعود إلى عام ١٨٩٩. وطوال العشرات من السنين قادت الأمم المتحدة المساعي للحد من صنع ونشر مثل تلك الأسلحة. والآن، وفي ظل النفاق المثير للدهشة، رفضت حكومة بوش التصديق على بروتوكولات التنفيذ الخاصة بمعاهدات الأسلحة الكيماوية والبيولوجية. كما ضغطت على ١٣٩ دولة لفصل خوسيه بستاني المدير العام لمنظمة منع الأسلحة الكيماوية، الذي يحظى بقدر كبير من الاحترام والتقدير، في منتصف فترة توليه للمنصب. وكذلك سرَّعت الجهود الخاصة بصنع الأسلحة النووية المستخدمة في ميدان القتال التي يمكنها اختراق التحصينات الموجودة تحت الأرض وتدمير الكيماويات والأسلحة البيولوجية الخطيرة.

وكانت الحكومة البريطانية مؤيدة في بداية

الأمر للموقف الاستراتيجى الجديد. وفى شهر مارس ذكر جيف هون وزير الدفاع أن الحكومة «تحتفظ بحق» استخدام الأسلحة النووية إذا هددت الأسلحة البيولوجية أو الكيماوية بريطانيا أو القوات البريطانية». وكان هون يؤكد بذلك الحق الموجود بالفعل لاتخاذ إجراء إجهاضى، بناء على حجة قدمها محامو وزارة الخارجية تفيد بان القانون الدولى الوضعى الخاص بقضية «كارولين» أدخل بكامله ضمن ميثاق الأمم المتحدة باعتباره «حقًا أصيلاً».

وهناك العديد من المشاكل فيما يتعلق بالحجة. وأبرز شىء هو أن القانون الدولى يقتضى تفسير شروط المعاهدة طبقًا لمعناها العادى. والنص المهم بشأن الدفاع عن النفس فى المادة ٥١ هو «لا يمس شىء فى الميثاق الحالى الحق الأصيل الخاص بالدفاع عن النفس الفردى أو الجماعى إذا وقع هجوم مسلح ضد عضو من أعضاء الأمم المتحدة، إلى أن يتخذ مجلس الأمن الإجراءات اللازمة للحفاظ على السلم والأمن الدوليين». وبذلك تقيد مصطلح «الأصيل» عبارة «إذا وقع هجوم مسلح» تقييدًا واضحًا، ويُنظر إلى الحق فى الدفاع عن النفس على أنه مجرد استثناء محدود داخل نظام يعطى الأولوية لما يقوم به مجلس الأمن.

وعند وقوع أى حدث، كان القلق الشديد يخيم على وايتهول (مكاتب الحكومة البريطانية) حيث يكون المدى الكامل للمطلب الأمريكى قد بات واضحًا. ولا تسعى استراتيجية بوش بشكل من الأشكال إلى اتباع معايير قضية «كارولين»: فليس هناك اقتراح بانتظار «ضرورة الدفاع عن النفس» التى تتسم بأنها «عاجلة وشديدة للدفاع عن النفس، بحيث لا تترك خيارًا لأية وسيلة أخرى ولا تتيح لحظة للتروى». وعلى عكس جيف هون، فإن الرئيس لا «يحتفظ بحق» الرد على التهديدات الوشيكة: ذلك أنه يسعى إلى توسيع حق الدفاع عن النفس ليشمل اتخاذ إجراءات ضد الأخطار المستقبلية المحتملة.

ورغم تركيز مستشارى بوش على الانتخابات التكميلية واستعدادهم الزائد لانتهاك القانون الدولى إذا اقتضى الأمر، فإنهم من الذكاء بحيث يدركون أن أى تغيير فى القانون قد يوفر لهم منافع بعيدة المدى، كأن يسهل عليهم تأمين الدعم للإجراءات العسكرية فى المستقبل. كما أنهم على علم تام بأن قواعد القانون الدولى الوضعى وتفاسير الميثاق يمكن تعديلها عن طريق تغيير سلوك الدول، وأنه من الممكن فى بعض الأحيان إثارة السلوك المطلوب عمدًا. وفى أعقاب الحادى عشر من سبتمبر نجحت الولايات المتحدة فى سعيها لتوسيع حق الدفاع عن النفس ليشمل اتخاذ إجراءات ضد الدول الراعية للإرهاب، حين يكون هؤلاء الإرهابيون قد هاجموا بالفعل الدولة التى ترد. وقد فعلت ذلك بادعائها أولاً أنها صاحبة الحق، ثم بالسعى للحصول على التأييد الصريح أو الضمنى من الدول الأخرى. كما مورس الضغط الدبلوماسى المكثف، حيث شمل ذلك تهديد «من ليس معنا فهو ضدنا». وكان عدد قليل لديه من الشجاعة أو التمسك بالمبادئ ما جعله لا يوافق. وبعد ذلك كان الإجراء العسكرى فى أفغانستان كافيًا لضمان المطالبة بالحق.



عالم فوضوى!

واليوم يتكرر تهديد «من ليس معنا فهو ضدنا». فهناك هجوم ضد العراق يخطط له، وهو مثالى فى توقيته قبيل الانتخابات التكميلية. والسؤال الوحيد هو: هل ستؤيد دول أخرى الولايات المتحدة فى مبادرتها الأخيرة؟ إن على تونى بلير أن يضع فى اعتباره العواقب السلبية قبل أن يتخذ أى قرار. فقد يخلق حق الدفاع الإجهاضى عن النفس بصورته الواسعة حالة من القلق والاضطراب. إذ من الذى يقرر أن تهديدًا محتملاً ما يبرر اتخاذ إجراء إجهاضى؟ وكيف يمكن الوقاية من التدخلات الانتهازية التى تبرر بأنها دفاع إجهاضى عن النفس؟ وهل نرغب فى منح نفس الحق الموسع للهند وباكستان، كما تقضى طبيعة القانون الدولى الوضعى التبادلية؟ وهل من المحتمل أن يدفع توسيع هذا الحق أهدافًا بعينها إلى الضرب أولاً، وإلى استخدام أسلحتها البيولوجية والكيماوية والنووية بدلاً من فقدانها؟

يقدم ميثاق الأمم المتحدة إجابة واضحة عن تلك الأسئلة، وهى أنه فى حال عدم وجود هجوم، يمكن لمجلس الأمن وحده أن يتخذ إجراء ما. وإذا قُدِّمت للمجلس الأدلة الدامغة على أن هناك هجومًا بيولوجيًا أو كيماويًا أو نوويًا وشيكًا، فما من شك فى أنه سوف يتخذ إجراء ما، ذلك أن آثار أسلحة الدمار الشامل لا يمكن قصرها على مكان محدود. وفى السنوات القليلة الماضية أجاز المجلس مرارًا اتخاذ إجراء عسكرى حتى فى المواقف التى لم يكن فيها تهديد ضد أعضائه: فى العراق والصومال والبوسنة والهرسك وهاييتى وغيرها. وفى شهر سبتمبر الماضى لم يحتج الأمر إلا إلى يوم واحد لتأكيد الدول الخمس عشرة الأعضاء حق الولايات المتحدة فى الدفاع عن النفس.

إن من ليس لديهم سبب للخوف من القوة العسكرية هم وحدهم الذين يمكنهم التفكير فى عالم بلا حماية مركبة من ميثاق الأمم المتحدة والقانون الوضعى الخاص بحالة «كارولين». ويشعر الرئيس الأمريكى بقدرته على المطالبة بحق موسع لاتخاذ إجراء إجهاضى، لأن الدول الأخرى لا تملك فى الوقت الراهن القدرة على الانتقام. وما لا يدركه بوش هو أن تلك الإجراءات سوف تشجع الدول الأخرى على امتلاك نفس الأسلحة التى يدعى هو أنه يبغضها.

وحظيت معارضة الولايات المتحدة لمحكمة الجنايات الدولية باهتمام كبير، ولكن النتائج المحتملة لتلك المعارضة تتضاءل بجوار الضرر الذى يمكن أن تحدثه للشئون الدولية، عن طريق الحق الواسع فى اتخاذ إجراء إجهاضى. قد تنحرف بنا بعيدًا عن نظام الأمم المتحدة وتسير بنا فى اتجاه عالم فوضوى تسوده القوة الغاشمة والتحالفات المتغيرة والمحاولات اليائسة التى تقوم بها الدول المعرضة للهجوم للحصول على قدرة الردع. وسيرًا وراء مصالحه الضيقة، قد يعود جورج دابليو بوش بنا إلى الأيام المظلمة قبل سقوط «كارولين» من فوق شلالات نياجرا. ولو كان يتحدث فى ويست بوينت عام ١٨٣٨ لامتنع الطلاب عن التصفيق له. ■

بترتيب خاص مع:
London Review of Books, 25 July 2002
ترجمة: أحمد محمود

أمريكا أعدى أعداء أمريكا!

تونى يوت

النزعة «الثقافية» المعادية لأمريكا يشترك فيها الأوروبيون وسكان أمريكا اللاتينية والآسيويون العلمانيون والمتدينون على السواء. ولا يتعلق الأمر بكراهية الغرب، أو الحرية، أو التنوير، أو أية فكرة مجردة أخرى تمثلها الولايات المتحدة. بل يتعلق بأمريكا

[١]

يتمثل الوضع الحالى لأمريكا، باعتبارها «القوة العظمى» المهيمنة التى لا منافس لها ولا سبيل لأن يتحداها أحد، وهو موضوع كتاب جوزيف ناى، فى مؤسستها العسكرية. وقبل الحادى عشر من سبتمبر، وقبل اقتراح الرئيس بوش زيادة قدرها ١٤ بالمائة (٤٨ مليار دولار) فى نفقات الدفاع للعام الحالى، كانت الولايات المتحدة بالفعل تحالفًا قائمًا بذاته. فهى لديها قواعد وسفن وطائرات وجنود فى أنحاء المعمورة. وتنفق واشنطن على قواتها المسلحة أكثر مما أنفقته أية أمة فى التاريخ؛ وعما قريب سوف تتعدى ميزانية الدفاع الأمريكية نفقات الدفاع السنوية للدول التسع التى تليها مجتمعة. صحيح أن الدول الأعضاء فى الاتحاد الأوروبى لديها فيما بينها جنود أكثر من الولايات المتحدة، وبلغت ميزانية دفاعها مجتمعة حوالى ٧٠ بالمائة من ميزانية واشنطن حسب أرقام عام ٢٠٠٢، إلا أن النتائج التى حققتها فى التكنولوجيا والمعدات ليست قابلة للمقارنة وحسب. فالولايات المتحدة يمكنها التدخل أو شن الحرب فى كل مكان تقريبًا من العالم. بل إنه ليس هناك من يدانيها فى ذلك.

ولكن «أمريكا» التى يضعها العالم كله فى رأسه لا يمكن تعريفها بإجمالى وزن الرؤوس النووية وأجهزة التوجيه، أو القنابل الذكية، أو حتى عدد الجنود، لأنها أكثر تعقيدًا وانتشارًا من ذلك. فهى فى بعض الأماكن ذكرى تتلاشى للتحرر. وهى فى أماكن أخرى وعد بالحرية والفرص والوفرة؛ أى أنها مجاز سياسى وخيال خاص. وفى غيرها من أماكن، أو فى الأماكن ذاتها فى أوقات أخرى، تعتبر أمريكا مثيلاً للقهر المحلى. باختصار، أمريكا موجودة فى كل مكان. وينتج الأمريكيون - وهم ٥ بالمائة من سكان العالم - ٣٠ بالمائة من إجمالى الناتج العالمى، ويستهلكون حوالى ٣٠ بالمائة من إنتاج البترول العالمى، وهم مسئولون عن حصة تساوى حصة العالم كله من غازات الصوبة الزجاجية. وإذا كان عالمنا مقسمًا تقسيمات كثيرة - الأغنياء والفقراء، والشمال والجنوب، والغربيون واللاغربيون - فإن التقسيم الذى يزداد أهمية هو فصل أمريكا عن كل ما هو سواها.



وبذلك يجب ألا نندهش من النزعة المعادية لأمريكا التى تشغل بال المعلقين. فالولايات المتحدة تتعرض، بسبب وضعها الفريد، لنظرة انتقادية من العالم فى كل شىء تفعله أو لا تفعله. وبعض العداء الذى تثيره الولايات المتحدة هو إحدى وظائف وجودها؛ فقبل ارتقاء الولايات المتحدة الهيمنة الكونية بكثير، كان الزوار الأجانب ينتقدون اعتزازها الوقح بنفسها، وثقة الأمريكيين النرجسية فى تفوق القيم والممارسات الأمريكية، وعدم اهتمامهم الذى لا جذور له بالتاريخ والتراث - وهو عدم اهتمام بتاريخهم وتراثهم وتاريخ وتراث غيرهم من الشعوب. وطالت قائمة

The Paradox of American Power: Why the World's only Superpower Con't Go it Alone

(مفارقة القوة الأمريكية: لماذا لا يمكن للقوة العظمى الوحيدة في العالم أن تتصرف وحدها)

by: Joseps S. Nye Jr
Oxford University Press, 222PP., $26.00

الاتهامات منذ صعود الولايات المتحدة على المسرح العالمي، ولكنها لم تتغير كثيرًا. وهذه النزعة «الثقافية» المعادية لأمريكا يشترك فيها الأوروبيون وسكان أمريكا اللاتينية والآسيويون والعلمانيون والمتدينون على السواء. ولا يتعلق الأمر بكراهية الغرب، أو الحرية، أو التنوير، أو أية فكرة مجردة أخرى تمثلها الولايات المتحدة. بل تتعلق بأمريكا.

وشعورًا من أمريكا بالاستياء مما هي عليه، تجدها تثير العداء كذلك بما تفعله. وبذلك تغيرت الأمور في الفترة الأخيرة إلى الأسوأ. فكثيرًا ما تكون الولايات المتحدة مواطنًا دوليًا عاصيًا للقوانين. ذلك أنها تتردد في الانضمام للمبادرات أو الاتفاقيات الدولية، سواء بخصوص ارتفاع درجات حرارة الأرض، أو الحرب البيولوجية، أو العدالة الجنائية، أو حقوق المرأة؛ فالولايات المتحدة إحدى دولتين فقط (الثانية هي الصومال) لم تصدقا حتى الآن على اتفاقية حقوق الطفل لعام ١٩٨٩، كما سحبت الحكومة الأمريكية الحالية توقيعها على معاهدة روما الخاصة بإنشاء المحكمة الجنائية الدولية، وأعلنت أنها لم تعد ملتزمة باتفاقية فيينا الخاصة بقانون المعاهدات التي تحدد التزامات الدول كي تظل في المعاهدات التي لم تصدق عليها بعد. وأقل ما يوصف به موقف الولايات المتحدة من الأمم المتحدة ومنظماتها هو أنه بارد. وفي وقت سابق من العام الحالي طالب السفير الأمريكي لحقوق الإنسان بالفض المبكر للمحاكم التي شكلت لأغراض بعينها في رواندا ويوغوسلافيا السابقة - رغم أن هذه المحاكم جزء لا يتجزأ من أية حرب جادة ضد الإرهاب العالمي، وأنفقت الولايات المتحدة نفسها ملايين الدولارات لرشوة بلجراد كي تقدم سلوبودان ميلوسيفتش لمحكمة لاهاي.



ويرى الكثيرون من الأجانب أن هذه المقاربة المتضاربة للمنظمات والاتفاقيات الدولية، التي ساعدت واشنطن في إقامتها، تتناقض مع ادعاء أمريكا المشاركة في المصالح الدولية وبحثها عن شركاء متعددين لأهدافها. وينطبق الشيء نفسه على ممارسات أمريكا التجارية. فالولايات المتحدة تدعو إلى العولمة وتعد نموذجًا يحتذى لها؛ حيث رأسمالية السوق الحرة لا تقيدها الحدود أو المصالح الخاصة أو الممارسات التقييدية أو النزعة الحمائية أو تدخل الدولة. ولكن ما يحدث في الداخل هو تطبيق واشنطن للتعرفة الجمركية، والدعم الزراعي، ودعم الحكومة الفعلي (وخاصة لصناعات الدفاع) من أجل تحقيق مكاسب سياسية في الداخل. ويفعل الاتحاد الأوروبي الشيء نفسه بالطبع؛ فالسياسة الزراعية المشتركة الشهيرة تستهلك ٤٥ بالمائة من ميزانية بروكسل، وهي بما تفرضه من حصار على منتجات المزارعين الأفارقة تحدث نفس القدر من الضرر الذي يحدثه أي قانون زراعي أمريكي. إلا أن ثمن صورة أمريكا أكبر بكثير؛ فالولايات المتحدة ترتبط ارتباطًا حميمًا بنفس المعايير الدولية التي تنتهكها.

ويرى النقاد الأجانب أن هذه التناقضات في سلوك أمريكا توحي بالنفاق؛ وربما كانت تلك هي أكثر التهم التي توجه للولايات المتحدة شيوعًا. وهي جميعًا أكثر إزعاجًا لأنه لا يمكن الاستغناء عن أمريكا، سواء أكانت منافقة أم لا. فبدون المشاركة الأمريكية لن تعدو معظم الاتفاقيات الدولية كونها حروفًا ميتة لا روح فيها. ويبدو أن القيادة الأمريكية مطلوبة حتى في الحالات التي يكون فيها البريطانيون والأوروبيون لديهم الوسائل لحل المشكلة بدون مساعدة من أحد، كما كان الحال في البوسنة فيما بين ١٩٩٢ و١٩٩٥، وليست الولايات المتحدة مناسبة بالمرة للقيام بدور شرطي العالم - فمجال اهتمام واشنطن قصير جدًا، حتى في المناطق ذات الاضطرابات المزمنة مثل كشمير أو البلقان أو الشرق الأوسط أو كوريا - ولكن يبدو أنه ليس أمامها خيار آخر. وفي الوقت نفسه يشعر الجميع، وخاصة الأوروبيين، باستياء من الولايات المتحدة حين لا تتولى القيادة، وكذلك حين تتسم قيادتها بجرأة أكثر من اللازم.

ورد الفعل الذي يمكن التنبؤ به نبرة جديدة في السياسة الأمريكية، وهو التبرم المتغطرس من أي رأي خارجي مهما كان نوعه. فقد وضعت الحرب الباردة أوزارها، وانتشرت مبادئ حكومة بوش ومؤيديها الأحادية، وانقشع غبار المعركة، كما أننا نعرف من نكون، ونعرف ما نريد. والسياسة الخارجية تتعلق بالمصالح القومية. والمصالح القومية تخدمها ممارسة القوة. وترتبط القوة بالأسلحة والاستعداد لاستخدامها. ونحن لدينا القوة والاستعداد. وطبقًا لما قاله الكاتب الصحفي تشارلز كراوتهامر في يونيو ٢٠٠١ فإن «النزعة الأحادية تسعى لتقوية النفوذ الأمريكي ونشره بجرأة باسم الغايات الكونية شديدة الوضوح».

في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر مباشرة خفت حدة الخطاب الأحادي الخاص بحكومة بوش، لتسهيل البحث عن حلفاء في الحرب المقبلة ضد الإرهاب. ورد المعلقون في الخارج بجدية وقد أربكتهم المذبحة؛ فقد قالت صحيفة «لوموند» «نحن جميعًا أمريكان الآن». في الوقت الذي وضع فيه حلف الناتو المادة ٥ من ميثاقه موضع التنفيذ لأول مرة، ملزمًا أعضاءه بالتضامن مع الولايات المتحدة التي تتعرض للهجوم. إلا أن شهر العسل كان قصيرًا. فقد أيد معظم حلفاء أمريكا الحرب ضد أفغانستان، بغض النظر عما لديهم من شكوك. ولكن الصدع انشق من جديد في يناير ٢٠٠٢، حين أشار الرئيس بوش في خطاب حالة الاتحاد إلى «محور الشر» (كوريا الشمالية وإيران والعراق).

كان الأمر الذي أثار الاستياء في ذلك الخطاب هو الشكل أكثر منه المضمون. فمعظم حلفاء أمريكا يشكون في حكمة استعداء الدول الغربية لإيران، ويشك البعض منهم في طريقة واشنطن الخاصة بالتعامل مع صدام. غير أن تلك ليست خلافات جديدة. ومع ذلك فإنه بعد أربعة أشهر فقط من إعلان الحكومة حرصها على إقامة التحالفات والتعاون الوثيق مع أصدقائها في الكفاح ضد العدو المشترك، لم يشر كلام بوش عن كفاح أمريكا الكوني ضد قوى الظلام إلى حلفاء أمريكا. وأثار ذلك قدرًا كبيرًا من الاستفزاز.



كان الرد الأمريكي هو التظاهر بالدهشة - فقد تساءل كولين باول في ١٧ فبراير قائلاً: «ما هو ذلك العمل الأحادي الذي قمنا به بحيث يصدمهم جميعًا على هذا النحو؟» ولكن الأوروبيين لم يسيئوا قراءة العلامات الصادرة عن واشنطن. ومع ذلك فقد ذكر باول أن هناك إجماعًا واقعيًا (قد يصفه البعض بأنه ينم عن الاستهزاء) في الحكومة على أنه بما أن حلفاء أمريكا لا علاقة لهم بحساباتها العسكرية وليس لهم خيار سياسي سوى الاتباع، فلن يتحقق شيء من استشارتهم مقدمًا أو أخذ حساسياتهم في الاعتبار. وقد لخص تشارلز كراوتهامر هذه المحصلة النهائية بشكلها الأكثر صراحة تلخيصًا جيدًا حين قال:

يشعر أبناء عمومتنا الأوروبيون المحنكون بذهول. ويأتي في المقدمة الفرنسيون الذين يستنكرون النزعة «التبسيطية» الأمريكية. حيث يرون في تسمية الشر باسمه انتهاكًا لقواعد الأخلاق. فهم يفضلون مجاملته. وقد مارسوا ذلك مرات كثيرة، أشهرها مجاملتهم لألمانيا النازية عام ١٩٤٠. إننا في حرب للدفاع عن النفس. وهي كذلك حرب من أجل الحضارة الغربية. وإذا رفض الأوروبيون رؤية أنفسهم جزءًا من هذا الصراع، فلا بأس. وإذا رغبوا في الاستسلام، فلا بأس كذلك. فسوف ندعهم يمسكون بذيول معاطفنا. ولكننا لن ندعهم يقيدون أيدينا.

من سمات المزاج القبيح في بعض أنحاء واشنطن في الوقت الراهن ألا يمتنع كراوتهامر وحسب عن ذكر أن فرنسا فقدت ١٠٠ ألف رجل في ستة أسابيع في حربها ضد الألمان. بل إنه لم يذكر أن الولايات المتحدة احتفظت بعلاقات دبلوماسية كاملة مع النازيين الأشرار لمدة ثمانية عشر شهرًا أخرى، إلى أن أعلن هتلر الحرب ضد أمريكا في ديسمبر ١٩٤١.



الولايات المتحدة إحدى دولتين فقط «الثانية هي الصومال» لم تصدقا حتى الآن على اتفاقية حقوق الطفل لعام ١٩٨٩. كما سحبت الحكومة الأمريكية الحالية توقيعها على معاهدة روما الخاصة بإنشاء المحكمة الجنائية الدولية



إن هذه اللامبالاة المتعالية تجاه الرأي الخارجي هي ما يؤذي الأسماع في الخارج وما خيب آمال حلفاء أمريكا بعد التوقعات الكبيرة في سبتمبر ٢٠٠١. وهي إضافة إلى بيان بوش الاستراتيجي الذي أعلنه مؤخرًا عن «الدفاع عن النفس الإجهاضي الذي يتقرر بصورة أحادية» والتوقع المفزع الخاص بالأسلحة النووية الجديدة التي تخترق الأرض ويحتمل استخدامها في العراق - وهو خروج غير مسبوق عن تردد أمريكا التاريخي في الموافقة على أسلحة الضربة الأولى من هذا النوع - ترسم من جديد صورة القيادة الأمريكية التي تصم آذانها عن النقد أو النصيحة. إنها قيادة تبدو في كثير من الأحيان متحدية وعدوانية، وكما تقول صحيفة «إل بايس» تغذي «الفزع العام» بالأفكار المسيطرة عليها والتحذيرات التي تخدم مصالحها من المعركة الحاسمة الوشيكة.

وجوزيف ناي هو عميد كلية كنيدي بجامعة هارفارد وكان مسئولاً كبيرًا في الدفاع والاستخبارات في عهد الرئيس كلينتون. وقد كتب مقالته التي تصل في طولها إلى حجم الكتاب عن السياسة الخارجية الأمريكية قبل الحادي عشر من سبتمبر ثم عدلها على عجل من أجل النشر، ولكنها ما كانت لتصبح مناسبة في أي وقت أكثر مما هي عليه الآن. وليس ناي مثاليًا ويلسونيًا ينعى تردد أمريكا في الانضمام إلى المجتمع الدولي بحثًا عن عالم أفضل؛ وكان قد أصدر عام ١٩٩٠ كتاب Bound to Lead [لا بد أن تقود] الذي تنبأ فيه بحق بالهيمنة الأمريكية المقبلة. وهو لا يجد أي حرج في واقع السيادة الأمريكية.

ورغم ذلك كتب ناي نقدًا قويًا للنزعة الأحادية في السياسة الخارجية الأمريكية؛ أي النزعة الشائعة الخاصة بـ«اقطع الشوط وحدك» مع إعطاء أقل قدر من الاهتمام لرغبات الآخرين. وهو كذلك يبدي تشككًا ضمنيًا في «الواقعية»، أي مقاربة العلاقات الدولية التي تقلل من شأن إعطاء

أولوية للاهتمام بالحقوق أو القوانين المتعدية للقومية أو الأهداف الأخلاقية وتقصر الدبلوماسية على دعم المصالح الأمريكية بكل وسيلة مناسبة. إلا أن هذا ليس كتابًا عن نظرية العلاقات الخارجية. واعتراض ناي على النزعة الأحادية، أو الواقعية بالمعنى المستخدم هنا، ليس لأنهما غير مأمونين من الناحية المفاهيمية؛ فرأيه هو أنهما لا يصلحان وحسب.

ويرى ناي أن العلاقات الدولية في الوقت الراهن تشبه مباراة للشطرنج ثلاثي الأبعاد شديدة التعقيد. فعلى أحد المستويات هناك نفوذ عسكري صلب، وهو مجال تسيطر عليه الولايات المتحدة بلا منازع. وعلى المستوى الثاني هناك نفوذ وتأثير اقتصاديان؛ وفي هذا المجال يمثل الاتحاد الأوروبي بالفعل تحديًا للولايات المتحدة في التجارة وتنظيم الاحتكارات ووضع المعايير الصناعية، ويتفوق على أمريكا في الاتصالات والسياسة البيئية وأشياء كثيرة أخرى. يضاف إلى ذلك وجود لاعبين آخرين.

وعلى المستوى الثالث يضع ناي الأنشطة غير الحكومية المتنوعة والمنتشرة التي تشكل عالمنا؛ أي تدفق العملات والهجرة والشركات متعدية القومية والمنظمات غير الحكومية والهيئات الدولية والتبادل الثقافي ووسائل الإعلام الإلكترونية والإنترنت والإرهاب. ويتصل الفاعلون غير الحكوميين ويعملون عبر هذا المجال الذي لا يخضع بالفعل للتدخل الحكومي؛ ونفوذ أية دولة، عدا الولايات المتحدة، يمكن إحباطه وتحييده بأيسر ما يمكن.

ويقول ناي إن مشكلة المسئولين عن تشكيل السياسة الأمريكية وتوصيفها في الوقت الراهن هي أنهم يلعبون في المستوى الأول وحسب، حيث تنحصر رؤيتهم في القوة الضاربة العسكرية الأمريكية. كما يقول إن «هؤلاء الذين يوصون بسياسة خارجية أمريكية تتسم بالهيمنة وتقوم على التوصيفات التقليدية الخاصة بالنفوذ الأمريكي، يعتمدون اعتمادًا كبيرًا على تحليل غير واف». ويرى ناي أن الأمريكيين قبل الحادي عشر من سبتمبر كانوا يصمون آذانهم عمدًا عما يدور في العالم المحيط بهم. بل إنهم كانوا سعداء بتجاهلهم من حذروهم عام ١٩٩٩ من كارثة مقبلة، مثل جاري هارت ووارين رودمان، حين قالوا إن «الأمريكيين قد يلقون حتفهم على التراب الأمريكي، وربما بأعداد كبيرة». وقد يكون الحادي عشر من سبتمبر دعوة واضحة إلى منظور جديد، ولكن يبدو أن القيادة الأمريكية الحالية لا تصغي السمع.

إذا أرادت الولايات المتحدة الانتصار في الحرب ضد الإرهاب، وإذا أرادت النجاح في تأكيد قيادتها للعالم، فستكون بحاجة إلى مساعدة الآخرين وتفهمهم، وخاصة في تعاملها مع الدول العربية والإسلامية الفقيرة وغيرها ممن يستاءون من تخلفهم. وهذا أمر واضح كل الوضوح. كما تتطلب إجراءات حفظ النظام الدولي وتنظيم تحركات العملات والسلع والأشخاص عبر القارات والإشراف على تلك التحركات تعاونًا دوليًا. وتحتاج «الدول الفاشلة» التي ينتعش الإرهاب وسط ركامها إلى إعادة بناء؛ وتخطئ الولايات المتحدة في عدم اهتمامها بتولي هذه المهمة ولم تعد تجيد القيام بها، وهو ما يتناقض تناقضًا شديدًا مع أدائها بعد ١٩٤٥. إن أمريكا





العلاقات الدولية حاليا تشبه مباراة للشطرنج ثلاثي الأبعاد. فعلى أحد المستويات هناك نفوذ عسكري صلب، وتسيطر عليه واشنطن. ثم هناك ثانيا نفوذ اقتصادي؛ يمثل فيه الاتحاد الأوروبي تحديًا لأمريكا، أما المستوى الثالث فهو الأنشطة غير الحكومية المتنوعة

تتولى القصف بالقنابل، أما أعمال إعادة الإعمار المعقدة والخطيرة فتتركها لغيرها.

وفي الوقت الراهن يساهم الاتحاد الأوروبي (بما في ذلك الأعضاء المرشحون للانضمام إليه) بقوات لحفظ السلام في أنحاء العالم تزيد عشر مرات عما تساهم به الولايات المتحدة، وتحمل الأوروبيون في كوسوفو والبوسنة وألبانيا وسيراليون وغيرها خسائر عسكرية أكثر مما تحملته الولايات المتحدة. كما أن خمسة وخمسين بالمائة من مساعدات التنمية في العالم وثلثي منح المساعدات كافة المقدمة للدول الفقيرة والمعرضة للأخطار في أنحاء العالم يأتي من الاتحاد الأوروبي. وتمثل المساعدات الخارجية الأمريكية، باعتبارها شريحة من إجمالي الناتج القومي، ثلث المتوسط الأوروبي. وإذا جمِّعت الإنفاق الأوروبي على الدفاع والمساعدات الخارجية وجمع المعلومات الاستخبارية وحفظ النظام والأمن - وكلها أمور لا بد منها لأية حرب مستدامة ضد الجريمة الدولية - فإنها تساوي بسهولة ميزانية الدفاع الأمريكية الحالية. ورغم التباهي المبالغ فيه بأن هناك ما يظن أنه تحليل للسياسة الخارجية في واشنطن المعاصرة، فإن الولايات المتحدة تعتمد اعتمادًا تامًا على الأصدقاء والحلفاء في تحقيق أهدافها.

وإذا أرادت أمريكا الحصول على الدعم الخارجي والاحتفاظ به، فسوف يتعين عليها أن تتعلم ممارسة ما يسميه ناي «النفوذ اللين». فالكلام الكبير عن الإمبراطورية الأمريكية وهم في اعتقاد ناي؛ إذ يُضاف وهم تاريخي مضلل آخر إلى «فيتنام» و«ميونيخ» في كتالوج الأشباه التي يساء استخدامها. والآن يسمع المرء في واشنطن تباهيًا عالي الصوت بالأحادية القطبية والهيمنة، ولكن ناي يقول إن الواقع هو أن نجاح التفوق الأمريكي لن يعتمد وحسب على القوة العسكرية أو الاقتصادية، بل كذلك على النفوذ اللين الخاص بثقافتنا وقيمنا وعلى السياسات التي تجعل الآخرين يشعرون بأنهم استشيروا وأن مصالحهم أُخذت في الاعتبار. وقد يبهر التحدث عن الإمبراطورية أبصارنا ويجعلنا نظن خطأ أن بإمكاننا المضي بمفردنا.

والنفوذ اللين، طبقًا لاستخدام ناي، يشبه إلى حد كبير الفكر السليم. وكان ينبغي أن يبدو كذلك لكل حكومة من الحكومات الأمريكية بعد الحرب، من هاري ترومان إلى جورج بوش الأب. فإنك إذا أردت أن يرغب الآخرون فيما ترغب أنت فيه، وجب عليك أن تجعلهم يشعرون أنهم داخل اللعبة. ويتعلق النفوذ اللين، على سبيل المثال، بالمصداقية والسمعة الطيبة. وحسبما يقوله ناي فإن الاتحاد السوفيتي خسر في غزوه للمجر وتشيكوسلوفاكيا عامي ١٩٥٦ و١٩٦٨، ويمكن زيادة نفوذ أمريكا اللين بانفتاح مجتمعها وطاقته؛ بينما يقضي عليه السلوك الخشن بلا داع، كتأكيد بوش صراحة على «موت» اتفاقية كيوتو. وتمارس الدول الاسكندنافية وكندا نفوذًا يزيد كثيرًا عن وزنها في الشئون الدولية، بسبب ما تبديه في أنحاء العالم من اهتمام بالمساعدات وحفظ السلام. وهو ما يعد كذلك نفوذًا لينًا.

ويعبر النزاع العالمي الأخير بشأن المحكمة الجنائية الدولية تعبيرًا جيدًا عن ثمن العناد الأمريكي. فحكومة بوش تعارض المحكمة بزعم احتمال تعرض الأمريكيين الذين يؤدون مهام في الخارج لمقاضاة تتسم بالسخف. وبناء عليه، وتوقعًا لبدء عمل المحكمة في ١ يوليو ٢٠٠٢، هددت الولايات المتحدة في أواخر يونيو بالانسحاب من مهام حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة والاعتراض على تلك العمليات في المستقبل، ما لم يضمن الأمريكيون إعفاءً شاملاً من مجال اختصاص المحكمة. وفيما قد يكون اندهاشًا من جانب الولايات المتحدة لرفض سائر أعضاء مجلس الأمن الانصياع للوى الذراع هذا، وافقت واشنطن بعد مناقشات مطولة ومضنية على حل وسط يحفظ لها ماء وجهها؛ وهو أن تتمتع قوات حفظ السلام من الدول التي لم توقع على المحكمة الجنائية الدولية بعام من الحصانة من المقاضاة قابلة للتجديد في الأول من كل شهر يوليو.



لم يكن تصرف الولايات المتحدة في هذا الشأن لائقًا بحال من الأحوال. فهناك ٧٠٠ أمريكي فقط يخدمون حاليًا في الخارج ضمن مهام حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة (من بين ٤٥ ألف فرد)، وتتضمن محكمة الجنايات الدولية بالفعل بنودًا، أقحمت صراحة لتهدئة واشنطن، تعفي مهام الأمم المتحدة بالفعل من المقاضاة. وكان الموقف الأمريكي المبدئي في شهر يونيو من العام الحالي اتُّخذ بكل بوضوح بهدف القضاء على المحكمة الجنائية الدولية وأنشطة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة - وكلاهما أمران يزدريهما ويمقتهما ديك تشيني ودونالد رامسفيلد وكوندوليزا رايس. وموقف واشنطن محير إلى حد كبير لأنه يتنافى مع إصرار أمريكا على الملاحقة والمقاضاة الدوليتين للإرهابيين وغيرهم من المجرمين السياسيين، ولأنه يوفر غطاء أمريكيًا للدول والساسة الذين لديهم سبب حقيقي للخوف من المحكمة الجديدة. وقد صوت كل حلفائنا في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ضد الولايات المتحدة وهذه المسألة، بينما تشارك واشنطن معارضتها المحكمة الجنائية كل من إيران والعراق باكستان وإندونيسيا وإسرائيل ومصر.

ومع ذلك فإنه من الممكن تحقيق أهداف يُسعى إليها على نطاق واسع بمجرد توقف الولايات المتحدة عن معارضتها؛ إذ ترفض واشنطن التوقيع على البروتوكول الدولي لإشراك الأطفال في الصراع المسلح، ولن يصدق الكونجرس على المعاهدة الدولية للتفرقة ضد المرأة؛ يرجع السبب في الحالة الأولى إلى رغبة البنتاجون في الاحتفاظ بحق تجنيد حفنة من أبناء السابعة عشرة، وفي الثانية إلى اللوبي المعارض للإجهاض. وكما كان الحال بالنسبة للفصل العنصري في الخمسينيات، تجلب تلك السياسات العار للولايات المتحدة، وهو ما يعد عقبة في سبيل المصلحة الأمريكية، مهما كان تعريفك لها. بل إن مجرد مظهر التعامل بجدية مع العالم سوف يزيد التأثير الأمريكي زيادة لا حد لها؛ فابتداء بالمفكرين الأوروبيين وانتهاء بالأصوليين الإسلاميين، تجد النزعة المعادية لأمريكا زادًا وفيرًا في زعم أن الولايات المتحدة تشعر بلامبالاة شديدة تجاه آراء الآخرين وحاجاتهم.

وهناك قدر هائل من الاختلاف بين تشجيع الآخرين على رغبة ما يرغبونه وبين إغرائهم كي يرغبوا فيما هو لديك. ولا يدرك كثير من المعلقين الأمريكيين هذا الفرق، ويفترضون بضيق أفق أن العالم مقسم إلى من يرغبون فيما هو لدى أمريكا ومن يكرهون أمريكا بسبب ما لديها. ويحرص جوزيف ناي على تجنب هذه الأنانية. بل إنه يسلم بأن الولايات المتحدة وحلفاءها الغربيين متفقون

إلى حد كبير وتجمعهم قيم وأهداف مشتركة؛ فكل ما يلزم لرأب الصدع الذى انشق بين أوروبا والولايات المتحدة هو ممارسة ذكية وحساسة للنفوذ الدبلوماسى الأمريكى. وهو ما لست متأكدًا منه.

[٢]

تعد الفجوة الأطلسية من الناحية السطحية أحد منتجات الحرب الباردة الفرعية. ولم يعد الغرض من حلف الأطلنطى واضحًا فى الوقت الراهن وينقسم الرأى (فى أوروبا وأمريكا) بشأن الطريقة التى ينبغى بها على الأوروبيين تنظيم دفاعهم بشكل جماعى فى غياب الخطر السوفيتى. فالاتحاد الأوروبى، الذى يتمتع بحرية الاتساع شرقًا، غارق فى مناقشات داخلية بشأن طريقة تحقيق ذلك ونتائجه على سيطرته.

ومن أجل اليورو، فرض الاتحاد الأوروبى قيود إنفاق صارمة على أعضائه؛ إذ سيحال من ولدوا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية إلى التقاعد، مما يفرض مطالب كبيرة على صناديق المعاشات التقاعدية الوطنية. ولا بد أن نضيف إلى ذلك خطاب معاداة المهاجرين الملتهب الآتى من أقصى اليمين. لكل هذه الأسباب، ولاعتماد الأوروبيين فى السابق على المظلة النووية الأمريكية، فإنهم يترددون الآن فى توجيه الموارد العامة إلى الإنفاق العسكرى، كما أنهم لا يقدرون فى الغالب موقف أمريكا - خوف الحادى عشر من الإرهاب - التقدير التام؛ ذلك أن البريطانيين والأسبان يعيشون مع الإرهاب المحلى القاتل منذ ما يزيد على الثلاثين سنة.

ولكن هناك ما يحدث صدعًا داخل الغرب أكثر من المهاترات بشأن الدفاع. فطوال خمسين سنة أخفت الحرب الباردة والتحالف الأطلسى الخلافات العميقة بين نوعين مناقضين تناقضًا حادًا من المجتمعات. فالأوروبيون «ينفقون أقل مما يجب» على الدفاع، ليس فقط لأن الأمريكيين يضمنون السماح لهم بدخول حديقة السلام المؤبد، ولكن لأنهم اختاروا فى الربع الثالث من هذا القرن تخصيص الكثير من المال للخدمات العامة باهظة التكاليف (وشديدة الشعبية). والنتيجة أنه فى كثير من الجوانب المهمة يقل تشابه أوروبا والولايات المتحدة فى الواقع عما كان عليه قبل خمسين سنة.



قد يكون هذا هو السبب فى أن النموذج الأمريكى ليس أكثر جاذبية للناس فى أماكن أخرى، كما أن انتصاره ليس مؤكدًا. فالأوروبيون والأمريكيون يحيون نوعين مختلفين من الحياة. فأكثر من واحد من بين كل خمسة أمريكيين فى عداد الفقراء، بينما تدور النسبة فى غرب القارة الأوروبية حول ٨ بالمائة. كما أن عدد الأطفال الذين يموتون فى عامهم الأول فى الولايات المتحدة يزيد بنسبة ٦٠ بالمائة عن مثيله فى فرنسا أو ألمانيا، فى حين يزداد التفاوت بين الفقراء والأغنياء فى الولايات المتحدة عن أى مكان فى قارة أوروبا (أو عما كان عليه الحال فى الولايات المتحدة قبل عشرين سنة)؛ ولكن بينما يؤيد أقل من أمريكى واحد من ثلاثة إعادة توزيع الثروة بصورة كبيرة، يؤيدها ٦٣ بالمائة من البريطانيين، يزيد الرقم على ذلك فى القارة الأوروبية.

الأوروبيون والأمريكيون يعيشون فى مجتمعين شديدى الاختلاف، فكل منهما يرى العالم بطريقة مختلفة ويقيّم العمليات والنتائج الدولية المتناقضة تقييمًا حادًا

بل إنه قبل إنشاء دول الرفاهة الأوروبية الحديثة، كان لدى معظم الأوروبيين المستخدمين تأمينات اجتماعية إجبارية (منذ عام ١٨٨٣ فى حالة ألمانيا). ويسلم كل الأوروبيين الغربيين فى الوقت الراهن بوجود شبكة الضمانات والحماية والدعم المتداخلة التى يعارضون باستمرار تخفيضها أو إلغاءها فى مراكز الاقتراع. كما أن عدم الأمان الاجتماعى والمهنى الذى يألفه عشرات الملايين من الأمريكيين غير مقبول من الناحية السياسية منذ زمن بعيد فى الاتحاد الأوروبى. وإذا كانت الفاشية والشيوعية رد الفعل الأوروبى ضد الموجة الكبيرة الأخيرة من عولمة حرية العمل (كما قال ناى وآخرون). فـ«رأسمالية الرفاهية» هى الضمان الأوروبى ضد عودتها. و لن يتخذ سائر الغرب السبيل الأمريكى بدافع من الحكمة، إن لم يكن لأسباب أخرى.

ولكن ماذا عن الزعم القائل بأنه سيكون أمام الأوروبيين خيار محدود، مثلهم مثل غيرهم من أهل الأرض؟ يقال الكثير عن انتصار الممارسة الاقتصادية الأمريكية المقبل على حساب المتغير الأوروبى ثقيل الحركة وغير المنتج الذى يفتقر إلى المرونة. ولكن رغم تعويق كل العراقيل المفترضة الخاصة بماضيها كدول، كانت اقتصادات بلجيكا وفرنسا وهولندا فى العام الماضى بالفعل أكثر إنتاجية فى كل ساعة عمل من اقتصاد الولايات المتحدة، بينما كانت الاقتصادات الأيرلندية والنمساوية والدنماركية والألمانية وراءه مباشرة.

وفيما بين ١٩٩١ و١٩٩٨ كان متوسط الزيادة الإنتاجية فى أوروبا أسرع منه فى الولايات المتحدة. ومع ذلك فقد فاقت الولايات المتحدة أوروبا فى الأرقام الإجمالية. ويرجع ذلك إلى أن عدد العاملين الأمريكيين أكبر: فالدولة تحصل على قدر أقل من أجورهم (وتقدم أقل فى المقابل)؛ كما أنهم يعملون عدد ساعات أكثر - بزيادة ٢٨ بالمائة عن الألمان و٤٣ بالمائة عن الفرنسيين - ويحصلون على عطلات أقصر من الجميع.

وهناك شك فيما إذا كانت أوروبا (أو غيرها) ستبدو أكثر شبهًا بأمريكا إذا تبنوا هناك النموذج الاقتصادى الأمريكى. فالاقتصاد الأمريكى الحديث لا يمكن استنساخه فى مكان آخر. وليست «الحرب ضد الإرهاب» المسألة الوحيدة التى تعتمد فيها الولايات المتحدة على الأجانب. ذلك أن «المعجزة» الاقتصادية الأمريكية فى العقد الماضى كان يغذيها ١,٢ مليار دولار يوميًا من تدفق رأس المال الأجنبى اللازم لتغطية العجز التجارى الخارجى للبلاد، الذى يبلغ حاليًا ٤٥٠ مليار دولار فى السنة. فهذه التدفقات الاستثمارية الضخمة هى التى حافظت على ارتفاع أسعار الأسهم، وجعلت معدلات التضخم والفائدة منخفضة، وأنعشت الاستهلاك المحلى.

وإذا عانت إحدى دول أوروبا أو آسيا أو أمريكا اللاتينية من عجز تجارى مماثل لكانت قد خضعت منذ زمن بعيد لسيطرة صندوق النقد الدولى. وتتفرد الولايات المتحدة بالتنعم بهذا الاعتماد الضار على المستثمرين الأجانب لأن الدولار هو عملة الاحتياطى فى العالم منذ الحرب العالمية الثانية. ويكثر الجدل حول طول المدة التى يمكن خلالها للاقتصاد الأمريكى أن يعمل بهذه الطريقة قبل أن ينهار انهيارًا مؤلمًا نتيجة لفقدان الثقة الخارجية، وكذلك حول ما يتصل به من ادعاء بأن تلك الأنهار من النقد الأجنبى، وليست الإنتاجية غير المسبوقة الخاصة بقطاعات التكنولوجيا الفائقة الجديدة، هى التى حققت رفاهية التسعينيات. والشىء الواضح أنه رغم كل ما للنموذج الأمريكى من سحر فهو فريد ولا يمكن تصديره.

وبدلاً من أن تجعل العولمة جاذبيتها عالمية، قضت على التحمس الخارجى للنموذج الأمريكى: ذلك أنه لم يصاحب انخفاض الملكية العامة للسلع والخدمات فى أوروبا على مدى العشرين سنة الماضية أى خفض لالتزامات الدولة الاجتماعية. فيما عدا بريطانيا التى اضطرت حكوماتها للتراجع. بطريقة مقنعة. فى مواجهة المعارضة الشعبية. ولأن الأوروبيين والأمريكيين يعيشون فى مجتمعين شديدى الاختلاف. فكل منهما يرى العالم بطريقة مختلفة ويقيِّم العمليات والنتائج الدولية المتناقضة تقييمًا حادًا.

وكما اعتاد القادة الأمريكيون المحدثون الاعتقاد بأنه يفضل فى الحياة العامة المحلية ترك المواطنين لحالهم. مع تدخل محدود من الحكومة، فإنهم يسقطون هذه الرؤية على الشئون الدولية كذلك. فالعالم، كما يرونه من واشنطن، سلسلة من التحديات أو الأخطار المنفصلة يختلف بعضها عن بعضها التى تُقاس طبقًا لآثارها على أمريكا. وبما أن الولايات المتحدة قوة كونية، فإن كل شىء تقريبًا يحدث فى العالم يهمها؛ ولكن طبيعة أمريكا هى معالجة كل مشكلة وحلها على حدة.

لكل هذه الأسباب، ولأن جزءاً كبيرًا من السياسة الأمريكية تحركه اعتبارات منعزلة عن بعضها لن تتغير عما قريب، تصعب مشاركة ناى استنتاجاته المتفائلة بشأن مستقبل «النفوذ اللين» الخاص بأمريكا. فالولايات المتحدة بالمعنى الحرفى للكلمة هى أسوأ أعداء نفسها؛ فإرضاء للدوائر الانتخابية، يتجاهل رؤساء أمريكا الرأى الخارجى فى أغلب الأحيان. كما يلقى الخطاب المزخرف واتخاذ المواقف الأحادية قبولاً حسنًا فى الداخل، بل وقد يخيف الأعداء فى الخارج كذلك (وإن كان هذا غير مؤكد). ولكن الشىء المؤكد هو أنه يرعب ويستعدى مجموعة ثالثة تضم الكثير من أصدقاء أمريكا والمعجبين بها فى الخارج.

إن الخطر الحقيقى الذى تتعرض له أمريكا ولم تدركه حكومة بوش بعد، هو أنه فى مواجهة إهمال أمريكا ولا مبالاتها سوف تتلاشى هذه الخرافة وسوف «تصبح شرائح كبيرة من المجتمعات الرئيسية ضد الولايات المتحدة والقيم الكونية الخاصة بالتجارة الحرة والمجتمع الحر». وسوف يعنى هذا نهاية «الغرب» كما فهمناه طوال نصف قرن. فقد كان مجتمع المصالح والصداقة المتبادلة فى شمال الأطلنطى غير مسبوق ولا يقدر بثمن؛ وقد يكون ضياعه كارثة للجميع.

وما يوفر للولايات المتحدة تأثيرها الدولى الرهيب ليس هو قدرتها التى لا مثيل لها على الحرب، بل هو ثقة الآخرين فى نواياها الحسنة. وهذا هو السبب فى أن معارضة واشنطن للمحكمة الجنائية الدولية لها أضرارها الكثيرة. فهى توحى بأن الولايات المتحدة لا تثق فى معاملة سائر دول العالم الأمريكيين معاملة نزيهة. ولكن إذا كانت أمريكا تبدى عدم ثقة فى الآخرين، فقد يحين الوقت الذى يردون فيه الكيل لها.

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
August 15, 2002

ترجمة: أحمد محمود

قـــــــــراءة

«الولايـــات المتحـــدة لـم تكتــف باســتخدام المفتشين فى مهمـات تجسسـيـة، بــل مارســت ضـغـوطـا كـى يقـــدم هــؤلاء عـــلى ممارســـات يرفضهـا الجـانب العــراقى من أجــل خـلق وضع يبرر التدخـل العسـكرى المباشــر».

رالف ايكيوس

مسؤول عمليات التفتيش فى العراق

(فاينانشيال تايمز ٢٠٠٢/٧/٣٠)

«كـل مـا يحدث فى العــراق الآن ويعتبـره الأمريكيــون سـببًا للحـرب، كــان يحــدث قبـل عــام ١٩٩٠ عندمـا كـان صـدام حسـين أحـــد أصـــدقـــاء النظـــام الأمريكـــى الخلصـــاء».

روبرت فيسك

(الإندبندنت سبتمبر ٢٠٠٢)

«أوسـلو انتهــت..

نحـــن الآن نســـتكمل حـــرب الاســـــتقلال».

أريل شارون

(رئيس الوزراء الإسرائيلى)

هــل تؤيـد فرنسـا اتخـاذ قــرار يتيـح توجيـه إنــذار إلى إسـرائيـــل مـــن أجـــل احتـــرام قـــرارات مجلـــس الأمـــن كمـــا هـــى مســـتعدة أن تفعـــل تجـــاه العـــــراق؟

سؤال إلى الناطق الرسمى للخارجية الفرنسية

(مؤتمر صحفى. باريس ٢٠٠٢/٩/١٣)

لا صدام هو عرفات.. ولا العراق هى فلسطين ولكن فى مناخ الاحباط واليأس وفى مواجهة الأمريكان يرفع الشارع العربى لافته واحدة. غزة ٢٠٠٢/٩/١٨



بغــــداد



■ تحت صورة الشيخ جابر الأحمد الصباح، وقف الجنرال تومى فرانكس قائد القيادة المركزية الأمريكية ليؤكد خلال مؤتمر صحافى عقده فى الكويت قبل أيام أن قواته «مستعدة لتنفيذ كل ما يطلب منها من مهمات»، فى إشارة إلى قرار - يبدو مؤكدا - قد يتخذه الرئيس بوش بضرب العراق. وموضحاً أن حجم التدريبات التى تجريها القوات الأمريكية فى الخليج هو «الأكبر على مدى ١١ سنة»، أشار الجنرال الأمريكى إلى أنه سمع من المسؤولين الخليجيين الذين التقاهم ثناء بالغاً على خطاب بوش.

على الناحية الأخرى من الكرة الأرضية، وبعد ساعات استوجبتها فروق التوقيت، كان الناطق باسم البيت الأبيض آرى فلايشر يقف مهندما بربطة عنق أنيقة، أمام الصحفيين الملولين فى البيت الأبيض، ليعلن أن الجنرال فرانكس سلم بوش خطط الحرب قبل أيام. وأن الرئيس طلب من وزير الدفاع دونالد رامسفيلد أن يطلب خيارات (مبدعة) من قادة الجيش الميدانيين.

خارج القاعة المزدحمة بأكواب القهوة وعلب العلكة الفارغة، كانت شاشات التليفزيون بالبيوت الأمريكية مشغولة - ساعة الذروة - بمتابعة أخبار قضية الأم التى فضحها شريط فيديو وهى تضرب ابنتها (أربعة أعوام) داخل سيارة العائلة.

بين ضجيج التصريحات والتهديدات، ومصطلحات الدبلوماسية الباردة المتلونة فى الاجتماع السنوى للأمم المتحدة، كان المشهد فى رام الله مختلفا - ومتوقعا - الدبابات تقصف مقر زعيم الفلسطينيين (الذين وعدهم بوش فى خطابه «العراقى» بدولة) وانفجار ضخم يتلوه تصاعد سحابات الغبار والدخان. ومكبرات الصوت تنذر من بالداخل بتفجير ماتبقى من المبنى على من فيه. ويختلط أزيز الدبابات المحاصرة برنين هواتف الرؤساء والزعماء بهتافات الفلسطينيين المحاصرين فى مخيماتهم ومدنهم.. وتاتى التطمينات، لتجد الصحف العربية ماتنشره: «الإسرائيليون أكدوا أنهم لن يقتلوا عرفات»!! ولكن، تنقل وكالات الأنباء الصورة: « يتقدم جندى إسرائيلى فى هدوء وينزع العلم الفلسطينى من سطح المبنى ويزرع مكانه علم إسرائيل». وينسى الجميع - ربما - أن أوسلو التى تم توقيع اتفاقها فى حديقة البيت الأبيض كانت «مشروع دولة»، وكان مبنى المقاطعة (المجمع الرئاسى للسلطة الفلسطينية فى رام الله / مقر عرفات)، رمز هذه الدولة / المشروع.

لاخلاف تقريبا حول أن الإسرائيليين سينتهزون فرصة الدخان الكثيف الذى سينطلق من شاطئ الفرات ليتموا ما بداه شارون وصرح به علنا «لاوجود لأوسلو». بل إن كتاب الأعمدة الإسرائيليين يطالبون الجيش بالانتهاء «مما بيده الآن» إذ يعتقد الدكتور يوسى أولمرت فى «يديعوت أحرونوت» ٢٠٠٢/٩/١٧: أن «الساعة الأمريكية تدق ببطء مقارنة بالساعة الإسرائيلية».. ويطالب الكاتب الإسرائيلى بانتهاز الفرصة التى قد لاتعوض «فمركزية كونية كهذه تبدو وضعا غير طبيعى..إذ إن القوة الأمريكية هى شىء خارق»، مذكرا بأن الميل اليهودى إلى العزلة «قادنا على مر الأجيال إلى أخطاء مأساوية فى التعامل مع دول عظمى. لكننا نتواجد اليوم فى الجانب الصحيح للمتراس، إذ إننا حلفاء أعظم دولة فى العالم.. علينا الحفاظ على هذا الكنز بكل ثمن تقريبا..لكن يخطئ أولئك الذين يظنون بأن التحالف مع أمريكا يمنحنا حبلاً طويلاً دونما نهاية ومتسعا غير محدود من الوقت». انتهى كلام أولمرت.

الخلاف إذن داخل إسرائيل - إذا كان ثمة من خلاف - ينحصر فى الإجابة عن السؤال الآتى: هل نطلق طلقتنا «الأخيرة» الآن، أم ننتظر طلقة واشنطن «الأولى» على بغداد.



تتعدد الخطط السرية.. وتتعدد التسريبات «المقصودة». وفى انتظار الخيارات «المبدعة»، يقف جورج دبليو بوش تحت الشعار التاريخى للأمم المتحدة (لاحظ) تحت الشعار التاريخى للأمم المتحدة مهددا المنظمة الدولية بأنه ربما اضطر للتصرف منفردا، ومعددا: «استخدم الأسلحة الكيميائية ضد شعبه.. اجتاح أراضى جيرانه.. صادر الحريات المدنية و«قتل الألوف من مواطنيه». بعض من لائحة الاتهام الطويلة بحق السيد صدام والنظام العراقى.

هكذا قال الرئيس الأمريكى. فماذا تقول روزنامة التاريخ؟

* فى سبتمبر ١٩٨٠، هاجم نظام بغداد إيران، وبعدما واجه صعوبات فى الحرب - حسب ماذكرت الصحف الأمريكية ذاتها - استخدم الأسلحة الكيميائية قبل أن يقتل بالغاز فى حلبجة فى مارس ١٩٨٥، خمسة آلاف من الأكراد العراقيين. فماذا فعلت واشنطن؟ هل أطلقت وقتها حملة لإيقاف هذا «الطاغية الدموى»؟ على العكس، تحكى أوراق تلك المرحلة كيف قام يومها نحو ستين ضابطًا أمريكيًا بتزويد القيادة العسكرية العراقية سرًا بـ«المعلومات المفصلة حول انتشار القوات الإيرانية» وكيف كانوا يناقشون معهم الخطط القتالية. وكيف لم يعترض هؤلاء المستشارون على استخدام الغاز «المحظور بموجب اتفاقية جنيف»، والقصة هنا منشورة بتفاصيلها فى نيويورك تايمز قبل أسابيع.

* فى ١٩٨٣ وبالتحديد فى ٢٠ ديسمبر التقى دونالد رامسفيلد (وزير الدفاع الحالى وأكثر صقور الإدارة الأمريكية مطالبة برأس صدام حسين) الرئيس العراقى، فى إطار «مهمة خاصة» كلفه بها وقتها الرئيس رونالد ريجان. والموضوع ذكّرت به قبل أيام فقط شبكة CNN بعد أن عثر صحافيوها مصادفة فى أرشيفهم على صور المقابلة.

* فى عام ١٩٨٤ تحكى أوراق العلاقة الأمريكية العراقية كيف استانفت إدارة ريجان علاقاتها الدبلوماسية مع بغداد بعد انقطاعها منذ حرب ١٩٦٧، ثم سرعان ما شطبت اسم العراق من قائمة الدول المساندة للإرهاب باعتباره «السور الواقى فى وجه الثورة الإسلامية».

* فى يناير ١٩٨٩، وقّع بوش الأب، بعد أن تولى الرئاسة، تعميمًا ينص على: «أن من شأن العلاقات الطبيعية بين الولايات المتحدة

... رام الله

أيمن الصيّاد

والعراق أن تخدم مصالحنا على المدى البعيد وتدفع فى اتجاه الاستقرار فى الشرق الأوسط والخليج ..».

* خلال تلك الفترة صدّرت الشركات الأمريكية إلى العراق وبموافقة وزارة الخارجية مواد يمكن استخدامها فى إنتاج الأسلحة الجرثومية. ولمن يريد أن يتأكد أن يراجع تقارير مجلس الشيوخ الأمريكى عام ١٩٩٤ على الموقع الخاص بـ Znet Commentary .

وفى حين تستهدف الحملة الأمريكية رسميًا أسلحة الدمار الشامل التى تمتلكها بغداد. فإن خطاب الرئيس بوش الذى نُظِّر لتلك الحملة جاء فضفاضًا ومزدحمًا بالشروط التى قد يستحيل التأكد من تنفيذها، بالضبط مثل حال خطابه الخاص «برؤيته» للحل فى الشرق الأوسط وللتذكير، فإن القرار ٦٨٧ الصادر عن مجلس الأمن الدولى فى ٣ أبريل ١٩٩١ طلب نزع أسلحة الدمار الشامل العراقية، ويوضح البند الرابع عشر منه أن هذه الإجراءات «تندرج فى مسار يهدف إلى خلق منطقة منزوعة من أسلحة الدمار الشامل والصواريخ الحاملة لها فى الشرق الأوسط». وللتذكير أيضًا فإن إسرائيل هى الدولة الوحيدة فى المنطقة التى لا تخضع أنشطتها النووية للتفتيش، رغم الثابت من كونها «الوحيدة أيضا» التى تمتلك السلاح النووى وليس فقط إمكانات تطويره.



وأيًا ما كان الرأى فى جدوى ما أنجزه مفتشو الأمم المتحدة بين ١٩٩١ و١٩٩٨، بغية التأكد من إزالة أسلحة الدمار الشامل العراقية، فإن الثابت - أولا - أنهم ذهبوا إلى هناك لمهمة محددة، وفقا لقرار الأمم المتحدة. والثابت - ثانيا - حسب أوراق المنظمة الدولية الرسمية أن المفتشين على مدى تلك السنوات قاموا بجهد ضخم تجاه تدمير البرنامج النووى وكامل ترسانة الصواريخ تقريبا إضافة إلى قسم كبير من الأسلحة الكيميائية. وكانت عملية نزع الأسلحة والانتهاء من الحصار قد وصلت تقريبًا إلى خواتيمها. إلا أن كل شىء انهار فجاة. وهنا تختلف بالطبع التحليلات والتأويلات. إلا أنه إلى جانب الحديث الكثير جدًا عن المراوغة العراقية، هناك حقائق الحصار والتجويع التى لم يجادل فيها أحد، وهناك من يعتقد أن واشنطن كان لها فى واقع الأمر أهداف أخرى.

فى ٣٠ يوليو الماضى نشرت الفاينانشيال تايمز اللندنية على لسان رالف ايكيوس، مسؤول عمليات التفتيش التى قامت بها الأمم المتحدة فى العراق بين ١٩٩١ و١٩٩٧، أن الولايات المتحدة لم تكتف باستخدام المفتشين فى مهمات تجسسية، بل مارست ضغوطا «كى يقدم هؤلاء على ممارسات يرفضها الجانب العراقى من أجل خلق وضع يمكن أن يبرر التدخل العسكرى المباشر» ويبدو أن هذا ما حدث فى يناير ١٩٩٨ عندما قررت واشنطن قصف العراق من دون موافقة الأمم المتحدة، يومها رحل المفتشون ليبقى برنامج التسلح العراقى من دون أى رقابة.

هل تسعى الولايات المتحدة حقًا لعودة المفتشين؟ السؤال لم يتجاوزه فقط خطاب بوش الشهير، بل تبدو الإجابة عنه قديمة، لمن يقرأ.. ويراجع يوميات السنوات العشر. وحتى إن اختلفت لغة القراءة، وهذا مفهوم فى يوميات السياسة والدبلوماسية والحرب، فلا خلاف اليوم بعد أن أصبحت الصراحة - أو «البجاحة» إن شئت - بدلاً من المواراة والتعابير الدبلوماسية، لغة السياسة الأمريكية.

لم تعد الولايات المتحدة تسعى إلى عودة المفتشين، وهذا بات مفهومًا. كما لم تعد تهدف فقط إلى إزالة أسلحة الدمار الشامل، وذاك صار معلومًا.

ماذا يريد الأمريكيون إذن؟

بوهم التمنى، وإدمان اجترار ذكريات صداقات مشكوك فى صدقيتها، تختلفُ الإجابات - نسبيًا - فى شرقنا الذى هو فى التحليل النهائى ميدانُ المعركة.. والتحولات.

رغم الاختلاف - لا التباين - يعتقد الجميع، أو يخشون على الأقل - أن تكون بغداد نقطة انطلاق لإحداث «جراحة جيو سياسية» فى المنطقة كلها.

ولكل جراحة أعراض جانبية بالضرورة.

أيًا ماكان الاختلاف فى الرأى، فإن الثابت أنه بعكس إسرائيل التى يقول غالبية جيرانها أنها تشكل تهديدا لهم، لا يوجد جار واحد للعراق يدعى أنه - بحالته الحاضرة - يهدده أو يهدد أمنه. والثابت - ثانيا - أن إسرائيل لا تخفى رغبتها أن يضرب العراق - فالحرب تطلق يدها لتطبيق خطوات وخطط موجودة فى أدراجها، كما توفر لها فرصة تنفيذ خطوات ذات مغزى سياسى مباشر.

والثابت - ثالثا - أن الكلام الأمريكى / الإسرائيلى عن استهداف إصلاح القيادة الفلسطينية.. ثم إقامة نظام «ديمقراطى» فى العراق. سيعقبه كلام آخر كثير.

والثابت - رابعا - أنه تتحكم حاليا عناصر مشكوك فى حيادها بقضايا الأمن القومى والسياسة الخارجية الأمريكية فى مناخ تظلله سحابات غامضة من تصورات الأصولية الأمريكية المسيحية واليمين الإسرائيلى للعالم، هذا التصور الذى لا يقسم العالم إلى قوى خير وشر فحسب، بل يفرد لإسرائيل مكانة توراتية بين قوى الخير.

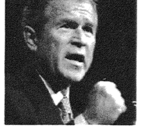
وأيًا ماكان الأمر فإن الأمريكيين يراهنون - أو لعلهم يثقون - فى أن الكلام عن «ردود فعل شعبية لايمكن التحكم بها» مبالغٌ فيه. ويذكر المراقبون بالتخوفات - التى ظلت نظرية - من آثار ضربة أمريكية لأفغانستان «المسلمة» فى شهر رمضان الماضى. الأمر الذى كشفت التجربة عن أنه لم يسفر فى محيط مليار مسلم عن أكثر من تظاهرات غاضبة لم يكن صعبا على الأنظمة «ذات الخبرة» قمعها، أو احتواؤها فى أحسن الأحوال. وفى حين نشرت «النيوزويك» بلغة الأرقام رسما بيانيا يبين كيف استمر الخط البيانى لعدد المظاهرات فى الهبوط المتسارع إلى جانب صورة لسهرات رمضانية لقوم أرهقهم اليأس، وأدمنوا التناسى، وأسكنوا حديث «البنيان المرصوص» فى لوحة مذهبة على جدار من رخام بارد. ■

البيت الأبيض ١٣/٩/١٩٩٣



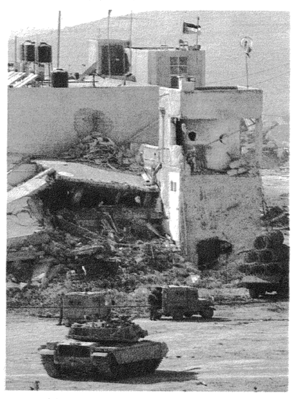


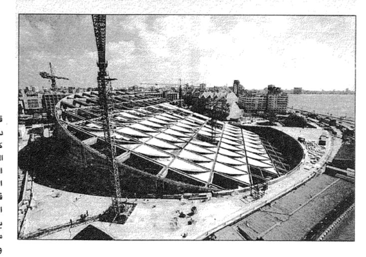
رام الله ٢١/٩/٢٠٠٢



الأمم المتحدة ١٢/٩/٢٠٠٢

ما تبقى من مقر عرفات رام الله ٢٤/٩/٢٠٠٢







مكتبة الإسكندرية

أخيراً

الافتتاح الكبير!

خواطر وتساؤلات

مصطفى العبادي

يعرف كثيرون أن موعد افتتاح مكتبة الإسكندرية سبق أن تحدد وتأجل عدة مرات في ظروف مختلفة. أولا، في مراحل التنفيذ المبكرة عند وضع حجر الأساس (يونية ١٩٨٨) وبعده في اجتماع أسوان الشهير (فبراير ١٩٩٠) حين أمكن جمع تبرعات عربية بلغت نحوا من خمسة وستين مليون دولار، كان مُقدرا أن يبدأ التنفيذ فورا ليكون الافتتاح في ١٩٩٥، ولكن فوجيء العالم بأزمة وحرب الخليج في أغسطس ١٩٩٠ و١٩٩١ كما هو معروف. وكان لأحداثها أثر الصدمة على العالم العربي بأسره، فأصابته بما يشبه حالة الشلل العصبي. ولم يفق العالم العربي من أثر الصدمة إلا في ١٩٩٤، وقررت مصر أن تُقدم على تنفيذ المشروع العالمي الخاص «بإحياء مكتبة الإسكندرية» في ١٩٩٥، وكان مُقدرا أن يستغرق البناء نحو خمس سنوات، ويكون الافتتاح في سنة ٢٠٠٠. ولكن البناء استغرق أكثر مما كان مُقدرا له حتى أكتوبر ٢٠٠١ حين تحدد أن يكون الافتتاح في ٢٣ أبريل ٢٠٠٢، ولكن أحداث الإرهاب العدواني الإسرائيلي ضد الفلسطينيين بلغت حداً من التطرف في العنف جعل الافتتاح مستحيلا في ذلك التاريخ بسبب ظروف الانفعال الشعبي الغاضب. وأخيرا تحدد ١٦ أكتوبر ٢٠٠٢ يومًا مرتقبًا لهذا الافتتاح الموعود.



ليس الغرض من هذا التقديم تذكير القارئ بما حدث، فجميعها أحداث حاضرة في الأذهان ومحفورة في الذاكرة؛ ولكن أردتُ من ذلك ملاحظة تكرار اصطدام موعد افتتاح المكتبة بأحداث سياسية عالمية الأبعاد، رغم أنه قد يبدو أن افتتاح أي مكتبة في بلد ما حَدَثٌ ثقافي محلّي بالدرجة الأولى، مهما يكن عِظَمُ هذه المكتبة، وقد حدث فعلا افتتاح مكتبتين عظيمتين خلال السنوات العشر الماضية، هما المكتبة الأهلية الجديدة في باريس، والمكتبة البريطانية في لندن. ولكن يبدو أن مكتبة الإسكندرية ليست أي مكتبة؛ ونظرا لاتصالي الوثيق بهذا المشروع منذ بدايته - على مدى ثلاثين عاما - دراسة وبحثًا وتخطيطًا ولقاءات داخل مصر وخارجها، أُدرك مدى الاهتمام العالمي بهذا الموضوع؛ ويكفي أن أقول إن الرأي المثقف العالمي شغل بتراث مدينة الإسكندرية القديم وبمكتبتها القديمة انشغالا واضحا في الفترة الأخيرة، فنجد أن عدّة مؤتمرات وندوات علمية انعقدت خلال العام الحالي تتعلق بتراث الإسكندرية القديم أو تتصل بمكتبتها. وعلى سبيل المثال: عقد مؤتمر في نيودلهي في مارس كان من بين موضوعاته «علاقات الهند بمصر ودور الإسكندرية ثقافيا واقتصاديا»؛ وفي مارس أيضًا عقد بمدينة تيرينا في البرتغال، مؤتمر عن «ثقافة البحر المتوسط» جاء فيه ذكر ثقافة الإسكندرية العالمية. وفي مدينة الكاب بجنوب أفريقيا في أبريل عقدت ندوة تحت عنوان «الإسكندرية في مدينة الكاب»؛ وفي مدينة لوفان في بلجيكا في مايو، عقد مؤتمر حول «قدسية النصوص» ودور مكتبة الإسكندرية القديمة؛ وبجامعة كولومبيا في مدينة نيويورك في أكتوبر عقد مؤتمر تحت عنوان «الإسكندرية بين مصر واليونان»؛ وفي يناير ٢٠٠٣ ينعقد مؤتمر في جامعة جوتبورج بالسويد حول «الإسكندرية ملتقى الحضارات». وفي الأعوام القليلة الماضية، انعقدت مؤتمرات مماثلة في دلفي باليونان، وتورينو بإيطاليا، ولندن بإنجلترا، إلى جانب معارض للآثار في باريس حول «مجد الإسكندرية» و«صور المومياوات» في المتحف البريطاني في لندن، و«كليوباترا والإسكندرية» في كندا والولايات المتحدة واليابان.

وقد نتساءل: لماذا كل هذا الاهتمام والاحتفال العالمي أو الإنساني، سواء بأخبار مكتبة الإسكندرية القديمة أو بفكرة إحيائها التي تبلورت في ذلك الصرح عبقريّ التصميم القائم على شاطئ الإسكندرية المُطلّ على صفحة البحر المتوسط؟



ولنتناول أولا موضوع مكتبة الإسكندرية القديمة وأسباب تفردها وتميزها على سواها من مكتبات العالم القديم بأسره. فمن المعروف أن الحضارات جميعا اقترنت في مدارج رقيها وتقدمها باشتمالها على مكتبات، فهي عنصر أساسي من عناصر مكوناتها ومقوماتها باعتبارها مستودع المعرفة في المجتمع ومجمع تراثه وعقائده وأعرافه وأخبار أحداثه وسجل إنجازاته. هكذا كان الحال في كثير من الدول الكبرى القديمة، في مصر وبابل وآشور وسوريا واليونان وفارس والهند والصين وغيرها. ولقد أمكن العثور حديثا على كثير من بقايا مكتبات تلك الحضارات التي ازدهرت قبل أن تزدهر الإسكندرية.

وإذا نظرنا إلى مصر على سبيل المثال، نجد فيها تقليدًا شاع وهو اقتران المعرفة والبحث العلمي عامة بحياة المعبد وبين الكهنة. وكانت المكتبة جزءا أساسيا من مقومات المعابد الكبيرة. وقد احتفظ لنا المؤرخ القديم ديودور الصقلي بوصف لمعبد الرمسيوم بالأقصر وأنه اشتمل على «مكتبة مقدسة»، يلاصقها بهو يضم تماثيل آلهة المصريين. ومن طريف ما حدث مع بداية الكشف الأثري العلمي قُرب نهاية القرن التاسع عشر، أن كان عالم الآثار المشهور فلندرز بيتري، يقوم بالتنقيب في موقع معبد الرمسيوم من القرن الثاني عشر - ق.م. مسترشدا بما سجله ديودور الصقلي، فعثر في موقع «المكتبة المقدسة» على مجموعة من البرديات من بينها أقدم كتابات درامية معروفة لنا من قصة إيزيس وأوزيريس وترجع إلى الدولة الوسطى (أي حوالي ٢٠٠٠-١٨٠٠ ق.م.) ومعنى ذلك أن تلك النصوص كان قد مضى عليها نحو من ثمانية قرون سابقة على بناء الرمسيوم. وهو ما يقوم دليلا على أن مكتبات المعابد في مصر القديمة كانت تقتني وتحتفظ بكنوزها من أعمال التراث الوطني على مدى أزمان طوال. وتأكيدا لهذا التقليد المصري القديم، يسجل كاتب من زمن الإسكندر الأكبر إعجابه بتفوق الكهنة المصريين في مجال دراسات الفلك، وهو هيكاتيوس الأبديري الذي يقول: «إنهم -إلى يومنا هذا- يحتفظون بسجلات كل من النجوم والأفلاك على مدى طويل جدا من السنين يصعب تصديقه...، ونتيجة لملاحظاتهم الفلكية المتصلة، أصبح باستطاعتهم التعرف مسبقا على وقوع الزلازل، والفيضانات، وتحديد بزوغ الكواكب».

هكذا كانت العلوم والمكتبات في مصر الفرعونية؛ ويمكن أن نذكر أمثلة مشابهة في بلاد أخرى من العالم القديم، في العراق واليونان وفارس والهند، مع درجات في الاختلاف وتباين مجالات الاهتمام. ثم جاء الإسكندر المقدوني في النصف الثاني من القرن الرابع ق.م. و تمكن من قيادة مجموع المدن اليونانية في حملة كبرى ضد الإمبراطورية الفارسية. وكانت اليونان في ذلك الوقت في أعقاب نهضة حضارية عملاقة في مجالات متعددة، في الأدب والفلسفة والتاريخ والفنون. وكان الإسكندر على درجة متميزة من الإحاطة والمعرفة بمعالم تلك النهضة في اليونان، فاصطحب معه في حملته العالمية مجموعة كبيرة من العلماء في شتى العلوم، أفاد من خبرتهم في كل مرحلة من مراحل حملته في قارات العالم الثلاث المعروفة في عصره، أوروبا وآسيا وأفريقيا. كما كلف الإسكندر العديد من رفاقه العلماء والخبراء بدراسة وتسجيل المعلومات المتعلقة بكل بيئة جديدة من بيئات العالم القديم التي وصل إليها، وبذلك تضاعفت المعرفة الجغرافية بالأرض المعمورة ولأول مرة، أمكن عمل خريطة للعالم المعروف. ولعل أهم نتائج حملات الإسكندر وما حرص على تسجيله من كشوف وبيانات ومعلومات قام بها العلماء المرافقون له، هو ظهور إدراك جديد للمعرفة العالمية، ومدى اتساعها وتعدد مظاهرها.



وكان من بين قادة الإسكندر المقربين، بطلميوس بن لاجوس رفيق صباه الذي صاحبه في كل مراحل الحملة، وكان لا يقل عن الإسكندر تعطشا للعلم والمعرفة، فاستطاع أن يستوعب التجربة المعرفية الجديدة في شتى مراحل الحملة العالمية. وحين فوجئ العالم بوفاة الإسكندر المبكرة عام ٣٢٣ ق.م. وهو في سن الثالثة والثلاثين، اختلف القادة على اقتسام تلك المملكة المترامية الأطراف وحرص بطلميوس على أن يأخذ مصر لنفسه ولأسرته من بعده، وقرر منذ البداية أن يجعل الإسكندرية عاصمة لمصر؛ كما شرع في أن يجعلها تتفوق وتتميزعلى شتى المدن في العالم بأسره. وبفضل مينائها الجديد ومنارتها الشامخة، التي شرع في تأسيسها في أثناء حياته ثم أكملها ابنه من بعده، أصبحت الإسكندرية أهم مركز للتجارة في العالم القديم. ثم أراد أن يجعل منها كذلك، أهم مركز علمي في العالم القديم، متفوقة في ذلك على أثينا ذاتها. من أجل تحقيق هذه الغاية سلك السبيل الصحيح، وهو توفير أسباب البحث العلمي على اختلافها، وتجميع العلماء في شتى العلوم، وتشجيعهم على التفرغ لهذه

الأبحاث. أما عن أسباب البحث العلمي ووسائله، فقد بدأها بإنشاء أكبر مكتبة عرفها العالم القديم. وقد اختلفت تلك المكتبة عما سبقها اختلافا نوعيا؛ فقد حرص على أن يجعلها لأول مرة مكتبة عالمية، فأمر «بأن تضم كتابات جميع الشعوب بقدر ما هي جديرة بالاهتمام والدراسة الجادة»، وهو تصور جديد، نسمع عنه لأول مرة في مكتبة الإسكندرية القديمة. وكان بطلميوس مدركا للتكلفة التي تتطلبها تلك المكتبة، فسخر للقائمين عليها ما يلزمهم من المال. وتدريجيا استطاعت إدارة المكتبة أن تجمع مجموع إبداعات العقل اليوناني السابقة في الشعر والنثر، في الأدب والفكر والفلسفة، وكذلك تجمع قدرًا ضخمًا من سجلات وكتابات المصريين القدماء في شتى مجالات المعرفة التي نبغ فيها المصريون في العصر الفرعوني، إضافة إلى أعمال البابليين والآشوريين والفينيقيين والفرس والعبرانيين والهنود. وهكذا تجمع في مكتبة الإسكندرية القديمة تراث الإنسانية العقلي وذلك لأول مرة في تاريخ المعرفة الإنسانية. ومن أجل استكمال أسباب البحث العلمي، أضاف الملوك البطالمة مرصدا لدراسة الفلك الذي كان يحتل مكانة متميزة. وكذلك مراكز لأبحاث الطب وحدائق للنبات و الحيوان لأغراض الدراسة والبحث.

وفي الوقت نفسه سعى الملك البطلمي وخلفاؤه إلى اجتذاب العلماء من شتى أرجاء البحر المتوسط، وأنشأ لهم مركزا للبحث العلمي، وهو الذي أطلق عليه اسم الموسيون، ومعناه لغويا «معبد ربات الفنون والعلوم» اللاتي كُنّ يسمين عند اليونان «موسيه» للواحدة، و«موساي» للجمع؛ وعددهن تسع ربات حسب التصور الديني القديم. وكلمة موسيون هي أصل كلمة موسيوم في اللغات الأوروبية بمعنى متحف. ولكن الموسيون القديم لم يضم آثارا، ولكنه ضم أفضل عقول الأرض في ذلك الوقت. وخير وسيلة لتمجيد الربات وعبادتهن هي أن يبدع العالم أو الفنان عملا جديدا، يعتبر إضافة فنية أو علمية في مجال تخصصه، في الشعر بأنواعه (الملحمة - التراجيديا - الكوميديا)، أو في النثر بأنواعه (التاريخ - الفلسفة - الرياضيات ونحوها...). ومن المعروف أن كلمة موسيقى مشتقة أيضا من لفظة «موسيه» مباشرة.

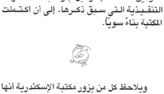
هكذا نشأت في الإسكندرية بيئة علمية متميزة لخدمة العمل العلمي الجاد. فكانت هناك كافة الإمكانيات العلمية المعروفة آنذاك تحت تصرف خيرة العلماء الذين أُحسن اختيارهم. وكان اختيار العلماء وتعيينهم أعضاء يتم بناء على قرار من الملك، وكان التزامهم الأول هو البحث العلمي، وليس التدريس. ويتمتع العلماء الأعضاء بحق الإقامة والمعيشة المجانية في الموسيون، وتناول الوجبات الجماعية، فضلا عن المكافآت والرواتب السخية. ومن الطريف أن نلاحظ أن هذا النموذج السكندري القديم قد أدركت قيمته وجدواه الدول الغربية الحديثة منذ عصر النهضة الأوروبية؛ فهناك في جامعة أكسفورد كلية عريقة تسمى All Souls، يتفرغ العلماء فيها من الشباب والشيوخ على السواء للبحث العلمي، وكذلك في جامعة برنستون الأمريكية «معهد للدراسات العليا» يتفرغ فيه العلماء للبحث العلمي المجرد، ومن أشهر أعضائه في القرن العشرين، أينشتاين الذي كان عضوا به مدى الحياة. كما توجد في هذه الجامعة أيضا عضويات موقوتة لفترات محدودة، يتسابق للفوز بها كثير من الباحثين، و جدير بالذكر أن الدكتور عزيز سوريال عطية مؤرخ العصور الوسطى المعروف - والأستاذ السابق بجامعة الإسكندرية - كان بين من فازوا بهذه العضوية المحدودة من المصريين.

وسرعان ما نبغ في الإسكندرية القديمة، العديد من العلماء الأفذاذ الذين قفزوا بالعلم قفزات عملاقة وأحدثوا ما يمكن أن نطلق عليه ثورة علمية في مجالات متعددة ويكفي أن نذكر هنا أسماء علماء من أمثال إقليدس الذي يُلقب بأبي الرياضيات. ومَنْ منْ دارسي الهندسة لا يعرف إقليدس! ولكن قَلَّ من يعرف أنه ولد وعاش بمدينة الإسكندرية حوالي ٣٠٠ ق.م. ومن أنبغ علماء الفلك، أريستارخس من جزيرة ساموس في القرن الثالث ق.م، وهو أول من نادى بنظرية مركزية الشمس للكون وهو ما رفضه سائر علماء الفلك قديما واعتقدوا أن الأرض هي المركز وأن الشمس تدور حول الأرض. وظل الاعتقاد الخاطئ سائدا إلى القرن السادس عشر حين نادى كوبيرنيكوس بصواب نظرية أريستارخس وأن الشمس هي المركز. وفي الطب نبغ هيروفيلوس بالإسكندرية في القرن الثالث ق.م، ويعتبر مؤسس علم التشريح. ومن إنجازاته في هذا المجال أنه قام بتشريح الجهاز العصبي في الإنسان، وأثبت أن العقل هو مركز التفكير وليس القلب كما كان يظن غيره ومنهم أرسطو نفسه. كما نبغ في الأدب أدباء أعلام مثل الشاعر كاليماخس، الذي أسس مدرسة جديدة في الشعر، سار على نهجها شعراء آخرون في البحر المتوسط، واشتهر كاليماخس بوفرة معلوماته في علوم كثيرة، فكلفه الملك بطلميوس الثاني بعمل موسوعة علمية بمحتويات مكتبة الإسكندرية، ويعتبر لذلك مؤسس علم المكتبات. ولم يصلنا شيء يذكر من أجزاء هذا العمل العظيم سوى إشارات تصفه في كتابات المتأخرين. ولكن يبدو أن كتاب «الفهرست» لابن النديم عن المكتبة العربية في القرن الرابع الهجري كان على نسق موسوعة كاليماخس، وأن استخدام اسم الفهرست كان مقابلا للتسمية اليونانية القديمة وهي «بيناكس» بمعنى جداول. ويمكننا أن نضيف في هذا المجال شاعر الإسكندرية ثيوكريتوس الذي يعتبر مؤسس الشعر الرومانسي وصاحب مدرسة أدبية في هذا المجال.



هذه نماذج قليلة جدا ممن نبغوا في الإسكندرية القديمة في عصر مكتبتها العالمية الشهيرة، ويمكننا أن نضيف إليهم عشرات من كبار العلماء والأدباء والمفكرين. ولكن أردنا فقط في هذا المقال أن نذكر القارئ بالتجربة المتميزة التي سبقت إليها الإسكندرية وكيف أن تلك التجربة الرائدة نجحت نجاحا مُذهلا وأبدعت حركة علمية وفكرية فذة وأن تلك التجربة السكندرية، حذا حذوها وترسم خطاها عدد من الدول المتحضرة بعد ذلك، فأفادوا وأبدعوا وواصلوا مسيرة العلم والفكر والفن، ونهضوا بها نهضة عبقرية ما فتئت تفاجئنا كل يوم بما يفوق الخيال من كشف واختراع.

نحن في مصر نشاهد ذلك يحدث كل يوم، وترتد إلينا أبصارنا مع إحساس مختلط من الحسرة والألم لما نشعر به من العجز عن مجرد إمكانية ملاحقة حركة العلم في العالم حولنا. فقد أصبحنا في موضع التبعية، وغيرنا في موقع القيادة في كل شيء تقريبا. هذا هو الموقف الذي حاولنا التصدي له حين أقدمنا في جامعة الإسكندرية على طرح فكرة إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة. فقد أدركنا أن للوضع القائم من التخلف العلمي أسبابا كثيرة معقدة، منها ما هو سياسي واقتصادي واجتماعي. وكان لابد، إذا أردنا أن نخرج من وضع التبعية العلمية، أن نبدأ عند نقطة محورية. نظرنا إلى تجربتنا الرائدة القديمة التي أخذ بها العالم المتحضر من بعدنا، فرأينا أن افتقار مصر إلى مكتبة عالمية قادرة على تلبية متطلبات البحث العلمي الحديث بمستوياته المعاصرة يمثل مكمن الداء، أو نقطة جوهرية منه على الأقل. ويكفي أن ننظر إلى أكثر الدول تحضرا، نجدها تمتلك أعظم المكتبات وأغناها على المستوى العالمي مثل مكتبات الكونجرس والبريطانية والأهلية الفرنسية.. ونحوها كثير. هناك بطبيعة الحال مظاهر وأسباب أخرى عديدة، ولكن المكتبة مظهر واحد مشترك. لذلك قررنا عام ١٩٨٥ أن نطرح على الدولة أن تتقدم لليونسكو بفكرة إحياء مكتبة الإسكندرية. وكانت المفاجأة السارة أن تقبلت منظمة اليونسكو الفكرة بجدّية واهتمام؛ وحضر إلى الإسكندرية مدير عام المنظمة في ذلك الوقت أحمدو مختار مبو، وأبدى حماسا صادقا، وقال في حديثه المتدفق إنه يؤيد فكرة إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة على أساس أننا نحاول إحياء وتجديد تجربة علمية وثقافية رائدة في تاريخنا القديم أثبتت نجاحها. ومما يدل على عمق استيعابه وشدّة إيمانه بخطورة هذا المشروع قوله أيضا إنه يعتقد أنه إذا أمكن تحقيق هذا المشروع بمستوى الفكرة التي أوحت به، فقد يؤدي إلى تغيير الخريطة الثقافية في المنطقة بأسرها. ثم جاء القرار الحاسم من المجلس التنفيذي لليونسكو في يونية ١٩٨٦ بالموافقة بما يشبه الإجماع (من مجموع ٥١ عضوا، وافق ٤٩ صوتا ضد صوتين، أحدهما إسرائيل!) وتتابعت الخطوات التنفيذية التي سبق ذكرها، إلى أن اكتملت المكتبة بناءً سويًا.



يسجل كاتب من زمن الإسكندر الأكبر إعجابه بتفوق الكهنة المصريين في مجال دراسات الفلك، وهو هيكاتيوس الأبديري الذي يقول: «إنهم - إلى يومنا هذا - يحتفظون بسجلات كل من النجوم والأفلاك على مدى طويل جدا من السنين يصعب تصديقه...، ونتيجة لملاحظاتهم الفلكية المتصلة، أصبح باستطاعتهم التعرف مسبقا على وقوع الزلازل، والفيضانات، وتحديد بزوغ الكواكب»

ويلاحظ كل من يزور مكتبة الإسكندرية أنها تكوين مُركّب متعدد المرافق والأنشطة الثقافية؛ فهناك القبة السماوية ذات التصميم الهندسي المتميز وهي قسم أصلي من التصور المعماري النرويجي الفائز بالجائزة الأولى. وهو يُذكرنا مباشرة بمرصد الإسكندرية القديم وإنجازات علمائها في الفلك. وهناك أيضا معرض لنوادر المخطوطات العربية التي تعتبر من ذخائر المكتبة، وبعض المطبوعات الأولى التي منها ما يرجع إلى القرن السادس عشر، أي مع بدايات اختراع الطباعة الحديثة. ولم يمكن الحصول على نسخة أصلية من الكتاب المقدس الذي صدر عن مطبعة جوتنبرج في ماينتز بألمانيا في القرن الخامس عشر، فحرصت إدارة المكتبة على شراء مصورة حديثة لتلك الطبعة الأولى القيّمة، على سبيل الرمز إلى أول إنجاز كبير لاختراع آلة الطباعة الحديثة التي أحدثت ثورة كبرى في الثقافة الإنسانية. ومن بين قاعات العرض ما يضم مجموعة خطيّة جميلة من كتابات الراحل محمد إبراهيم مؤسس مدرسة تحسين الخطوط في المنشية بالإسكندرية، وأول من كتب القرآن الكريم على صفحة واحدة. وكذلك قاعة كبيرة



سعد بن معاذ
(الطبقة الأولى من الأنصار)

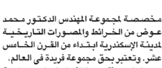
ابن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، ويكنى أبا عمرو، وأمه كبشة بنت رافع بن معاوية بن عبيد بن الأبجر، وهو خدرة بن عوف بن الحارث ابن الخزرج وهي من المبايعات. وكان لسعد بن معاذ من الولد عمرو وعبد الله وأمهما هند بنت سماك بن عتيك بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، وهي من المبايعات، خلف عليها سعد بعد أخيه أوس بن معاذ.

أخبرنا محمد بن عمر قال: أخبرنا إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة عن واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ قال: كان إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير على يد مصعب بن عمير العبدري، وكان مصعب قدم المدينة قبل السبعين أصحاب العقبة الآخرة يدعو الناس إلى الإسلام ويقرئهم القرآن بأمر رسول الله ﷺ، فلما أسلم سعد بن معاذ لم يبق في بني عبد الأشهل أحد إلا أسلم يومئذ فكانت دار بني عبد الأشهل أول دار من الأنصار أسلموا جميعًا.

قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثني عبد الله بن جعفر عن سعد بن إبراهيم وعن ابن أبي عون قالا: آخى رسول الله ﷺ بين سعد بن معاذ وسعد بن أبي وقاص. قال وأما محمد بن إسحاق فقال: آخى رسول الله ﷺ بين سعد بن معاذ وأبي عبيدة بن الجراح فالله أعلم أي ذلك كان.

قال: أخبرنا الفضل بن دُكين قال: أخبرنا إسماعيل بن مسلم العبدي قال: أخبرنا أبو المتوكل أن نبي الله ﷺ ذكر الحُمَّى فقال: من كانت به فهي حظه من النار. فسألها سعد بن معاذ ربه فلزمته فلم تفارقه حتى فارق الدنيا.





مخصصة لمجموعة المهندس الدكتور محمد عوض من الخرائط والمصورات التاريخية لمدينة الإسكندرية ابتداء من القرن الخامس عشر. وتعتبر بحق مجموعة فريدة في العالم.

ولعل من أقيم ما تشتمل عليه مكتبة الإسكندرية الآن، قاعة كبرى لمتحف الآثار الذي تقدم به المجلس الأعلى للآثار. وقد تطورت فكرة هذا المتحف من الاتفاق منذ عمل المشروع الهندسي على أن يُعرض عند المدخل ما يعثر عليه من آثار في موقع البناء. ولما تم اكتشاف أرضيات الفسيفساء الجميلة (واحدة تمثل كلبا اكتسب شهرة عالمية لدقة صناعته وجمال ألوانه. ويقال إنه عندما عرضت هذه القطعة في معرض «كليوباترا والإسكندرية» في شيكاغو، استأثر فسيفساء الكلب بانتباه الجمهور. والفسيفساء الثانية بقي نصفها فقط، والجزء الموجود مصور به أجزاء من مصارعين ملتحمين أحدهما بقي جسمه الأبيض والآخر بقي رأسه الأسود، ولا يخفى ما يمثله هذان المصارعان من رمز). هذا إلى جانب أعمال فنية أخرى أمكن الحفاظ عليها. ولذلك تم الاتفاق بين الدكتور جاب الله علي جاب الله، الأمين العام السابق للآثار والدكتور محسن زهران مدير مشروع المكتبة آنذاك، على أن تخصص قاعة كبرى للآثار تمثل تراث الإسكندرية ومصر. وقد أمكن تجميع مجموعة رائعة من الآثار المصرية القديمة من مخازن عدد من المتاحف والمواقع الأثرية في أنحاء مصر. كما شملت أحدث الاكتشافات الأثرية في قاع البحر أمام ساحل الإسكندرية وأبي قير، من أجملها على الإطلاق تمثال الإلهة إيزيس كُشف عنه عام ٢٠٠٠ أمام ساحل أبي قير، وهو تمثال من البازلت الأسود، أبدع فيه الفنان المصري في تصوير الجسم البض الذي يكاد ينبض حيوية وأنوثة وجمالا. وما من شك أن وجود متحف الآثار منح المكتبة بُعدا ثقافيا ومعرفيا، ويضفي عليها عراقة وقيمة تتكامل مع مجموعة المخطوطات العربية الأصلية والمطبوعات الأولى.

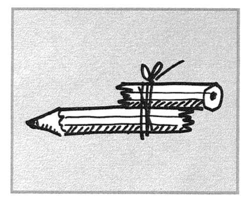


وأخيرا، ونظرا لأن جامعة الإسكندرية كانت قد تنازلت عن مبنى مركز المؤتمرات الكبير ليكون جزءا من منظومة مؤسسات المكتبة وفي خدمة أغراضها وأنشطتها، نشأت ضمن تنظيمات المكتبة إدارة للنشاط الثقافي والفني. وقد أبدت إدارة المكتبة برئاسة الدكتور إسماعيل سراج الدين، اهتماما بالغا بهذا النشاط الثقافي المتنوع، فتعاقبت الندوات والمحاضرات، وأقيمت حفلات موسيقية متنوعة ومعارض للفنون التشكيلية، ومعارض جيولوجية وعلمية (تُصوِّر نشأة الكائن الحي)، ومعرض تراثي لأعمال ومقتنيات الفنان الراحل شادي عبد السلام.

يتبين من هذا العرض السابق أن مكتبة الإسكندرية الجديدة تكوين مركب متعدد الأنشطة في عدة اتجاهات، قلما اجتمعت في مكتبة أخرى. ورغم هذه الثروة في العروض والأنشطة والمناسبات ذات الطابع الثقافي الرفيع، يظل هناك سؤال محوري يشغل الرأي العام الجاد، وهو يتعلق بالهدف الأساسي من فكرة إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة، الذي اقتنع به وتبناه اليونسكو، وتحمست له الإنسانية جمعاء. لقد جاء في المشروع الأصلي الذي تقدمت به مصر وأقره اليونسكو أن يُنشأ في الإسكندرية مركز للبحث العلمي بأعلى مستوياته العالمية المعاصرة، لعله بذلك يجدد ذكرى ما قام به مركز البحث العلمي (الموسيون) في الإسكندرية القديمة. ولعل هذا هو التحدي الحقيقي أمام إدارة المكتبة، وهو أن تتوفر جميع إمكانيات البحث العلمي الرفيع بالمستويات العالمية. إن النشاط الثقافي الراقي أمر مرغوب فيه ويلزم توفيره لجمهورنا المتعطش للثقافة، ولكن إقامة القدرة على خلق بيئة علمية قادرة على تحريك الحركة العقلية والعلمية من المستوى المتدني الذي هبطنا إليه، لهي عملية بالغة المشقة. وهي تتجاوز بكثير القدرة على تحقيق البناء وتوفير مرافق النشاط الثقافي، إنها بحاجة إلى تضافر عقول أعدت إعدادا علميا رفيعا تستشرف آفاق المعرفة وتدرك مكامن وحركة العلوم المعاصرة، وتعرف سبل ممارستها وامتلاك ناصيتها. وهذا قد لا يتحقق إلا بإمكانيات مالية كبرى وقدرات بشرية مدركة واعية وقادرة على البذل والعطاء العقلي المتصل. ومثل ذلك لا يؤتي ثماره إلا بالعمل الهادئ المتصل البعيد عن بريق الأضواء. وهو أمر يصعب علينا ممارسته حسب ما نشاهده حادثا كل يوم.

كثيرا ما نردد عبارة شائعة، وهي أن العلم والمعرفة قوة. ولكننا لا ندرك إدراكا واضحا أن العلم والمعرفة قوة في يد من يصنع العلم ويحرك المعرفة في العالم، وليس في يد من يتلقى ذلك العلم أو يردد عبارات تلك المعرفة. ونحن في الوقت الراهن تغلب علينا حالة ذلك المتلقي للعلم الذي يصنعه غَيرُنا أو من يردد أنماط المعرفة المستوردة. فهل تستطيع تجربة مكتبة الإسكندرية الجديدة أن تكون رأس الحرْبة التي تشق طريقا نحو مستقبل أكثر تفاؤلا، وتنقلنا من وضع التبعية الذي نعانيه، لنتحول إلى وضع المشاركة والمساهمة الإيجابية في حركة العلم والمعرفة العالمية؟ إن كثيرين منا يتطلعون إلى ما بعد الافتتاح بنجاح وأمان إن شاء الله. لعل إدارة المكتبة - بدعم كامل من الدولة والمجتمع - تتمكن من التفرغ لمواجهة التحدي القاسي الذي عليها أن تواجهه، وأن تحقق الآمال المعقودة على مكتبة الإسكندرية، لتقوم في عالم اليوم بدور مماثل للدور الذي قامت به الإسكندرية القديمة في عالم الأمس. وربما تتحقق نبوءة أحمدو مختار مْبو، بأن هذا المشروع إذا أمكن تحقيقه بمستوى الفكرة التي أوْحت به، فقد تُحدث تغييرا في الخريطة الثقافية في المنطقة بأسرها. ■

العلم .. للفقراء أيضًا



أحمد زويل



استخدام برامج المساعدات من أجل مساعدة أنظمة حاكمة بعينها خطأ كبير، حيث أظهر التاريخ أنه من مصلحة العالم المتقدم أن يساعد سكان الدول النامية كافة



يتمتع خمس سكان العالم فقط بمنافع الحياة فى «العالم المتقدم»، ولا تزال الفجوة بين الأغنياء والفقراء تزداد اتساعًا، الأمر الذى يُعَرِّض الاستقرار للخطر. وطبقًا لبيانات البنك الدولى، فإن من بين ٦ مليارات شخص موجودين على الأرض يعيش ٤,٨ مليار فى الدول النامية، منهم ٣ مليارات بدخل يومى يقل عن دولارين، و ١,٢ مليار بأقل من دولار واحد يوميًا، وهو ما يحدد مستوى الفقر المطلق. كما أن ١,٥ مليار شخص لا تصلهم المياه النظيفة.

ورغم طموح العولمة فى المقام الأول إلى مساعدة الدول فى الازدهار والتقدم، فقد فُصِّلت بحيث تناسب تلك الشريحة من سكان العالم القادرة على استغلال الموارد الطبيعية والأسواق. وقد بلغ نصيب الفرد من إجمالى الناتج القومى ـ وهو إجمالى ناتج السلع والخدمات الاقتصادية التى تنتج داخل بلد ما قياسًا بالقيمة النقدية ـ ٣٥ ألف دولار فى بعض الدول الغربية مقابل حوالى ألف دولار فى كثير من الدول النامية، وما يقل عن ذلك كثيرًا فى الدول المتخلفة. فعلى سبيل المثال، وطبقًا لإحصائيات الأمم المتحدة، فإن نصيب الفرد فى أنجولا ٥٢٨ دولارًا، والصين ٧٧٧ دولارًا، وكوريا الشمالية ٤٣٠ دولارًا، وكوريا الجنوبية ٦٩٥٦ دولارًا، والولايات المتحدة ٣١٠٥٩ دولارًا، واليمن ٣٥٤ دولارًا. وسوف يؤدى هذا الموقف إلى تفاقم عدم الاستقرار العالمى ما لم يمنعه أحد.

حواجز التقدم

تواجه الدول النامية أربعة حواجز تحول دون بلوغها وضع العالم المتقدم. فمعدلات الأمية المرتفعة فى دول كثيرة تعكس فشل الأنظمة التعليمية وترتبط بزيادة مفزعة فى معدلات البطالة. الأمر الثانى هو أن الاستفادة المحدودة من الموارد البشرية ـ وهو ما يعود بصورة كبيرة إلى الهيمنة التراتبية والأسبقية القوية، ومركزية السلطة ـ تقمع الفكر الجماعى وتكبت القدرات الإنسانية. والثالث هو أن تداخل قوانين الدولة مع المعتقدات الدينية يحدث الاضطراب والفوضى، من خلال إساءة استخدام رسالة الدين الأساسية بشأن مكونات الحياة الأخلاقية والإنسانية. أما الرابع فهو وجود رؤية مفككة للعلم والتكنولوجيا.

وليس عدم وجود قاعدة صلبة من العلوم والتكنولوجيا ناتجًا فى كل الأحوال عن قلة رأس المال أو الموارد البشرية. بل إنه ينبع فى بعض الأحيان من عدم تقدير الدور المهم الذى يقوم به العلم والتكنولوجيا فى التنمية، ومن طرق البحث المفككة الخاصة بإنشاء مثل هذه القاعدة، وعدم وجود سياسة متكاملة تتناول الحاجات القومية والموارد البشرية والرأسمالية. وتعتبر بعض الدول التقدم العلمى ترفًا، فى ظل وجود مشاكل أخرى أكثر إلحاحًا. وتعتقد دول أخرى أن الأساس يمكن بناؤه عن طريق التكنولوجيا الآتية من الدول المتقدمة. وهذه المعتقدات تترجم إلى تقدم ضعيف، أو معتدل على أكثر تقدير، يقوم على جهود الأفراد وليس ما تقوم به فرق العمل المؤسسية.

وتشير هذه القضايا إلى ثلاثة مكونات أساسية من مكونات التقدم. المكون الأول هو بناء الموارد البشرية عن طريق محو الأمية، وضمان مشاركة المرأة الإيجابية فى المجتمع، وإصلاح التعليم. والمكون الثانى هو إعادة النظر فى الدساتير الوطنية بما يسمح بحرية الفكر والحد من البيروقراطية وإيجاد نظام للقيم وخلق نظام قانونى موثوق به وقابل للتطبيق. أما المكون الثالث فهو بناء قاعدة علمية.

وأسس القاعدة العلمية استثمار فى التعليم الخاص بالموهوبين، وإقامة مراكز للتفوق، وإتاحة الفرصة لتطبيق المعرفة فى الأسواق الصناعية والتجارية فى البلاد ثم العالم كله فى النهاية. ولابد أن يسير هذا جنبًا إلى جنب مع خطة للتعليم العام بمدارس الدولة وجامعاتها. وبمثل هذه الرؤية سوف تظهر الثقافة العلمية التى تعزز قدرة البلاد على متابعة المشاكل المعقدة ومناقشتها بطريقة عقلانية وجماعية. ويصبح التفكير العلمى ضروريًا لنسيج المجتمع.

ويشعر كثيرون بأن الثقافة العلمية قاصرة على الدول المتقدمة وحدها. بل إن البعض يؤمن بنظرية المؤامرة، وهى أن الدول المتقدمة لن تساعد الدول النامية كى تسيطر هى على تدفق المعرفة. وأنا لا أقر هذه النظريات. فالأمثلة الحديثة التى ضربتها الصين والهند وغيرها بنجاحها فى السوق العالمية ناتجة عن أنظمتها التعليمية المطورة والمهارات التكنولوجية فى قطاعات بعينها. والمطلوب لتحقيق النجاح فى إيجاد ثقافة علمية هو قبول المسئولية فى التعاون بين الدول النامية والدول المتقدمة.



والدول النامية بحاجة إلى مراكز للتفوق، ليس فقط للأبحاث والتنمية، بل كذلك لتدريب الخبراء فى التكنولوجيات المتقدمة، وبذلك نحد من نزيف العقول الذى يعانى منه الكثير من تلك الدول. ومن المهم ألا تكون تلك المراكز مجرد ممارسات للعلاقات العامة؛ إذ ينبغى أن تكون قاصرة على بضع مناطق كى تحوز الثقة والاعتراف.

ولتحقيق هذه الغاية، لا بد أن تُدَعِّم الموارد الوطنية البحث والتنمية بطريقة انتقائية، باتباع المعايير الراسخة القائمة على القيمة والتميز. ولإرشاد السياسة الوطنية، ينبغى على الحكومة فى أعلى مستوياتها إنشاء مجلس إشراف خاص بالعلم والتكنولوجيا يتكون من الخبراء الوطنيين والدوليين. وبدون الالتزام الجاد بهذه المبادئ، سيظل التقدم محدودًا.

أساس النجاح

حققت بعض الدول النامية تقدمًا يحظى بالإعجاب فى تلك المجالات، ويعكس ذلك ما حدث من تقدم فى الهند وكوريا الجنوبية وتايوان. وفى مصر تشارك جامعة العلوم والتكنولوجيا فى تجربة تنفذ على مساحة ٣٠٠ فدان مقدمة من الحكومة على أطراف القاهرة. وتنتظر الجامعة إقرار قانون جديد يجعلها منظمة غير حكومية لا تستهدف الربح.

ولكن مسئولية الدول المتقدمة كذلك هى التركيز على برامج المساعدات. وعادة ما توزع حزمة المساعدات بين الكثير من المشروعات، ويؤدى عدم وجود متابعة إلى تناثر الموارد وفى بعض الحالات الفساد. ولذلك لا تؤدى المساعدات إلى تحقيق نجاح كبير. ويمكن بلوغ مركز الاهتمام الحقيقى عن طريق إنشاء ما أسميها «المساعدات التى توجهها الشراكة»، حيث يوجه جزء كبير من المساعدات إلى معايير الاستفادة من التفوق الموضوعة فى الدول المتقدمة.

ولا بد أن يكون هناك كذلك تقليل إلى أدنى حد للسياسة فى المساعدات. فاستخدام برامج المساعدات من أجل مساعدة أنظمة حاكمة بعينها خطأ كبير، حيث أظهر التاريخ أنه من مصلحة العالم المتقدم إلى حد كبير أن يساعد سكان الدول النامية كافة. وينبغى أن يكون برنامج المساعدات مثاليًا فى مهمته ومعينًا للاستثمار فى التنمية المستقبلية. ويمكن للدول المتقدمة إما أن تمنح المال كنوع من الإحسان، أو أن تصبح شريكة، حيث توفر الخبرة وخطة المتابعة.

وتعترف بعض الدول المتقدمة بأهمية الشراكة، وخاصة مع جاراتها. وتشمل أمثلة ذلك الولايات المتحدة والمكسيك، وغرب أوروبا وشرق أوروبا. ويمكن تحقيق النجاح الحقيقى بشرط أن يكون هناك التزام مخلص بالشراكة. وهذا فى مصلحة كل من الدول المتقدمة والدول النامية إلى أكبر حد من أجل التعايش السلمى فى عالم من الإنسانية المتحضرة. ■

ترجمة: أحمد محمود



تفصيل من لوحة للفنان روبنز

الرومانتيكية

فاروق وهبة

كانت الرومانتيكية كحالة من حالات التفاعل النفسى المفعم بالتجليات الغائرة فى الأعماق والصادرة عن دمج حسى شديد الخصوصية تجاه رمز فى الحياة يتعلق به الإنسان ويبذل فيه من تفاعل ذاته، ما من شأنه تعديل الكيمياء الداخلية التى تتحكم فى إفرازات غدده بما يرديه رهينة تجاه هذا الرمز سواء كان عاطفة أو إسقاطًا فنيًا أو إبداعيًا، وكانت هذه الحالة تعد سببًا جوهريًا فى إبداع الفنان لآماد بعيدة من الزمن، وهى التى تتحكم فى مدى صدقه وصدق فنه بل أيضًا فى استمراره.

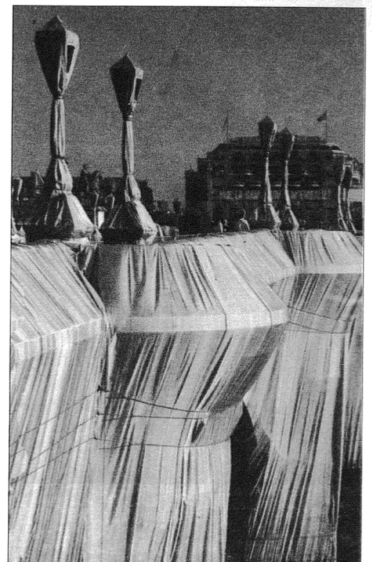
وتطورت الرومانتيكية بتطور العصر، حتى أن العلم أدلى بدلوه وفرض على الفنون أشكالاً أخرى من التجليات ومن نزوع الفكر، وأفرزت الفلسفة وعلم الجمال نظريات لم تكن تطرأ على بال وانتهى القرن العشرون بذهاب الفن إلى أبعاد مفرطة فى التبدل والتحول حتى أصبح العمل الفنى مخاطرات تنتهى بانتهاء العرض وذهب الفنان إلى استخدام من الخامات والمخلفات الآدمية المقززة ما يدعو إلى الغثيان بغرض فرض الصدمة على المتلقى، حتى إننا لا نستطيع المكوث للحظات بعروض بومبيدوسنتر بباريس من شدة الروائح الكريهة لبعض العروض الفنية المتوافدة.

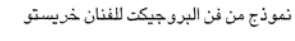
وأفرزت هذه الرومانتيكية مدارس فنية فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كالوحشية والميتافيزيقية والدادية والسيريالية.

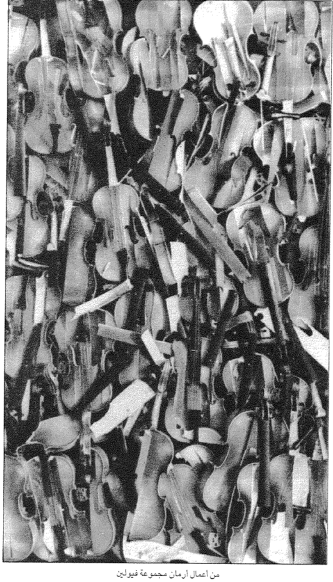
وظلت هذه المدارس والاتجاهات تتحكم فى منافذ الفكر الفنى حتى الأربعينيات وحتى ذهاب سلفادور دالى ذاته فى نهاية الستينيات وقد أظهرت هذه الاتجاهات مدى اغتراب الفنان وعزلته عن المجتمع ورفضه والثورة عليه بغرض إعادة بنائه بالشكل المثالى الذى يحسه الفنان ويشفى تطلعاته نحو رؤية أفضل للواقع المثالى.

وما كانت المثالية فى حد ذاتها قادرة على إحلال الفكر الأفضل والمدينة الفاضلة بل كان الإصرار عليها إصرارًا رومانتيكيًا، ذهب بالفنان إلى عزلة قصية عن العالم أدت ببعض منهم إلى قتل الذات أوالانتحار، وكنا نرقب نموذجًا كالفنان الأديب «جان كوكتو» يلقى بنفسه من نافذة قطار مسرع يستقله لمجرد إعجابه الشديد بمنظر فى الطبيعة ظهر فجأة أمامه بغرض التملى به والعيش فيه والتمتع بجزئياته.

إننا نعد الآن أمام فكر يشابه فكر العوالم الفضائية الخارجة عن حدود الأرض، حتى أن اللغة الفكرية قد تغيرت تغير إنزيمات العقل البشرى وأيونات الأجهزة الإلكترونية.




نموذج من فن البروجيكت للفنان خريستو


من أعمال أرمان مجموعة فيولين

فى زمن صناعة الفنان

وقد ألقت العولمة بظلالها على العالم الذى مازال مليئًا بالقبليات والعصبيات التى تندرج تحتها الشخصية القومية، والخصوصية فى مقابل الإلحاح الجارف على إذابة الإنسان ليلتصق فى كل واحد يمكن تحريكه بالتحكم عن بُعد، ويصبح هذا الكل مصدراً قويًا للاستهلاك السلعى الذى يخلف نفايات خليقة بأن تجعل هذا العالم بؤرة فائقة للتلوث والموت البطئ.



وقد رفض النموذج الحالى للفنان اليوم الشكل الرومانتيكى المعهود لفنان القرن التاسع عشر ذلك النموذج التلفزيونى المحمل بفكرة إهماله لمظهره مكتفيًا بما يعتمل بداخله من تحليق فى التجليات إمعانًا فى أن المظهر لا يتكافأ مع الجوهر حتى أضحى جسدًا لمظهر مهلهل يثير كثيرًا من السخرية ويعد نموذجًا تلفزيونيًا للكوميديا.

أما فنان اليوم الذى يتمتع برؤية حديثة فى الرومانتيكية التكنوفوقية التى تصدر من إشعاعات المونيتور والبرمجة، حتى أصبحت تجربة العروض الفنية وعروض الصالونات والمتاحف ضربًا من الهزل، بل صب هذا الفنان جام خياله فى أروقة البرمجة والحفظ والداتا وعالم القدرة الفائقة من الخيال الافتراضى، إذن فهذه الرومانتيكية المشذبة والمصاحبة لظروف هذا العالم الحديث الجارف، كان لها وقع الصفع على وجوه المحافظين والمتململين الذين يعنون توقف عجلة الزمن بل جرت هذه الثورة الفكرية التكنولوجية كل التاريخ لقلب صفحته إلى عالم جديد، فلا غرو فى أن تتفوق تلك المتغيرات المتلاحقة فى السنوات العشر الأخيرة من القرن الماضى على كل أحداث المسار التاريخى فى المائة عام الماضية عليه.

ونستطيع أن نطرح سؤالاً جوهريًا هنا، أى فن يمكن أن يُمَارس فى هذا المضمار الفائق السرعة والمتلاحق الخطو والمنفلت المقدرات، إن فنان اليوم ذلك المتأنق حليق الرأس والذى يأخذه المكوث أمام المونيتور قرابة أربع عشرة ساعة متواصلة صادف ضربًا آخر من العزلة عن المجتمع بل أصبح هناك ما يدعى بأمراض الكومبيوتر، فالجالس عليه أصبح له شكل خاص من انحناءة الظهر، واختلفت لغته عن لغة المجتمع وذابت خيالاته واتحدت مع شكل الشبكة الإلكترونية والترموستات الكهربية، وأصبح مجتمعه أعضاء أندية الكومبيوتر ولغته لغة الرسائل والشفرات، حتى رغباته وعواطفه قد يبحث عنها فى «الويب سايت» بل قد أثيرت فى هذا المضمار تساؤلات

نموذج من فن «البروجكت» الرسم على الجزر

الرومانتيكية في زمن صناعة الفنان

طريقة عما يكون مكان الفن، أهو في الدماغ أم في إخمص القدم وأخذوا لا يتحدثون عن القلب إلا لمامًا.

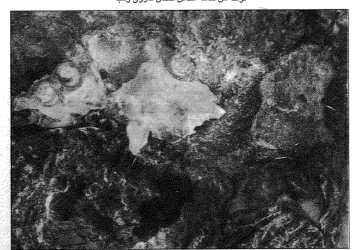
فأي فن يمكن أن يُمَارس من نوع هذا الإنسان المبرمج بل إن الخيال العلمي وهوأحد نماذج إبداع فنان اليوم يستقي أعماله من واقع آخر لا يشبه واقعنا من قريب أو بعيد، وهذا يختلف عن السيريالية التي أخذت نفس واقعنا وحطمته وأعادت بناءه من جزئياته السابقة لتطرح مقترحًا جديدًا لعالمنا القديم، بل إننا نقف مشدوهين أمام الأعمال الفنية المعروضة في بينالي فينسيا ٢٠٠١ التي حطمت حتى تعاليم الدادية ورائدها وفيلسوفها «مارسيل دوشامب» التي كانت تعد فلسفة طرد أفكار القرن التاسع عشر وانعكاسا لفلسفة العلم وكراهية الحروب، إن أعمال فينسيا ٢٠٠١ هي تتويج للغة الكومبيوتر، وعلامات الغد الموحش والمغرق في الهوس والتبدل والشطط.

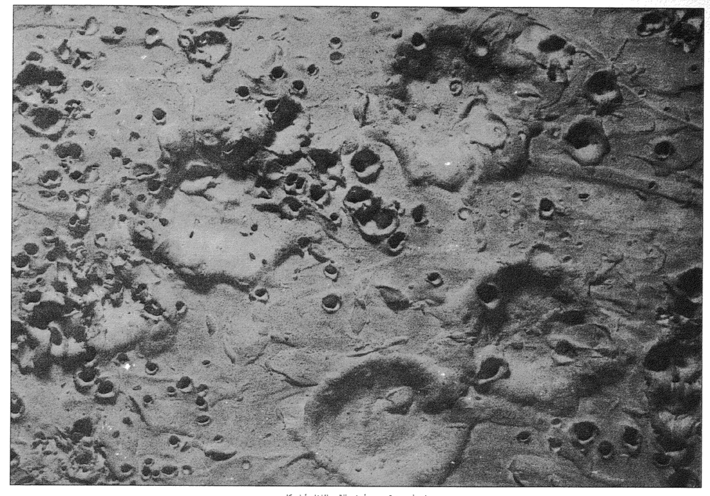
وهنا يأتي الإيذان ببطلان أضرحة الفن والتي تدعى المتاحف فكل الأعمال المعاصرة في المعارض الدولية هي أعمال مركبة أو حركية أو أعمال الكومبيوتر وتنتهي هذه الأعمال بانتهاء العرض، أي أنه لا توجد فرصة لإضافة مثل هذه الأعمال لتكون نموذجًا يوضع بالمتحف للتعريف به في المستقبل، بل أصبح المتحف فكرة معرضة للبطلان بعد أن سحبت الحكومات الدعم المادي له وتعرض لظروف الخصخصة التي بحثت عن الوسائل التي توفر عائدًا من هذه المتاحف فقامت بأعمال الاستنساخ وطبع اللوحات على الـ«تي شيرت» وعلى أغطية الرأس والأكتاف، ومجالاً للوفود السياحية كسلع ثقافية.

وبالرغم من هذا فالراغب في زيارة أي متحف في العالم عليه ببساطة أن يفتح الكومبيوتر ولا يكلف نفسه عناء السفر ويبحث في الإنترنت.

بل لقد ذهبت الثقافة الجديدة التي يتحكم فيها التوازن الاقتصادي في العالم إلى بعد غير متوقع، حيث أصبحت الثقافة سلعة جيدة لموضوع غسيل الأموال، فأضحت دور العرض في أوروبا وأمريكا تدار وتمول من بارونات المخدرات في أمريكا اللاتينية

لوحة من خامة اللدائن للفنان فاروق وهبة





نموذج من تصوير أرض القمر للفنان أيف كلين

وأصبح هناك جاليرى مارلبورو، وجاليرى فيليب مورس.

وظهرت أشكال من الفنون لم تكن في أي عصر تمر من مصفاة القيمة الفنية ولا أن يكتب لها الظهور بأى شكل من الأشكال. ولكن هذه هى لغة العصر ومنافذه التى تلقى ظلالها على كل شىء حتى على الثقافة بل نذهب أكثر من ذلك إلى اعتبار نسبية القيمة وتغيرها بعد أن كانت ثابتة ومحل القياس ولا تخضع إلى بطلان، وذلك مرده إلى سرعة المتغيرات المعاصرة وسرعة وسائل الاتصال وتعقيدها وتقدمها، فلك أن تتخيل معى، ما يمكن أن تصل إليه الهندسة الحيوية فى تكثيف الكائنات وتحويلها وإخضاعها إلى تحكم الجينات والنبضات الكهربائية، فقريبًا سوف تتحول أنت إلى نبضة كهربائية يمكن إرسالها من هنا عن طريق جهاز إرسال لتصل إلى المكان الآخر الذى ترغب فيه ولا يكلفك هذا عناء السفر المعتاد، فهل يمكن أن تجيبنى أى أحلام أو تجليات، يمكن أن تنتابك وأنت فى الطريق، إن هذا الأمر يحتاج إلى عمق لا نستطيع تخيله الآن ولكنه قادم قريبًا لا محالة.

وإن كنت قد انتابتك رومانتيكية من نوع ما فى الماضى وأتت بك إلى نوع من الإبداع يمكن أن يحمل بصمتك، فأنت مدعو الآن لأن تدخل كبسولة التحول وتخضع لتحليل كل خلاياك وخلايا مخك وأحاسيسك وتفاعلاتك كعينات للبرمجة يمكن بعدها إعداد برنامج كامل للإبداع تظهر فيه بالدرجة الأولى حقيقة مهمة هى الاستغناء عنك، فيتحول الفن والإبداع إلى صناعة برمجية تنتج سلعًا تناسب عالمًا جديدًا آتياً، وليبق أثر الإنسان فى الأثير لعله يأتى ثانيًا بعد آلاف السنين ليذكرنا بآلام فرتر، والرومانسية الموجعة، ولذة الإنسانية والتجلى والحلم.

وهنا نستطيع أن نتوقف أمام لفظة الجمال التى لم يعد لها دور بارز فى النظريات الجمالية، والتى من شأنها أن توجه كدور رئيسى ما يعتمل فى فكر الحركات والاتجاهات الفنية المعاصرة، فقد حلت محل اللفظ فى معناه العام الشامل عبارة «القيمة الاستاتيقية» ومن الضرورى توضيح اللفظ على أوضح نحو ممكن، حيث يحتوى المعنى فيه على شقين، الجمال والقبح فى آن واحد، فيرى الفنان المعاصر أن بعض الموضوعات القبيحة ذات قيمة استاتيقية، وأن بعض الأشياء ليست جميلة بالمعنى المألوف ولكنها طريفة وتجذب الانتباه، فليس كل ما هو جميل فنيًا، وليس كل ما هو قبيح فاقدًا للقيمة الاستاتيقية.

ومن الخطأ رصد فكرة تقييم القبح من الناحية الاستاتيقية فى العصر الحالى فقط، ولكن علينا أن نمعن فيما قاله أرسطوسلفًا، إن القبح أساس للكوميديا، وقد كان المصور هيرونيموس بوش ١٤٥٠/١٥١٦ يصور العنصر الشيطانى وجو المقابر والموت فى أعماله التى كانت نقدية بصورة واضحة، نقد فيها الفكر الدينى والسلوك الدنيوى.

وإن كانت الرومانتيكية قد ظلت شرط الإبداع وشرط الفن لآماد بعيدة، فقد كانت شرط استقبال هذا الفن كذريعة تثير المتلقى وتقوده ناحية العمل الفنى انقيادًا يثير فيه غرائز الإعجاب بالتجلى والإلمام به والاتحاد معه والتمايل به عجبًا.

وتحكمت هذه الحالة الوجدانية فى تحديد شكل الفن الصادر من جرائها، ذلك الفن الذى أظهر الجعبة الداخلية للفنان ومدى تأثره بالطبيعة والتفاعل معها، وكانت آلام التجليات، وتجليات الوجد الفنى شديدة الخصوصية، وصارخة فى ردود فعلها حتى أنها فى بعض الأحيان أضحت شبيهة بحالات العصاب المؤقت.

وظلت الرومانتيكية ولعصور ليست قليلة شرط الإبداع ومنطلقه وإن تطور الفكر منذ «آلام فرتر» وحتى الميتافيزيقيات المعروفة، إلى الفلسفة الوجودية وفكر سارتر وكولن ولسن والبير كامى وسيريالية دالى وشطحات جان كوكتو ومسرح العبث وألعاب صمويل بيكيت، كانت كلها تجليات فنان مثقف قد عبر الطريق الوعر بينه وبين ذاته وغمره بوجد الوصل الثاقب، حتى ذهب إلى عالم خاص يمتلكه هو ولا يمتلكه الآخرون وأصبح رسولاً يريد أن يوقظ البشرية وليس أدل على هذا إلا تلك المأثورة التى تلاها «أبولونير» حين قال: «نحن الطالبين فى كل مكان غمار الأفق، لسنا بأعداء لكم، نريد أن نمنحكم كل الرحاب الغريبة، حين يزدهر السر الخفى، ويبيح نفسه لمن أراد اجتناءه هناك أوقدت نار جديدة، وتراءت ألوان لم تبصرها عين، وأومات خيالات شفافة تريد أن تتجسد، فرحمة بالهائمين أبدًا على مشارف اللانهائية والمستقبل».

وقبل أن تصبح الرومانتيكية مذهبًا فكريًا، فقد كانت منذ البداية هى طبيعة التفاعل الإنسانى حيث يتلازم ومبدأ الفناء فى العاطفة، مبدأ الفناء فى الهدف فيعم الإخلاص والصدق مجمل السلوك، ويصبح سبيلاً إلى الحق فيه. ولعل محاولات تعميق الفكر الرومانتيكى فى أدب كل من: «كولن ولسن» و«كامى» و«جان بول سارتر» كانت محاولات ميتافيزيقية رافضة للواقع وشديدة الخصوصية، وحافزًا كبيرًا لنقل الشباب إلى الثورة على المجتمع وإلى موسيقى «البيتلز» وفنون «الدادية» وفنون صدمة المتلقى، والتمهيد لفنون واتجاهات أظهرت إفلاسها السريع أمام المتغيرات التكنولوجية سريعة الوقع والمتلاحقة التغيير والتى فعلت فعل السحر الجارف فى العقل البشرى.


ماك
QUALITY ASSURED FIRM
ISO 9001
SGS
سجاد ماك لكل الأغراض.. لكل الأجيال
قطع موكيت
دواسات حمام
سجاد أطفال
مشايات
مطبوع
شرقى
ماك على الإنترنت
www.maccarpet.com

مراكز البيع: بواقي التصدير والرواكد

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى ـ نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٢
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس ـ ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول
ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: ٤٠ شارع الآلايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين ت: ٠١٠/٥٢٠٠١٩٠
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج ـ دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ١٠٧ش ناهيا بولاق الدكرور ٠١٠/١٧١٠٣٨٩
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة ٠١٠/١٤٥٥١٠٦
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٧٧٥٧١٦٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان ـ محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٥
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ٢٢٢٩٧٠٨
صفط اللبن: سنتر الصاوى ـ شارع التحرير ٧٢٠٧٦٩٢
مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى ـ مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل ـ محطة التعاون ـ الهرم٠١٠/١٧١٠٤٩٠
الصحفيين : ٣ ش النيل الأبيض متفرع من شارع أحمد عرابي ت: ٣٠٣٩٤١٢
السيدة زينب: ٣٨ شارع مراسينا ٠١٠/٦١٨٦٩٤٥
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
الأوبرا : ١٠ ميدان الأوبرا محلات إسماعيل علي ت: ٣٩١٤٩٩٩
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس
العباسية: ١٥ ش العباسية ـ ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠

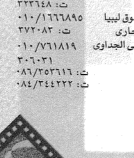
أرقام تليفونات معارض مدن القناه والوجه البحري

العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
العاشر من رمضان: دوار العاشر ـ طريق الإسماعيلية
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى ٠١٠/١٧١٠٣١٢
بلقاس: ش طريق الحرية ـ خلف المحكمة ٠١٠/٦٦٩٨٥٧٧
محرم بك: الإسكندرية ٦ شر أبيدوس من شارع مسجد الحضرى ت: ٠٣-٣٩١٨٤٧٠
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ٥٢ ش الحرية متفرع من ش بور سعيد ٠١٠/١٧١٠٤٧٠

القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ٠١٠/١٧١٠٤٧٩
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا ٠١٣٧٢٢٠٣٣
بنها : ش الكوبرى ت: ٢٥٣٩٧٠
السويس: ٣٦٦شارع الجيش ٠١٠/١٧١٠٤٥١
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش ٠١٠/١٧١٠٤٦٨
طنطا : ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية ـ فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا : برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٥٧٩٧٤٨
العصافرة : ش عثمان إبن عفان بجوار المعهد الديني ٠١٠١٠٠٤٧٣٩
الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى – سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩
العامرية : ش مجمع سيدي مسعود الإستهلاكي عمارة خميس الهواري ٠١٢/٢٧٥٨٥٠٠
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة ـ طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
دسوق: ش الجيش ـ أمام عمر أفندى ٥٦٥١٥٣
الإسماعيلية: شارع شحتة – السكة الحديد سابقا ٣٥٥٧٦٥
شبين الكوم: ٣ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
بورسعيد : ميدان المسلة – برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٢
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى ت: ٣٤٠٩٥٤٤
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة ٠١٠/١٩٢٢٤٢٨
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم ـ خلف المحكمة ت: ٠١٠١٩٧٧٥٣٣
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ٠١٠/١٣٤٨٣٥٧
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ٣٦٥٦٥٦

عناوين وأرقام تليفونات المعارض عن الوجه القبلي

سوهاج: ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
بنى سويف الجديدة: ٣ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
بنى سويف: ٥ ، ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا : ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا ٠١٠/١٦٦٦٨٩٥
الأقصر: ش مدرسة الصنايع ـ السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى ٠١٠/٧٦١٨١٩
أسيوط: ١٢ ش المدينة المنورة الزهراء ٣٠٦٠٣١
المنيا: ١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١٦
الفيوم: ش ٢٦ يوليو عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢



البطاقات البريدية القديمة





تاريخ وسياسة وبشر!

ألان بوتيير

واقع الأمر أن بطاقات البريد السياحية لا تُظهر شيئًا عن حقيقة البلد؛ دعاية معقمة لصناعة السياحة، لقطات لمشهد مجهز، أكثر جاذبية، حيث لا يصنع تاريخًا.

وبالطبع لا تخلو البطاقات البريدية لمصر فيما حول القرن العشرين من هذه القاعدة، ولكن، لأنها صور فوتوغرافية قديمة، فإنها تمنح سحر رحلة عبر الزمن. وإذا لم نفقد أبدًا مشهد نقطة الانطلاق، فإن الرحلة تصبح درسًا غير مخطط في التاريخ.

لا تبحث عن بطاقة بريدية حديثة للمقارنة، فكل البطاقات الجديدة تصرخ بمأساة مصر الحديثة: الانفجار السكانى. فى عام ١٩٠٠ كان تعداد القاهرة حوالى خمسمائة أو ستمائة ألف نسمة، وقد تضاعف العدد الآن ثلاثين مرة. السطح كله مبنى، مسكون ـ لا شىء ينمو إلا الأسمنت ـ.

كل البطاقات البريدية من القاهرة والإسكندرية تعلن نفس المأساة. ولكنها تثير أيضًا دروسًا أخرى، إذا توقفنا قليلاً عند التفصيلات. تلك البحيرة المائية أسفل الأهرام تثبت أن الصورة التقطت قبل أن تقوم سدود أسوان وأسيوط التى بنيت عام ١٩٠٢ بتلجيم نهر النيل حتى شمال القاهرة.

حتى تم رصف الطريق فى عام ١٨٦٨. كانت الرحلة إلى الأهرامات تتم فى قارب بدائى حين كان الطريق غير الممهد يغمر بالمياه. كان المرشدون السياحيون ينصحون بضوء القمر. فى هذا الوقت عرفت مصر تقويمًا طبيعيًا، عُرف منذ فجر التاريخ: الفيضان السنوى للنيل. كان الانتصار عليه هو علامة دخول مصر إلى العصر الحديث أكثر من أى إصلاح سياسى أو اجتماعى.

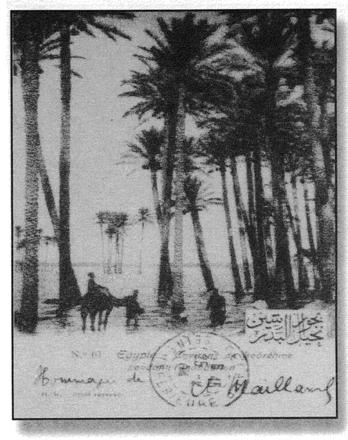
تظهر تفاصيل أخرى أحداثًا أقصر مدى. انظر مثلاً إلى لوحات الدعاية التى تزين مقاهى الإسكندرية: «اشرب شاى الصليب الأزرق»، «شاى ليبتون»، «وبيرة» وهى مشروب كحولى. انظر إلى حوانيت القاهرة وبورسعيد: اللغة، الأبجدية، والعادات الغربية تغمر الشوارع كما لو أن المصرى ليس فى بيته. لم يكن هذا مجرد مظهر، وليس بجديد فى عام ١٩٠٠ كانت مصر فارسية، يونانية، رومانية، بيزنطية، عربية وأخيرًا عثمانية. وقد كان لها أن تصبح بريطانية، وقد أصبحت فى الحقيقة، حتى لو لم يكن ذلك بصورة قانونية ـ فى عام ١٨٨٢ ـ تحدد بطاقة البريد التى تحمل صورة كوبرى قصر النيل، مقار القوات البريطانية المحتلة فى القاهرة، والتى كانت عنصرًا أساسيًا لجيش احتلال قوامه خمسة عشر ألف رجل.

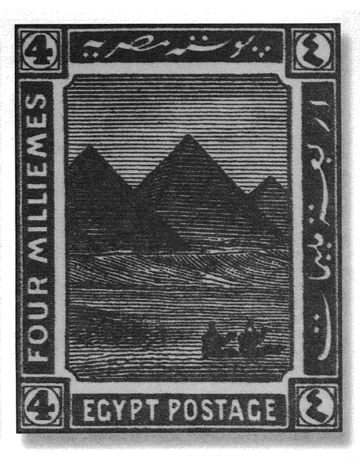
بدأت القصة فى عام ١٨٦٠ مع حفر قناة السويس. استهلك العمل الذى بدأ فى عام ١٨٥٩ أموالاً طائلة، ودفعت مصر، صاحبة الأربعة والأربعين بالمائة من حصص شركة قناة السويس إلى الديون. وفى الوقت نفسه دفعت سياسات التحديث التى تبناها الخديو إسماعيل (ميكنة هستيرية لجمع القطن، مدنية متصاعدة بشدة، تعليم عام، إنشاء شبكة هائلة من قنوات الرى، خطوط السكك الحديدية، والكبارى والحملات العسكرية الكارثية فى القرم، السودان والمكسيك) بميزانية الدولة إلى الهاوية. الوجه الآخر للكثير من بطاقات البريد يحمل رسالة تاريخية: للتحديث والتطوير، كان على مصر أن تقترض من قوى عظمى بأسعار فائدة مدمرة، عادة.

فى عام ١٨٧٤، ولكى يفى الخديو إسماعيل ببعض من الطلبات الملحة، باع لبريطانيا نصيب مصر من القناة بأربعة ملايين جنيه. صفقة مربحة بالنسبة للمشترى، وصفقة خاسرة بالنسبة لمصر، لم تحمها من الإفلاس بعد عامين. فرض الدائنون على مصر لجنة عالمية للتحكم فى دخل مصر المالى وتخصيصه لسداد ديونهم. خسرت مصر الاستقلال المالى. فى عام ١٨٧٨، أُجبر إسماعيل على قبول مجلس وزراء بوزير مالية بريطانى ووزير فرنسى للأشغال العامة. بالنسبة لكثير من المصريين، كان هذا أكثر من المحتمل. قامت انتفاضة فى الجيش بقيادة عرابى، وهو ضابط وطنى، وقادت إسماعيل إلى طرد وزرائه الأجانب، ضغطت بريطانيا وفرنسا على السلطان عبدالحميد ليتدخل، فمصر فى النهاية هى مقاطعة للإمبراطورية العثمانية. أعلم إسماعيل عن طريق تلغراف من القسطنطينية أن عليه أن يتنحى ويترك العرش لابنه توفيق.

أصبح الزعيم عرابى هو رجل الساعة. ابن الفلاح ومنشىء حزب وطنى، كانت له شعبية بين الناس الذين لم يمكنهم تحمل التدخل المتزايد من القوى الأجنبية أكثر من ذلك. بالضغط من قِبَل الصفوة المثقفة، الضباط الصغار والصحفيين،

Post Cards From Egypt Circa 1900
(البطاقات البريدية فى مصر فى ١٩٠٠)
Alain Blottiere
Zeitowna, Cairo, 2001





أجبر توفيق على تكوين حكومة وطنية وتعيين عرابى وزيرًا للحربية.

كان عرابى يتزعم الفلاحين، الذين وعدهم بالتغاضى عن ديونهم. لم يملك الفلاحون المصريون أرضهم من قبل - كانت ملكًا للعائلة المالكة وعدد قليل من أصحاب المقام الرفيع - وعاشوا لقرون كأكثر فئة مثقلة بالضرائب، فى أوقات الفيضان الشديد أو الأوبئة (وقد أطاح وباء بقرى بالماشية ما بين عامى ١٨٦٣ و١٨٦٥)، كان مصدرهم الوحيد للدخل هو الاستدانة. فى كل عام، كان عشرات الآلاف يهربون من قراهم فرارًا من السجن لعجزهم عن السداد. أتخم الريف بالمهاجرين - حيث أدى النمو الجنونى للقطن إلى الندرة، وطرد الفلاحون الذين هوجموا بعنف من قبل الثروة الصناعية بالإضافة إلى ديونهم من أرض لم تكن ملكًا لهم.

تألقت شعبية عرابى بسبب وطنية الشباب من الصفوة المدنية وبؤس الفلاحين، أى معظم الشعب المصرى، وبالطبع، لم يتحمل الدائنون وملاك القناة وجوده فى الحكومة، ملهبًا حماسة الحشود البشرية واعدًا إياهم بأكثر الإصلاحات جراة. فى مايو عام ١٨٨٢، أرسلت أسراب سفن بحرية إنجليزية وفرنسية بأقصى سرعة إلى الإسكندرية. وفى يونيو من نفس العام، أدى التمرد على الأجانب المقيمين بالمدينة إلى حمَّام دم. رابط الجيش المصرى، تحت قيادة عرابى فى مكان قريب. فى العاشر والحادى عشر من يوليو، قصفت السفن البريطانية الإسكندرية. محصورة بين النيران الإنجليزية وغضب المتمردين، تحولت أحياء الإسكندرية الأوروبية إلى حطام ورماد.

وللتغلب على أى شغب آخر قد يأتى، واستعادة سلطة الخديو وحماية مصالحها، أنزلت بريطانيا العظمى قواتها إلى البر، وحيث لم تجد أية عوائق، محتلة البلد كلها. قُبِض على عرابى وحوكم ونفى إلى سيلان. جُرِّد الجيش المصرى من أسلحته وأصبح القنصل البريطانى هو الحاكم الفعلى لمصر. وهكذا سقطت مصر تحت السلطة المباشرة لبريطانيا لمدة أربعين عامًا.

التمدن فى بعض مناحى الحياة لم يعوض مهانة مصر. اتقدت حماسة الحس الوطنى. انتشرت العدوانية تجاه البريطانيين، عدوانية شارك فيها الخديو عباس الثانى الذى خلف والده توفيق فى عام ١٨٩٢ حين كان عمره ثمانية عشر عامًا. ولكن المحتلين كانوا قد دفعوا برئيس وزراء متعاطف معهم، ولم تكن لعباس أى قوى حقيقية. فى المدن، كان المثقفون العثمانيون يقرءون جريدة اللواء، التى أنشأها المحامى فرنسى التعليم مصطفى كامل. كان لها توزيع ضخم بالنسبة لذلك الوقت (٢٠٠٠٠ نسخة)، بما فيها الطبعة الفرنسية. فى عام ١٨٩٤ أسس مصطفى كامل حزبًا وطنيًا علمانيًا هدفه استقلال مصر بالطرق القانونية. كان الشيخ محمد عبده عميدًا للدائرة المثقفة الدينية، وقد كان رائدًا للإسلام، متحررًا من عقيدة العصور الوسطى ومنفتحًا على التطور العلمى. عاد إلى مصر عام ١٨٨٨ بعد قضاء ستة أعوام فى المنفى، وأصبح المفتى فى عام ١٨٩٩ وحارب الشيوخ المخضرمين فى الأزهر. وكان للمنار، الجريدة التى عبرت عن حركته، تأثير واضح فى مصر والعالم العربى كله. نشر كتاب المرأة الجديدة، وهو كتاب يدعو لتحرير المرأة فى عام ١٩٠٠ بيد واحد من تلاميذه، قاسم أمين المحامى، وسط اضطراب سياسى شديد. معاكسًا لسيطرة الثقافة الأجنبية وإعلاء للشخصية الوطنية بدون خوف، انتعش الأدب المصرى مجسدًا فى شعراء مثل أحمد شوقى وحافظ إبراهيم.

من كل هذا المد الثقافى والسياسى الذى أطلق عليه النهضة، ومن هذه القوى المتناحرة فى العلن، ماذا رأى مشترو الكروت البريدية؟ لا شىء بلاشك. زار السائحون مصر، ولكنهم بقوا بعيدين جداً عن مشكلاتها الأساسية. ولماذا يطرقونها؟ لا يجب أن تفسد رحلة استمتاع بتساؤلات اجتماعية. وأيضًا، لابد أن النسيج الوطنى المصرى قد مسه منظر الأجانب المنبهرين بعجائب مصر.

تعود السياحة الحديثة فى مصر إلى عام ١٨٧٠، حين عينت الحكومة المصرية (ج.م.كوك)؛ ابن توماس كوك المؤسس وكيلاً رسميًا فى وادى النيل. وبسرعة، أصبحت الرحلة النيلية ضرورة فى السياحة مانحة صبغة راقية على المشاركين فيها - بطبيعتها الساحرة - الثقافية والرياضية. كان السيَّاح تقريبًا لا ينفصلون عن مرشديهم الذين يفيدونهم فى زيارة الآثار والتعامل مع «أهل البلد الأصليين». كان هؤلاء حسنى المظهر ومتنبهين، ولكنهم بالطبيعة طامعون وجاحدون، فأبقوا بعيدين - كما يحذِّر المرشد.

فى عام ١٩٠٠، انتعشت السياحة فى مصر، بسبب ترميم وتطوير المناطق الأثرية الرئيسية، وتطوير الفنادق والبنية الأساسية. بعد افتتاح فندق ميناهاوس بجانب الأهرام، وشبرد فى وسط المدينة، افتتحت العديد من الفنادق الفخمة فى الصعيد، مثل ونتر بالاس فى الأقصر، وكاتراكت فى أسوان. تحت عيون الزوَّار الشرهة، نمت مصر على كروت بريدية، برأس مال من الجمال، الكنوز، والغموض. فى «معبد فيلة» الذى نشر فى عام ١٩٠٨ وأهدى إلى مصطفى كامل، يكتب بيير لوتى» حزينًا:

«الآن، أمام أصغر قرية مكافحة - وسط القوارب الجميلة والبدائية، والتى ماتزال قليلة العدد، ترفع أشرعتها إلى السماء الزرقاء كمزامير طويلة - تفسد طوافة سوداء كبيرة، تقود قوارب السائحين كل شىء بوجودها، وعنوانها المنقوش عليها: توماس كوك وولده. وفوق كل شىء يسمع المرء القطار وهو يدوى حين يحتضن النهر جاحدًا لتتنزه على متنه حشود الأوروبيين المحتلين من الدلتا وحتى السودان».

فى قبضة السدود المتصاعدة، النمو الديموجرافى، الاحتلال البريطانى وتوماس كوك، محيت «مصر» معينة، مصر التى كان «السلام غير المسمى» فيها - كما يدعوه بيير لوتى - يفتن القليل من الرحالة الحقيقيين. ربما لم تكن مصر تلك سوى نتاج خيال غربى. ولكن مصر الجديدة التى ولدت أمام عدسات آلات التصوير، هى بالتأكيد نتاج طمع غربى. ■

ترجمة: جان فهمى

في يوم خميس من أحد أيام شهر مارس عام ٦٦ كان حفل زفاف أمي «علية علي شاكر».. إلى والدي «محمود عبدالرحمن علي» المقيم بناحية أولاد حمزة.. مركز المنشاه - محافظة سوهاج - وكان المعازيم الذين سيتولون نقلها من منزل والدها حتى منزل

١- الثأر.. بركان الدماء
عبد الحليم حفني
مطبعة «النهضة الوطنية» (بني مزار) ١٩٦١، ٨٨ صفحة

٢- مذكرات أصولي مصري
خالد البري
بيروت: دار النهار، ٢٠٠١

والدي من عائلات عربية مختلفة تنتمي لقريتي ومن بينها إحدى العائلات التي «عليها دم» لعائلة تستقر منازلها في الطريق الرسمي المفترض أن تمر عليه قافلة الفرح.. ولذلك وتجنبا للمجاملين خطر أن تنطلق عليهم رصاصات آل نصار.. قرر جدي لوالدتي أن يمر الموكب من طريق فرعي ضيق عرضه متر ونصف المتر.. ولهذا ظلت والدتي عمرها كله، كلما جاءت سيرة زفاف - تنعي «حظها السيئ» لأنها مشت على قدميها مع المعازيم ٦ كيلومترات ولم تركب لا الهودج ولا السيارات التي كانت فاكهة حديثة وقتها!

وبعد فرح أمي بعشر سنوات.. في شتاء ٧٦ وبعد ظهر يوم جمعة وكنا نحن «أطفال الصف الرابع بمدرسة مؤسسة العسيرات الابتدائية» قد خرجنا للتو من مسجد «الأوقاف» مسجد القرية الوحيد، بعد الصلاة جبرا خلف مدرس الفصل «سراج الدين محمد بكري» الذي كان يشترط صلاتنا حتى يسمح لنا بمشاهدة مباراة الأهلي والزمالك في تليفزيون القرية الوحيد الذي يملكه والده الحاج محمد بكري!! وفيما كنا نتسابق لحجز أماكننا في المقهى أمطرتنا رصاصات عائلة «هلالي» من كل جانب انتقاما من خصوم لها كانوا قد قتلوا ثلاثة أفراد منهم منذ سنوات بعيدة، وظللنا داخل المقهى محتجزين ست ساعات كاملة حتى جاء أولياء أمورنا وسحبونا للمنازل وهم يسبون الكرة والتليفزيون، أما نحن فكنا نرتعش.

وبعد ١٠ سنوات أخرى وأنا أدرس وحيدا في مدينة سوهاج (تبعد الجامعة عن قريتي مسافة ساعة ونصف الساعة وكنا نقيم في حجرات مؤجرة بجوار الجامعة ونعود لأهالينا كل يوم خميس) وصلتني رسالة من أحد أفراد عائلتي تأمرني بعدم العودة إلى قريتي هذا الأسبوع والاحتراس والحذر لأن قريبا لي قد اتهم في مقتل أحد أفراد عائلة مجاورة لنا (تتشارك معنا في زراعة بعض القراريط) وأنه الوحيد صاحب المصلحة في قتله لثأر قديم تدين العائلة الأخرى لنا به!!

بعدها بثلاثة أعوام، وكنت قد انتقلت للقاهرة نهائيا، سافرت لسوهاج لأحصل على أوراقي الخاصة لتقديمها كمسوغات تعيين بمجلة الإذاعة والتليفزيون، ولما كنت أحد خريجي كلية التربية وكنا مكلفين وقتها بالعمل في التربية والتعليم، فقد فوجئت بأنني

ثلاثية الثأر والهجرة

أصبحت أحد أعضاء هيئة التدريس بمدرسة بيت علام الإعدادية وقادتني إلى الإدارة التعليمية بجرجا سيارة بيجو تعمل بالأجرة لأجد نفسي - وبسبب طيبة ناظر المدرسة وهو من أهل القرية - قد استلمت وظيفتي وراتبي عن أربعة أشهر كاملة.. فقد ظن الرجل الطيب أنني أمر بظروف ما تستدعي عدم استلامي العمل طيلة هذه الفترة (كانت فترة إجازة المدارس) وأنني لابد أن أذهب لاستلامه مع بداية الشتاء. كنت أعرف بيت علام جيدا.. فقد كنا نذهب لنلعب الكرة في الجبل الملاصق لها.. ونعقد ندوات الشعر مع اثنين من أبنائها وكلاهما أستاذ بالجامعة الآن، وأحدهما حصل هذا العام على جائزة الدولة التشجيعية في النقد عن كتابه «الكلمة والسيف في مسرح صلاح عبد الصبور»، وهو الشاعر د. عبدالناصر هلال. كنت أعرفها جيدا وأحفظ أشكال ناسها.. وطعم أكلات نسائها وأحفظ أرقام سيارات الميكروباص التي يعمل أبناؤها بها في نقل الركاب من القاهرة إلى هناك والعكس.. لكنني لم أكن أعرف أنني سأصحو ظهر يوم ١٠ أغسطس الماضي على خبر تذيعه قناة الجزيرة يقول «سقط اثنان وعشرون قتيلا من عائلة الحنيشات على يد خصومهم من عائلة عبدالحليم في حادث مروع في بيت علام إحدى قرى محافظة سوهاج بسبب الثأر!».



وكان أول رد فعل لي هو اتصالي بالشاعر د. عبدالناصر هلال ليفاجئني بأنه دخل القرية ومعه زوجته - القاهرية - وطفلاه في زيارة لأهله هناك قبل الحادث بساعة وأنه لايستطيع في هذه اللحظة التي أحادثه فيها أن يخرج من منزله، مضيفا أنه «شيء بشع لم تعرف له القرية ولا بلادنا كلها مثيلا».

وكان أن تزاحمت كل صور الذين عرفتهم وماتوا في حوادث ثأر.. كل اللحظات التي عشتها مذعورا خائفا وأنا أعود لمنزلي وسط «كروم النخل» ليلا خشية أن يطلع لي «عفريت» أحدهم بينما أتمتم كما علمتني أمي «بسورة يس».

تزاحمت كل لحظات الدهشة التي اعترتني وأنا أشاهد أحد أعمامي الذي اتهم في مقتل أحدهم ثأرا لأحد أفراد عائلته وهو يقوم الليل ويمارس الصلوات الخمس بينما ترقد بندقيته الآلية تحت مخدته.

تزاحمت كل الكتب الأولى التي قرأتها عن «حق الدم» و«أولياء الدم» و«أنساب العرب»

والبطالة فى الصعيد

محمد العسيرى

و«صورة الدم فى أشعار أمل دنقل» و«الثأر بركان الدماء» لابن قريتى د. عبدالحليم حفنى الذى لم أقابله مطلقا.. وإن عرفته من مدرسة إعدادية فى قريتى سموها باسمه لإنجازه الرائع فى كتابه السابق ذكره بالإضافة لكتاب آخر عن عادات الثأر وطقوسه هو كتاب «العَديد ـ فن المراثى الشعبية» والكتابان صدرا فى عام ١٩٦١.

والأهم أننى تذكرت أن الحادث الأخير ليس ثأرا من الأساس.. وأنه شىء غريب تماما عن قوانين بلادنا العرفية من أول قوانين الزواج والمصاهرة.. مرورا بقوانين العائلة وانتهاء بقانون الثأر.. الذى تشهد كل الدلائل بأن مجزرة بيت علام هى بداية انهياره بالتوازى مع انهيار قوانين أخرى تحكم ذلك العالم الغامض الذى يتعامل معه أهل القاهرة وصحفها ومثقفوها على أنه الصعيد المريب! والصعيد أبعد مايكون عن ذلك!

الدم بيوت: قانون الثأروطقوسه

أول ما تعلمناه فى بيوتنا هناك أنه لاصوت يعلو فوق صوت الكبير.. كبير المنزل.. كبير الأسرة.. كبير البيت.. كبير العائلة!!

وحتى تبقى هذه العائلة مصانة مهابة تحفظ لنا وجودنا وعزتنا وحركتنا بين الناس! يجب أن نضحى بأى غال فى مقابل الحفاظ عليها وعلى اسمها ووحدتها.. ومن يخترق قوانينها تقم العائلة بأكملها حدودها عليه..

فالصغير لايستطيع أن يخترق نصوص كلام الكبير.. فى شئون العمل والسفر والزراعة والزواج ذكورا وإناثا.. وابن العم ملزم بالدفاع عن ابن عمه أمام كل من هو أبعد حتى ولو داخل إطار العائلة نفسها.. (أنا وأخويا على ابن عمى.. وأنا وابن عمى على الغريب)، فقانون العائلة فى الصعيد هو الأقدم والأقوى ونظمه تبدأ من تقسيمات العائلة ذاتها.. حيث إن كل أسرة «عدد من الأفراد»تنتمى إلى «بيت».. وكل مجموعة من «البيوت» تنتمى إلى «عائلة» وكل مجموعة من العائلات تنتمى إلى «بدنة» واحدة.. فيقال مثلا.. محمد من بيت أحمد من عائلة همام من بدنة الهوارة!! وهكذا!!

وهو ما يعنى أن الأسرة هى أصغر وحدة قرابية وأن «البدنة» نسبة إلى «البدن والجسد» هو أكبرها!! وهذا ما يؤكده د.أحمد أبو زيد فى دراسته الأنثروبولوجية الصادرة عام ١٩٦٢ عن بنى سميع إحدى قرى أسيوط، ولايدخل فى هذا النظام أبناء الإناث لأنهم ينتمون إلى آبائهم من بيوت أو عائلات أو أبدان أخرى.. وحيث إن قانون العائلة يقضى فى معظم قرى الصعيد بعدم مصاهرة الأبدان الأخرى أو بتعبير أدق عدم تزويج بنات العائلة إلا لأبناء عمومتهن ـ المثل الشعبى يقول.. «ابن عمها ياخدها من على ضهر الهجين» تصبح البدنة حاوية لأبناء العمومة والأخوال عادة.. لكن هذا التسلسل تصبح له أهميته القصوى عند حدوث الثأر.. لأن أبناء «العصب» ـ العمومة ـ هم المطالبون بأخذ الثأر بينما يساعد الأخوال فقط بالسلاح أو الأموال!

وتعود هذه التكوينات إلى القرون الهجرية الثلاثة الأولى عندما استقرت قبائل عربية عدة فى صعيد مصر.. وعندما حدث ذلك سبقتهم قوانينهم العربية القادمة من شبه الجزيرة العربية وطقوسهم وعاداتهم كذلك ومن بينها الثأر.

ويذكر د. عبدالله رشيد البرى فى كتاب «القبائل العربية فى مصر» الصادر عن الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٩٢ أن «عمر بن الخطاب أمر بترحيل ثلث قضاعة من بلاد الشام إلى الصعيد على أثر نزاع نشب هناك بين قبائل عربية، ونزلت هذه القبيلة واسمها «بلى» بلاد الصعيد بين «جسر سوهاج إلى قاقوله».

ويقال فى كتب التاريخ إنها أحد الأعمال الأخميمية».. ونقول عنها حاليا سوهاج.

وحينما اختار عمرو بن العاص تقسيم جنود جيشه.. وتخطيط منازل القبائل فى الفسطاط اختار الأساس القبلى معيارا.. حتى أن من قل عددهم ولم يكونوا قبيلة كاملة فى جيشه رفضوا الانضواء تحت راية أى من القبائل الأخرى التى تقترب منهم فى الجوار أو المصاهرة وفضلوا تكوين كتيبة بمفردهم سميت بأصحاب الراية.

وحفظ اجدادنا هذا القانون القبلى مثلما احتفظوا بشجرات أنسابهم.. ومثلما تفرقت السيوف فى الجزيرة العربية أيام عثمان بن عفان.. تفرقت دماء قبائلهم العربية فى الصعيد.. وإلى جانب هذا الإرث عربى الأصل ساهمت طبيعة جغرافية الصعيد كما يرى د.جمال حمدان فى شخصية مصر فى أن تخلق من العمل التضامنى الجماعى ضرورة من ناحية وفى أن ينجو الصعيد من قبضة الاحتلال الأجنبى فى أزمنة كثيرة من ناحية أخرى.

وأخذ الصعيدى فى نظرته الحضارية من ضيق قاعدته جغرافيا وعزلته مايمكن تسميته بالعصبية.. عصبية العائلة.. وأسهمت السلطات الحاكمة على مر العصور فى تقوية هذه العصبية، إذ إنها حمت سلطة العائلة وقوانينها باختيارها لمرشحيها فى البرلمان على أساس عائلى حتى إنها ولراحة الجميع حينما اخترعت نظام العمال والفلاحين قررت فى أى من الدوائر التى تحتوى على عائلات متصادمة أن تختار مرشحا من العمال من عائلة ومرشحا للفئات من العائلة المنافسة! وهو ما حدث فى انتخابات برلمانية متتالية كان آخرها فى عام ٢٠٠٠، وبمراجعة مرشحى محافظة قنا فى هذه الانتخابات ستجد أن الحزب الحاكم قسم الدوائر على مرشحيه من بين عائلات الأشراف والعرب والهوارة!!

وحدد لى د. أحمد عبدالعال الدردير أمين الحزب الحاكم فى سوهاج أول الاعتبارات فى اختيار مرشحيه ـ فى حوار أجريته معه نشرته جريدة «صوت الأمة» فى أبريل عام ٢٠٠١ ـ بأنها سطوة عائلة المرشح ونفوذها الانتخابى!! وكما ترى د. سامية طنطاوى فى رسالتها الميدانية عن «التهميش الاجتماعى بين آليات السيطرة الأيديولوجية ـ أشكال الممارسة السياسية».. والتى أجرتها فى أسيوط لنيل درجة الماجستير من جامعة القاهرة، يحدث ذلك الأمر من جانب الحكومة حتى تضمن الأغلبية البرلمانية. ولذلك فهى تستخدم مؤسساتها السياسية الحديثة وقانونها الوضعى من أجل تدعيم بنية سيطرة تقليدية، ومن ثم لم تسع إلى إضعاف أو تفكيك التحالفات القبلية القائمة بل دعمتها ووظفتها من أجل ضمان سيطرتها. وهذا مارغبت فيه العائلات نفسها حيث إن مساندة الحكومة لها تعنى الحفاظ على أسماء هذه العائلات ونفوذها!!

وإذا كان هذا النفوذ يستلزم محالفة السلطة فهو أيضا يستلزم الحفاظ على المال.. وتكديس الأسلحة.. والحفاظ على المال عادة مايتم هناك بحيازة أكبر قدر ممكن من الأراضى، أما تكديس السلاح فيتم من أجل الحفاظ على هذه العائلة واسمها إذا ما تهددها خطر ما يهدد وجودها.

وأول مايهدد وجود وسمعة أى عائلة فى الصعيد هو اسم امرأة من العائلة، ولهذا يرتبط الثأر بالدفاع عن العرض.. والأرض وفى هذا يختلط ماهو أسطورى بما هو دينى.. فالصعايدة يؤمنون بأن من مات دون عرضه أو ماله فهو شهيد.. وبأن «لكم فى القصاص حياة»!

وإذا كانت الثروة والأرض والمنصب الانتخابى تحمى وحدة العائلة ضد عائلات أخرى فى قرية ما بالصعيد، فإنها تحمى العائلات نفسها ضد السلطة أيضا فمن له ظهر لايضرب على بطنه!!

ويبدأ الثأر غالبا بحادث قتل دفاعا عن الأرض أو العرض وإن بدا لغير العالمين ببواطن الأمور هناك لسبب آخر، كأن يتنازع شخصان من عائلتين متنافستين على موعد رى الأرض أو نتيجة لخناقة أطفال يلعبون الكرة من الجانبين!! بينما تكون هذه النتيجة فى معظم الأحوال نهاية لبدايات أخرى متتالية من مشاحنات ارتبطت بالعاملين الأهم المشار إليهما!



وبعدما يقع حادث القتل الأول.. تبدأ المتتالية الهندسية المعروفة جيدا فى بلادنا بين الدائن والمدين.. فالعين بالعين والسن بالسن والرجل برجل وكبير العائلة لايؤخذ فى ثاره رجل أقل منه شانا.. وإذا ما قتل أحد كبراء العائلات يتم حسابه بعدد أكبر من أفراد العائلة المعتدية.. وكان من المعروف أنه إذا ما جاء ضيف لزيارة عائلة لها خصومة ثارية فإن القتال يتوقف احتراما لهذا الضيف حتى يمضى (حق الضيف فى الصعيد ثلاثة أيام لايسأل فيها لماذا جاء.. ياكل ويشرب وينام) وإذا ما حدث وقتل هذا الضيف على سبيل الخطأ على يد العائلة المنافسة للعائلة التى يزورها يكون حسابه برجلين ويجب على العائلة التى قتلته أن تدفع ديته أو فلتنتظر القصاص فى رجلين منها.

ومن قوانين الثأر أيضا أن السارق إذا ماقتل لا ثأر له.. فعمل أحد أفراد عائلة ما بالسرقة عار عليها ينبغى أن تخجل منه ولايحق لها المطالبة بثأره.

ويوجد فى بعض حوادث الثار ما يسمى «الكرو» وهو أن تكترى إحدى العائلات الضعيفة رجلا بالمال لياخذ لها ثارها.. وهذا النوع نادر حدوثه رغم أن رجلا شهيرا هو مصطفى أبو هاشم خط الصعيد الأول بدأ طريقه إلى عالم الإجرام بأن كانت العائلات الضعيفة تكتريه ليخلص لها ثأرها، ثم ذاع صيته وتداخلت حدود السرقة مع البلطجة فى حكايته لاستهجانه من عائلات الصعيد لأنه يعنى ضمنيا ضعفها ومعايرتها فيما بعد بهذا الضعف عن حماية نفسها.

ومن قوانين الثأر الصارمة أن النساء خارج حسبة القتل وكذلك الأطفال!!

ومثلما للعائلة قانونها الخاص.. فلها أيضا عاداتها وطقوسها فى المأكل والملبس وتعليم البنات.. مهورهن وزواجهن.. ومثلما للعائلة قانون وطقوس، للثأر أيضا قانون.. ذكرنا بعض مواثيقه.. وطقوسه. تبدأ قبل وقوعه وتستمر إلى مابعد تحققه.

فالمقتول لاتقيم أسرته عزاء

إذا كانت الثروة والأرض والمنصب الانتخابى تحمى وحدة العائلة ضد عائلات أخرى فى قرية ما بالصعيد، فإنها تحمى العائلات نفسها ضد السلطة أيضا فمن له ظهر لايضرب على بطنه

له.. ويتم دفنه فيما يشبه الصمت.. وبمجرد أن يتم الدفن تبدأ مجموعة من الإجراءات، فلايمشى أفراد القبيلة إلا جماعات.. ويترك الشباب لحاهم.. وإذا اضطرت عائلة ما عليها ثأر إلى تزويج إحدى بناتها، فإن ذلك يتم بدون حفل زفاف.. وتحترم البيوت المجاورة من العائلات الأخرى ظروف أسرة القتيل فى الأعياد والمناسبات.. فلاتطبخ النساء ولايتم فتل الكعك أو الناعم أو الغريبة! ولاتلبس النساء سوى الأسود!

ويخلع بعض رجال القبيلة وخاصة ولى الدم منهم «عمامته البيضاء» ويبدلها بشال أسود لأنه لم يعد معدودا من بين الرجال حتى يأخذ ثاره، وقد يطول الثأر أربعين سنة فالمثل الصعيدى يقول: «أخد تاره بعد أربعين سنة قالوا له انت استعجلت»!!

وتستمر هذه الطقوس حتى ينتهى بأن يقتل الطرف المدين رجلا من العائلة الدائنة وساعتها يتم نصب سرادقات العزاء وتفتح الدواوير (جمع دوار) لمدة سبعة أيام لاستقبال المعزين. وهناك نهاية أخرى لهذا الدم بأن يقبل القاتل أن يحمل كفنه إلى عائلة القتيل التى تكون قد قبلت بحمل الكفن، وهذا مانعرفه هناك باسم «القودة»، أى أن القاتل قد اقتيد لأهل القتيل ليفعلوا به ماشاءوا.. وطقوس القودة فى معظم قرى الصعيد متشابهة، فهى تبدأ بأن يمشى القاتل مسافة تتراوح مابين ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ متر فى شارع رئيسى بالقرية فى طريقه إلى دوار أهل القتيل ويمشى بجواره رجل دين - عادة مايكون هو البادئ بطرح مسألة الصلح - وعضوان من البرلمان وخلفه مأمور المركز أو مدير أمن المحافظة.. ويستمر المشى فى شوارع القرية والقاتل حليق الرأس مادا كفنه (قطعة من القماش الأبيض) فوق يديه الممدودتين للأمام.. وخلفه يسير أهل عائلته، وعلى الجانبين المعازيم من عائلات أخرى والمتفرجون من أهل القرية حتى يصل إلى «ولى الدم» وهو غالبا شقيق القتيل أو والده أو عمه، وهناك تقف العائلة المدينة بكافة رجالها ويتقدم القاتل إلى كبيرهم مقدما كفنه له، وأحيانا مايكون مع الكفن خروف يتم ذبحه بجوار رأس القاتل بعد أن ينام ممددا بجوار الخروف ثم يتسلم ولى الدم الكفن ويكبر ثلاث مرات وخلفه جميع المحتشدين، ويردف «عفوت عنك» ثم يقوم بتسليم القاتل حذاء وعمامة جديدين وخرطوشة سجائر لتوزيعها على الحاضرين، وتبدأ بعد ذلك مراسم مايسمى بالتوجيب فيقام العشاء أو الغداء حسب وقت تنفيذ القودة - فى دوار عائلة محايدة.

هذه العملية نادرا ماتحدث حيث إن السبب الرئيسى فى حدوث الثأر هو التحريض عليه بالمعايرة.. وهو مايحدث أيضا للطرفين اللذين وافقا على «القودة». لكن لماذا ينشأ الثأر أصلا إذا كان الدين صاحب جذور وسطوة فى النفوس الصعيدية؟!

والإجابة لدى د. عبدالحليم حفنى فى كتابه «بركان الدماء» حيث يؤكد أن «الدافع إلى الثأر ليس إجراما ولاحبا فى الجريمة، وإنما هو محض انتقام فى نظر المقدمين عليه والمقدم على الجريمة يجد نفسه من أشد الناس خوفا واضطرابا مهما بلغ من الجرأة وهو أكثر المقدرين لعواقب جريمته من سجن أو خراب بيت.. ولولا أن دافعا أقوى من غريزة الخوف وأقوى من غريزة الحرص على النفس والمال دفعه إلى القتل ما استطاع أن يقدم عليه».. ولأننا نتفق مع ماذهب إليه الدكتور عبدالحليم حفنى من أنه شىء أقوى من كل ذلك.. فإننا نؤكد معه أنه القصاص.. وهو رؤية دينية أيضا!

فالتشريع الإسلامى لاينظر إلى الثأر على أنه جريمة باعتبار أن الثأر هو قتل القاتل لأن حكم الإسلام أنه إذا تنازع شخصان وقتل أحدهما الآخر متعمدا قتله، كان لأولياء القتيل حق قتل القاتل وهو «القصاص» ثم «تقف الجريمة عند ذلك وأى حادث يترتب عليها بعد ذلك هو جريمة»!!

لكن ماذا يفعل القانون الوضعى فى نظر الصعايدة؟

هم يؤمنون بأن يوم الحكومة بسنة وأن سكك أبو زيد كلها مسالك وأن العافية فوق القانون!! ولذلك فهم يأخذون حقوقهم بأيديهم.. فطول إجراءات التقاضى وعدم وجود شهود عادة فى جرائم الثأر وإمكانية اختراق أوراق القضايا عن طريق محامين تخصصوا فى اللعب بثغرات القانون فى وقائع الضبط يضيع حق المطالبين بالثأر أو على الأقل يطيل أمد تحقيق قصاصهم. ولذلك فهم كثيرا مايستبعدون «الحكومات» عن هذا الأمر ويعتبرونه شأنهم الخاص ولذلك كثيرا مايتم الانتقام قبل أن تصل الشرطة للجانى!

انهيار قوانين الصعيد

قد يبدو غريبا للوهلة الأولى أن نقول إن الثأر متغير وغير ثابت.. فى الوقت الذى ظلت فيه بداوة وأمية بعض قرى الصعيد ثقافيا كما هى دون أن يطرأ عليها تغيير حقيقى!!

وقد يبدو غريبا أكثر أن نقول إن عائلات الصعيد كانت تستخدم قانون الثأر كنوع من الحماية التى تحفظ لها وحدتها وتماسكها فى الوقت الذى تشهد فيه الوقائع على تفكك هذه الوحدة من ناحية أخرى.. وبالتالى يصبح استمرار قوانين الثأر أمرا غير منطقى ولكن وبقليل من التأنى والرصد الدقيق تزول هذه الدهشة القائمة على تضاد قانونين - قد يبدو أنهما لايجتمعان - فماحدث فعلا هو أن انهيار قوانين الصعيد واستمرار بعض قوانين الثأر فرض نوعا ثالثا من القوانين يمكن أن نسميه بقانون الفوضى!

ولقد رصدت دراسات مبكرة القانون الجديد دون أن تتبعها فيما بعد دراسات أخرى.. فى دراسة د. أحمد أبوزيد أستاذ الاجتماع والأنثروبولوجيا بجامعة الإسكندرية يذكر عرضا بعد بقائه لمدة شهرين فى إحدى قرى مركز أبو تيج بأسيوط أنه قد طرأ على قانون الثأر بعض تغيرات أساسية نتيجة لبعض الأحداث الطارئة ويتمثل على الخصوص فى التحرر من التقاليد القديمة المتعلقة بوجه خاص بعدم التعرض للنساء أو الأطفال.. ويذكر د. أبو زيد إحدى الحوادث الدالة على ذلك عندما قتلت عائلة «التكارتة» أحد أطفال عائلة «الحدايبة»، وانتقم هؤلاء بعد ذلك بقتل أحد أطفالهم. ورغم أنه أشار فى دراسته إلى استنكار أهل القرية لذلك الحدث إلا أن ذلك يعنى فى الوقت ذاته بداية اختراق بعض القوانين الصارمة للثأر، وهو ماتكرر بعد ذلك على نطاق أوسع بلغ ذروته فى حادث بيت علام الأخير. فقد قتل الجناة طفلا كان يجلس على حجر جده فى إحدى سيارتين كانتا تقلان أفراد عائلة الحنيشات من قرية بيت علام إلى محكمة سوهاج لمتابعة تفاصيل إحدى جلسات محاكمة قريبين لهما كانا قد اتهما فى مقتل كبير عائلة عبدالحليم - المعتدية فى الحادث الأخير - خلال أحد أيام شهر أبريل الماضى!!

مقتل هذا الطفل واسمه «بسام عبدالحليم» لم يكن الدلالة الوحيدة على عشوائية الحادث وعلى انهيار قوانين آمنا بها هناك أجيالا متعاقبة، ولكن ذلك الانتقام البشع من الجثث ومحو معالمها.. ثم هروب الجناة واختباءهم فى الجبال دون أن يتقدم أحدهم لسبعة أيام متتالية يتحمل عبء القضية - ويشيلها نيابة عن عائلته - وهو ما وصفه البعض بالخسة.. حيث إن قانون الثأر كان يقضى بإعلان القاتل عن «العملية» وتسليم نفسه للشرطة واعترافه فى غالب الأحيان ليعطى مايمكن تسميته بإشهار تخليص الثأر ثم وهذا هو الأهم ماذكره اللواء على عبدالرحمن مدير أمن محافظة سوهاج بأن صلحا كان قد انعقد بين العائلتين فى مايو الماضى بعد حادث مقتل كبير عائلة عبدالحليم.. ونقض العهد أو الصلح، كل ذلك أمر غير وارد فى قوانين الثأر المعروفة!!

إذن نحن أمام مجموعة من الدلائل تؤكد أن هذا الحادث وإن كان قد أخذ من الثأر شكله حتى يتم قبوله اجتماعيا إلا أنه فى حقيقة أمره أحد حوادث العنف الذى يجتاح الصعيد حاليا ويسفر عن وجه قبيح يهدد بانهيار آخر خطوط القيم عند «الصعايدة» وقبل أن نصل لهذه النتيجة يجب أن نقرأ مقدماتها..



المقتول لاتقيم أسرته عزاء له.. ويتم دفنه فيما يشبه الصمت.. ولايمشى أفراد القبيلة إلا جماعات.. ويترك الشباب لحاهم.. وإذا اضطرت عائلة ما عليها ثأر إلى تزويج إحدى بناتها، فإن ذلك يتم بدون حفل زفاف

لم تعد هناك بوابات

كانت قبائل الصعيد الكبيرة (هوارة - عرب - أشراف) ترفض إلى وقت قريب تزويج بناتها خارج نطاق العائلة ورغم أن دراسات علمية كثيرة أشارت إلى أن زواج الأقارب يعد العامل الأول فى إصابة الأجنة بتشوهات وعيوب خلقية متعددة من أشهرها «انغلاق القناة العصبية - ضمور المخ - متلازمة داون» وهى أمراض خطيرة تؤدى إلى إعاقات ذهنية معقدة.. ورغم أن هذه الدراسات قد خرجت إلى النور مبكرا كما تذكر أ.د. سامية التمتامى رئيس قسم الوراثة بالمركز القومى للبحوث فى كتابها «الوراثة : الحاضر والمستقبل» إلا أن الصعايدة لم يكونوا يأبهون بها فى مقابل حفاظهم على أنسابهم من ناحية وحفاظهم على أراضيهم من ناحية أخرى حتى لاتذهب لغرباء إذا ما زوجوا بناتهم خارج نطاق العائلة إلا أن هذا جرى تفكيكه منذ بداية الثمانينيات فى أماكن متفرقة من الصعيد، وخاصة بعد أن ساهمت أموال الخليج العربى فى رفع مستوى المعيشة لدى عائلات فقيرة عمل أفرادها بالخليج وعادوا لشراء الأراضى من العائلات الكبيرة.. وسعى الطرفان إلى بعضهما.. العائلات الكبيرة التى فقدت عزها وسطوتها ومجدها القديم بعد تطبيق قوانين الإصلاح الزراعى وتحديد الملكية عليها.. قبلت تزويج بناتها لعائلات أقل شأنا لكنها امتلكت الأرض والمال بعد هجرات الصعايدة المتعاقبة إلى ليبيا - العراق - الكويت.. والعائلات الفقيرة لجأت لهذه المصاهرات لتؤكد صعودها بامتلاك الأرض والمال وتعليم الأبناء ومصاهرة العائلات الشهيرة!!



وتسجل د. سامية طنطاوى فى دراستها عن التهميش الاجتماعى شهادة لأحد الرافضين لهذا التغير من مواطنى إحدى قرى أسيوط عام ٩٠ حيث يقول: «كمان الفلاحين الغجر المقاطيع سافروا أيام السادات لما فتح مجال السفر.. اللى راجع بأربعين وبخمسين ألف

واشتروا أطيان.. كانت الأطيان رخيصة وبنوا عمارات ومحلات لكن دول خدامين.. يروحوا تاني يشيلوا أسمنت وطوب ويرجعوا بلادهم.. لكن ماكبروش، هم عارفين مايقدروش يناسبوا أسياد البلد»!

هذه الشهادة رغم أنها تدلل على رفض الكثيرين لهذه المصاهرة إلا أنها في الوقت نفسه تشير إلى حدوث ذلك الأمر!

وهذا ما«فتّت» وحدة العائلة التى قبلت هذا الزواج..فقد حدث عندما سافرتُ فى عام ٩٤ لرصد ردود أفعال بعض قبائل الهوارة لما يطرحه مسلسل «ذئاب الجبل» وهو مانشر فى حينها بمجلة الإذاعة والتليفزيون.. قال لى كبير عائلة «البهنساوى» فى قرية «أولاد يحيى» التى ترقد تحت الجبل الشرقى لمدينة دار السلام :«أنا وهبت ٨ قراريط أرض حرة لمن يقتل مخرج المسلسل».. لأنه «يسمح إزاى بأن تتزوج بنت الهوارة من واحد غريب».. ولما سألت الشيخ الكبير:«ألم يحدث هذا الأمر فى بلدكم وعائلتكم». رد منفعلا: «ماهى دى المصيبة.. إحنا عندنا واحد متعلم جوز بنته لواحد من عيلة واطية.. واحنا اتبرينا منه وقاطعناه.. لكن الفلاحين لما شافوا التمثيلية فى التليفزيون افتكروا مصيبتنا وعايرونا»! وهذا مايعنى أنه حدث هذا التمرد على سلطة العائلة ووحدتها وأن التعليم أسهم هو الآخر فى تغيير نظرة العائلات لقانون «الأصل فى مقابل محدثى النعمة»!! ومن ناحية أخرى تم تفتيت ماكان يسمى «بالبوابات»، لأن هناك علاقة وثيقة بين «السكن» و«السكان» فى الصعيد.. فقد تعودت قبائل الصعيد أن يسكن أفرادها مجتمعين فى منازل متجاورة.. يجمع كل مجموعة منها بوابة كبيرة تطل غالبا على مكان فسيح يسمى «الرهبة»، ولا يسكن أبناء الرجل الواحد بعيدا عن منزل أبيهم حتى بعد زواجهم.. وكانت العادة أنه فى حالة زواج فرد جديد فى أسرة ما، أن تبنى له العائلة حجرة جديدة فى المنزل نفسه نسميها «رواق العريس» إلا أن تفتيت الذمم المالية لأسر الصعيد بعد هجرات الخليج من ناحية وضيق البيوت على ساكنيها من ناحية أخرى وشيوع النظرة الاستهلاكية لدى بنات الصعيد بعد أن جلب العائدون من بلاد النفط «الفيديوهات.. الدشات والثلاجات الكبيرة» مما جعل العروس تطلب بيتا مستقلا.. وهو مايعنى خروج الأبناء بزوجاتهم بعيدا عن سيطرة الكبير وسيدة الدار الكبيرة ماديا ونفسيا، وكل هذا أسهم فى عدم توحد قرار العائلة الواحدة فى شخص كبيرها وأدى إلى عشوائية فى اتخاذ القرار.. هذه العشوائية تجدها واضحة أيضا فى طراز بناء المساكن هناك الآن.. فبعد أن كانت بيوت الصعيد نماذج صحية متسعة عالية الأسقف مبنية بالطوب اللبن ومدهونة «بالحيب» - أحد أنواع الجير المخلوط بالطمى - صارت العمارات المسلحة المبنية بالطوب الأحمر والأسمنت المسلح شاهدا على اختلاط تركيبة القرى الصعيدية معماريا وعلى «خلطة القيم الطارئة والقديمة معا» داخل هذه المنازل!!

وكبير العائلة حقيقة تاريخية.. هى وظيفة بالأساس كان يسميها العرب «العريف» وقد جعل عمرو بن العاص على كل قبيلة «عريفا» له مكان خاص به، يدير من خلاله شئون قبيلته وله المكانة التى تؤهله لأن يفض المنازعات فى حالات القصاص عند القتل داخل القبيلة أو خارجها وهو الذى يقدر «الدية» التى يتم دفعها وهو فى

التحريض.. صناعة نسائية
شهادات



كان يظن الذين يذهبون إلى الصعيد حتى نهاية السبعينيات أن تلك المرأة التى لا تخرج من بيت زوجها إلى بيت أبيها إلا مرَّة واحدة كل عام، وإذا ما خرجت فإن البُردة. رداء ثقيل من الصوف يدثر الجسد بأكمله حتى لا يبين منه شىء. تطمرها وتنفى عنها وجودها.. وأنها مجرد تابع للرجل فى مجتمع ذكورى.. لكن الوقائع والأحداث وشهادات الذين سجلوها بالفن أو فى دراسات أكاديمية عن «وضع» المرأة فى الصعيد.. أثبتت أن المرأة فى الجنوب المصرى هى العنصر الفاعل فى حركة الحياة هناك.. حتى إن بعضهم وصف ذلك المجتمع بأنه يقبل سرًا حكم المرأة لتصرفاته وأفعاله لأنه حتى هذه اللحظة مجتمع أمومى.. وفى الثأر تقف المرأة على طرفى السكين فهى التى يتم رفع السلاح من أجل الحفاظ على عرضها وسيرتها.. وهى أيضًا العنصر الرئيسى فى التحريض على الأخذ بثأر عائلتها.. ويحفظ نساء الصعيد سيرة «حرب البسوس» كدستور ينفذونه على اختلاف فئاتهم فقراء وأغنياء.. ويتخذ هذا التحريض عدة أشكال، منها ما هو مباشر وعلنى، حيث تُصر الأم على تذكير أبناء عائلتها بدم رجلهم المهدر، كلما سنحت فرصة أو بطريق غير مباشر عن طريق ارتدائها الملابس السوداء والعقود الزرقاء المعروفة باسم «عُقد الحزون» والتعديد من حين لآخر. وهو فن نسائى يعتمد بطبيعته على تعديد محاسن الميت عمومًا والحث على أخذ دم الرجل المقتول.. وقد يتخذ تحريضها شكلاً أكثر صعوبة على نفوس أبنائها بأن تُشم ما بين ليلة وأخرى رائحة دم القتيل التى تظل عالقة بثيابه التى تحتفظ بها الزوجة حتى يتم أخذ ثأره.. ورغم أن أشياء كثيرة تغيّرت فى الصعيد من أول ارتداء «البُردة» واستبدالها بأحدث صيحات الأزياء لدى فتياته اللاتى يدرسن بالجامعات المختلفة، إلا أن دور المرأة فى التحريض على الثأر يظل هو الأقوى حتى الآن..

وفيما يلى شهادات منشورة حول دورها فى ذلك من رجال ونساء بعضهم عاش هناك وبعضهم درس الظاهرة وأعاد كتابتها فنيًا.

قد يتصور البعض أن الرجال فى الصعيد يلعبون دورًا فى تعليم أولادهم لغة الثأر.. لكن الحقيقة غير ذلك، فالابن عادة لا يكون فى حاجة لأن يتعلم من أبيه تعاليم الثأر.. فالأجواء التى ينمو فيها هذا الابن تتردد فيها بصفة دائمة أصداء الثأر.. فالمناخ فى هذه المنطقة ملبد بكلمة «التار» والأب عمومًا لا وقت لديه لأن يجلس مع الصغار ليغذيهم بمفهوم الثأر.. وبالتالى تصبح هذه المهمة ملقاة على عاتق الأم.

الشاعر عبد الرحمن الأبنودى

الأم الصعيدية إذا كانت بلا زوج أو ابن «تقتل بيدها ابنتها التى حملت سفاحًا». لتغسل عارها.. ولا تقبل فى ذلك نقاشًا.. فشرف الأسرة أهم لديها من عاطفة الأمومة.

أما إذا كان القتيل ابنها أو زوجها أو أخاها.. فإن الحياة تتوقف بها.. وتظل صورة القتيل فى وجدانها.. وفى خاطرها.. بعكس الرجل الذى يأخذ الأمر بعقله أكثر من عاطفته.

إن المرأة الصعيدية تظل تعانى الألم والحزن والكآبة سنوات طويلة وتضفى على بيتها جوًا غريبًا مشبعًا بالكراهية والغضب والرغبة فى الانتقام. ولا تتنفس الصعداء إلا إذا تحقق لها ما تريد، عندئذ تتلقى العزاء، وتستأنف حياتها لا يهمها أن يلقى بابنها فى السجن أو أن يعيش معرضًا للثأر منه، وإنما الذى يهمها أنها نفذت العرف، وطبقت التقاليد، فآن لها أن ترفع رأسها فخورة مزهوة بين الناس.

عالم الاجتماع
د. أحمد المجدوب

حين تفقد المرأة رجلها.. الذى تعتبره دنياها.. تشعر بأنها قد وصلت إلى نهاية العالم بلا ملجأ.. ولاحام «فتستعر النار بداخلها.. ولا يتبقى أمامها إلا أن تدفع بالرجال الباقين فى عائلتها إلى أتون النار والهلاك وتستخدم المرأة فى سبيل هدفها هذا كل الوسائل الممكنة لتثير نخوة الرجال.. فمرة تذرف دمعتين على الخد.. ومرة آهة ممدودة من القلب.. وسرعان ما تصل إلى هدفها.

كاتب الدراما محمد جلال عبد القوى

إن الرجل فى الصعيد من الممكن إقناعه بأن القانون ينبغى أن يأخذ مجراه وحده.. ولكن المرأة لا يمكن إقناعها بذلك، فهى تأخذ الأمر بصورة مختلفة تمامًا.. تتعامل مع الثأر بقلبها ووجدانها، وتجعل من البيت «مندبة» حقيقية حتى يتم المراد.

ناريمان الدرملى
عضو مجلس الشعب



الثأر والهجرة والبطالة في الصعيد



الوقت ذاته الذى لم يكن يتم الأخذ بالثار دون إذنه.. هذا الكبير كان يستمد سطوته ونفوذه من معرفته بأحكام الدين ومن ماله الكثير وأراضيه المنتشرة وبيوته التى يمنحها للفقراء ليسكنوها أحيانا ومن تعامله مع «الكُبارات» فى الدولة أيضا.



ولم يمنح التعليم الجامعى المنتشر فى الصعيد (هناك جامعات أسيوط، وجنوب الوادى والأزهر) الثقافة لبنات وشباب الصعيد.. تلك الثقافة التى تخرج بمجتمعاتهم عن عزلتها وتحفظ فى الوقت نفسه تلك البيوت من عدوى القيم الطارئة. والأهم أنها منحت هؤلاء الشباب «ندية وهمية» لذلك الكبير الذى فقد سطوته ودوره، وظهر فى محاضر الشرطة فى أقسام الصعيد من يتهم ابنه بالتعدى عليه أو من تتهم والدها أو شقيقها الأكبر بنهب حقوقها بعد أن كان مجرد وصول الأنثى إلى قسم الشرطة عيبا وعارا فى حد ذاته.

ومثلما انهارت قيمة الكبير انهارت قيمة سيدة الدار التى تعرف عدد ملحه وعيشه وتسك على أمواله وأسراره فى «خزنتها» أو «سحارتها»، بينما المفتاح معها وحدها «معقوصا» فى شعرها.. هذه السيدة الكبيرة هى التى كانت تحكم الصعيد فعليا، لكنها اختفت الآن ولم تحل المرأة العاملة أو الحزبية (فى كل أمانات الأحزاب هناك أمانات للمرأة) بديلا لها!

هذه الظواهر ناقشها د. سمير نعيم فى كتابه «أهل مصر» الصادر فى عام ٩٣ وانتهى إلى أن الهجرة إلى بلدان النفط ساعدت على ترسيخ التطلعات الاستهلاكية لدى المهاجرين أنفسهم ولدى الذين لم يهاجروا وارتبط ذلك بخلل جسيم فى أنساق القيم الجماعية والغيرية وقيم الاستسهال والارتزاق والكسب دون جهد والثراء السريع..

ثم كان أن عاد هؤلاء الذين هاجروا للخليج بعد أن جفت آبار البترول.. وضاقت الزراعات على ناسها.. وانتشر الفراغ والبطالة دون أن تنتبه الحكومة المركزية فى القاهرة إلى هذه الأعداد المهولة والتى تحددها بنسب تقريبية أرقام الحاصلين على تعويضات من حرب الخليج من أبناء محافظات الصعيد بما هو أكثر من مليونى فرد!! هذا الإهمال وعدم الانتباه هو ماوصفه د. جلال أمين فى كتابه «وصف مصر فى نهاية القرن العشرين» بأنه.. «حقيقة لايمكن إنكارها»!! إلى جانب حقيقة أخرى لايمكن إنكارها أيضًا وهى أن جماعات العنف التى ظهرت بشدة فى صعيد مصر منتصف الثمانينيات وهى المعروفة «بالجماعات الأصولية المتشددة» كانت قد استغلت هذه العلاقات المتشابكة فى تركيبة أبناء الصعيد واقتصادياتهم ونفسياتهم - كما يذكر - خالد البرى فى كتابه «الدنيا أحلى من الجنة - مذكرات أصولى مصرى - الصادر عن دار النهار بيروت عام ٢٠٠١ - فقد وفرت هذه الجماعات الحماية لمن لاحماية لهم من أبناء العائلات الضعيفة. يقول خالد البرى: «وحتى صيف ١٩٨٧م لم أكن أعتبر نفسى عضوا فى الجماعة الإسلامية وكنت أرى أنهم أصدقاء أحبهم وأتعاطف معهم وهم يبدون اهتماما شديدا بى ويسالون عنى إذا غبت عنهم، بينما يشعرنى بالراحة أدبهم الجم وأحس بالحماية حين أكون بينهم».. هذه الجماعات التى وفرت الحماية هى نفسها التى استغلت العنف العشوائى لدى أبناء الصعيد ووجهته تجاه الدولة ومؤسساتها!! ولما انتبهت الدولة وأنهت وجود هذه الجماعات فى مدن الصعيد وقراه لم توجد البديل الذى يستوعب هذا العنف.. ذلك العنف الذى تعددت أشكاله ومظاهره فى المجتمع المصرى بأسره، حتى أن مؤتمرا انعقد فى الفترة من ٢٠ إلى ٢٤ أبريل الماضى بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة حول الأبعاد الاجتماعية والجنائية للعنف فى المجتمع المصرى ناقش فى ٣٠ ورقة بحثية ودراسة ميدانية تطور هذا العنف وأساليبه وآلياته.. ذلك العنف رصدته أيضا الأجهزة الأمنية فى صورة أسلحة آلية كثيرة تم ضبطها فى سوهاج وقنا وأسيوط فى العامين الأخيرين و«التشوه» فى صورة انتشار زراعات مخدرات غريبة على العالم الصعيدى مثل البانجو حتى أن قرية كاملة فى أسيوط - نجع سالم - حسبما جاء فى تقرير وزارة الداخلية عن عام ٢٠٠١ يعمل معظم أفرادها فى زراعة وتجارة البانجو!!



إذن نخلص إلى أن الثأر كقانون عرفى موجود منذ آلاف السنين فى صعيد مصر وأنه كان - فى وقت ما - أحد العوامل المهمة لحفظ كيان الصعيد وعائلاته لأن من يفكر فى القتل كان يعرف أنه هو نفسه سوف يقتل ولو بعد حين!! إلا أن تلك العوامل الطارئة على ذلك المجتمع المغلق صاحب القوانين الخاصة جدا والمعقدة جدا ساهمت فى أن يتحول هذا القانون الثأرى إلى مسخ!!

هو عنف جديد يتخذ من الثأر ستارا ليقبله المجتمع الصعيدى كما نراه.. وهو صعيد مختلف تلاشت ملامحه الحقيقية وبهتت عليه تراكمات سياسات خاطئة لاتعرف حقيقة هذه الأرض التى كلما زادت فى الارتفاع والصعود زاد أبناؤها حدة وعنفا.. وكلما ضاقت عليهم معايشهم عبروا عن ضيقهم بأساليب كنا نعرف قوانين السيطرة عليها فى الزمن القديم، لكننا الآن لانعرف هذه المواجع.. ولانعرف بأى قانون نكبح جماحها ولنا فى حادثة «بيت علام أسوة» قد تكون إذا ما انتبهنا إليها جيدا «حسنة». ■

«نجيب محفوظ» سورية

من الثورة العربية إلى الانفصال

ذكريات عبدالسلام العجيلي

حلمي محمد القاعود



[١]

يسمونه في دمشق «نجيب محفوظ» سورية. فهو حقًا أبرز أدبائها، وأكثرهم نضجًا، وأقلهم ضجيجًا، وأغزرهم إنتاجًا؛ خاصة في الرواية الطويلة والقصة القصيرة، بالإضافة إلى مقالاته ومقاماته، وأشعاره ومحاضراته..

إنه الأديب «عبد السلام العجيلي» من مواليد الرقّة في الشمال الشرقي لسورية على نهر الفرات، عام ١٩١٨م، وهو طبيب يمارس مهنة الطب في عيادته الخاصة ببلدته هذه منذ تخرجه حتى الآن، باستثناء فترتي النيابة والوزارة، حيث انتخب نائبًا في المجلس النيابي السوري أواخر الأربعينيات، وظل به نحو سنتين، عاد بعدهما لممارسة الطب في بلدته، فقد ألغى انقلاب «حسني الزعيم» (١٩٤٩) الحياة النيابية، وبذلك لم يعد نائبًا.. ثم تولى الوزارة في سورية أوائل الستينيات لمدة شهور، ترك بعدها الوزارة، والسياسة جميعًا، ولم يعد لهما مرة أخرى، وإن كان قد عاد إلى عيادته في الريف السوري يتعامل مع المرضى البسطاء من أهل المنطقة، ويكتب في أوقات فراغه عنها وعن مشاهداته داخل سورية وخارجها، ويتابع - ولايزال - أحدث ما يدور حول قضايا الطب في العالم بلغته الفرنسية الفائقة، قراءة وكتابة ومحادثة، بالإضافة إلى مطالعة الكتب الأدبية والثقافية والفكرية بوجه عام، في لغتنا العربية، وغيرها من اللغات التي يجيدها.

لقد توثقت علاقتي بالرجل في أواخر الستينيات عبر البريد، وطالعت معظم إنتاجه الأدبي (بلغ الآن واحدًا وأربعين كتابًا، عدا الفصول التي نشرتها الصحف والدوريات ولم ينشرها في كتب)، وكتبت عن معظم رواياته وقصصه ومحاضراته ومقالاته، وكنت بسبيل نشر كتاب عنه، ولكن الناشر ضيعه.. وقد التقينا في العاصمة السعودية (الرياض) عام ١٩٩٤ أو ١٩٩٥، وقضينا وقتًا ليس بالقصير في حضور الدكتور «عبد العزيز الخويطر»، وزير المعارف السعودي السابق، ورأيت فيه نموذجًا للرجل البسيط المتواضع الزاهد الذي يدفعك إلى احترامه وتقديره. إنه نموذج فريد حقًا لكاتب آثر أن يعيش بين أهله البسطاء في بيئة أقرب إلى البداوة، ولا تغريه أضواء العاصمة أو وجاهة السياسة بالنزوح عنها، والهرولة إلى الشهرة والدعاية، وفي الوقت ذاته يعيش حتى النخاع في قضايا أهله المحليين وشعبه السوري وقومه العرب، وينفعل بقضاياهم وأحداثهم، ويتفاعل معها، ويسعى إلى الاستفادة من علاقاته بالأصدقاء الأجانب والمستشرقين لخدمة هذه الأحداث وتلك القضايا.

إنه ينقل حياته المعاشة إلى الورق أدبًا حقيقيًا مؤثرًا، بلا افتعال ولا تكلف، وكان يصف كتابته الأدبية بأنها نوع من التسلية، ولكن «ميشيل عفلق» قال له ذات يوم: إن ما تتسلى به هو الذي سيبقى، أما ما نفعله نحن (يقصد العمل السياسي) فسيذهب. ويبدو أن «ميشيل عفلق» كان صادقًا في مقولته، فأدب العجيلي يمثل نموذجًا رفيعًا للفن الأدبي في أدبنا المعاصر، خاصة في الرواية، حيث يملك موهبة فذة في السرد بطريقة بسيطة، ولكنها مدهشة في تشويق القارئ وجذبه إلى متابعته والوصول معه إلى النهايات التي تمثل تخوم عالم سحري جميل، يضم هموم الأمة وآمالها في سياق من الجمال الفني، الذي يصنعه أسلوب رصين سلس، استوعب التراث، وتفاعل مع الواقع، واستفاد من الأنماط الغربية في التعبير والتصوير.

قدم العجيلي حتى الآن ست روايات طويلة هي: باسمة بين الدموع، قلوب على الأسلاك، أزاهير تشرين المدماة، المغمورون، أرض السياد، أجملهن. وهناك رواية كتبها بالاشتراك مع «أنور قصيباتي» وعنوانها: ألوان الحب الثلاثة.

وفي القصة القصيرة، قدم ثلاث عشرة مجموعة، هي: بنت الساحرة، ساعة الملازم، قناديل إشبيلية، الحب والنفس، الخائن، رصيف العذراء السوداء، الخيل والنساء، فارس مدينة القنطرة، حكاية مجانين، الحب الحزين، فصول أبي البهاء، موت الحبيبة، مجهولة على الطريق.

وللعجيلي ديوان شعر واحد بعنوان «الليالي والنجوم»، عدا قصائده التي لم تجمع، وله مجموعات أخرى من الكتب بعضها يضم محاضراته أو رحلاته أو مقالاته أو حكاياته الطبية أو غيرها.

ولكنه في العامين الأخيرين، وبإلحاح من ناشره، كتب ذكرياته السياسية، فأصدر الجزء الثاني من هذه الذكريات قبل الجزء الأول، ونوه عن ذلك على غلاف الكتاب، وفي الصفحات الداخلية، والسبب في ذلك أن الجزء الثاني تناول ذكرياته في الوزارة، وهي أقرب إلى الذاكرة من ذكريات النيابة أو المجلس النيابي، وقد صدر الجزء الثاني «ذكريات أيام السياسة» عن دار رياض الريس، لندن، عام ٢٠٠٠ (ديسمبر تحديدًا)، وصدر الجزء الأول بالعنوان ذاته وعن الدار نفسها، مايو ٢٠٠٢.

وهو يحاول في ثنايا الذكريات أن يعفي نفسه من مسئولية التأريخ للأحداث، ويؤكد على أنه يسجل ذكريات لا مذكرات، وهو يعلل ذلك بأن بعض القراء قد يأخذ عليه أنه يضع نفسه موضع القطب الرئيسي للأحداث التي أوردها في الكتاب، لكن طبيعة تسجيل الذكريات الشخصية، تجعل الراوي القطب والمركز فيما يرويه، وقد يأخذ عليه بعض القراء أنه يكرر بعض الأحداث في أكثر من فصل وينتج التكرار، لأنه سجل هذه الذكريات في أوقات متباعدة قد تمتد إلى شهور أو سنين، لهذا وغيره لا يضع العجيلي نفسه موضع المؤرخ.. وهو على كل حال، لا يتبرأ من أثر السياسة، أو من دوافعها، في إنشاء هذا الكتاب، ولا يقصد إلى إخفاء نشاطه السياسي أو التنصل منه، فقد بسط آراءه في قضاياها بسطًا صريحًا واضحًا. وإذا كان الرجل يخرج من دائرة التاريخ السياسي للمرحلة التي اشتغل فيها بالسياسة، فإن المادة الغزيرة التي قدمها على امتداد كتابه أو امتداد جزءيه هي مادة أساسية للتاريخ السياسي، ويجد فيها المؤرخ وثائق ومواقف ووقائع وأحداثًا تضيء جوانب عديدة في فترة من أهم فترات تاريخنا الحديث، أعني بها القرن العشرين.

[٢]

يُعرَّف الإنسان في بعض التعريفات بأنه حيوان سياسي. والسياسة في هذا التعريف معناها اهتمام المخلوق بالمجتمع الذي يعيش فيه، بملاحظة ما يجري في هذا المجتمع والتحري عن عوامل التغير فيه، وربما التفكير والعمل بما يسهم في هذا التغير سلبًا وإيجابًا. وتخضع سياسة الإنسان وتظاهراتها إلى عوامل عدة بين وراثية ومكتسبة تفرضها البيئة والتربية والأحداث التي تمر بالإنسان ويمر هو بها.



وعلى هذا يرى كاتب الذكريات أنه واحد من هذه الحيوانات السياسية مادام إنسانًا له قلب وأعصاب وفكر - ويكشف لنا الطريقة أو الكيفية التي بدأ بها سياسته وزمانها، والقراءة التي أولع بها منذ أول الصبا هي المكون الأول حيث اجتمع لديه عدد كبير من الكتب أكثرها في التاريخ القومي والإسلامي، بالإضافة إلى الصحف الوطنية وخاصة جريدة «القبس» التي كان يملكها ويحررها «نجيب الريس». ثم كانت معايشة الكاتب للأحداث التي تدور في سورية تحت سطوة الاحتلال الفرنسي، وخاصة الانتخابات النيابية التي جرت عام١٩٢٨، وكان جد الكاتب لأمه مرشحًا فيها ممثلاً للوطنيين أو الكتلة الوطنية التي فازت بمقاعد الأغلبية.

في المدرسة الثانوية تبلور اهتمام العجيلي بالسياسة، فكان من زعماء الطلاب والمظاهرات والإضرابات بتجهيزية حلب، ويروي لنا كيف اشتعلت المظاهرات

ذكريات أيام السياسة
عبد السلام العجيلي
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر «جزءان»،
٢٠٠٠-٢٠٠٢

والإضرابات عندما قدمت فرنسا لواء الإسكندرونة لتركيا. وحين أصدر وزير المعارف آنئذ قراراً بإيقاف التدريس في مدرسة حلب التجهيزية وإغلاقها لمدة أسبوعين قابلين للتمديد، بما يترتب على ذلك من إلغاء امتحانات نهاية العام وضياع سنة كاملة على الطلاب، وتدبر العجيلي الأمر، وقرر أن يقابل وزير المعارف بوصفه رئيس لجنة الطلاب. ليعيد الدراسة لجميع الطلاب ويعاقبه هو، فتطلع إليه الوزير بإمعان، ثم قال له: حسنًا، أنت طلبت هذا بلسانك. سآمر بفتح الثانوية، أما أنت فعد نفسك مفصولاً من الدراسة فصلاً نهائيًا، ولن تقبلك مدرسة أخرى في هذه البلاد. ستجد قرار طردك عند مدير مدرستك.

أحدثت الصدمة فعلها في الطالب الشاب الثائر الذي تحمل المسئولية عن زملائه، وحين انتهى إلى مدير المدرسة تلقاه بوجه عابس وقال بلهجة بين التأنيب والإشفاق: أمرنا معالي الوزير باستئناف التدريس في مختلف الصفوف. أما أنت فقد سمح لك أن تعود إلى صفك، وهو ينصحك بأن تحسن قيادة زملائك في الظروف الحرجة!

هذا الموقف وتأثيراته ينبئ عن تفكير سياسي، ينظر إلى مصلحة المجموع قبل المصلحة الذاتية، ويحكمه القيام بالواجب مهما كانت العواقب.

في كلية الطب بدمشق، وكانت تسمى «المعهد الطبي العربي» انخرط كاتب الذكريات في لجان الطلاب ونشاطاتهم، ويشير إلى مشاركته في مناسبتين الأولى عندما اعتقلت السلطات الفرنسية الرئيسين بشارة الخوري ورياض الصلح ورفاقهما عام ١٩٤٣ فقامت المظاهرات الصاخبة احتجاجًا على الاعتقال، ثم ابتهاجًا عند الإفراج عنهم. والمناسبة الأخرى كانت في السنة الأخيرة من الدراسة عام ١٩٤٥، عندما اعتدت فرنسا على حامية برلمان دمشق وهدمت واجهته مما أدى إلى قيام الثورة في كل أنحاء سورية، وبكل فئات شعبها، وهي الثورة التي انتهت بجلاء فرنسا عن أرض الوطن.

بيد أن الحدث المهم في فترة الدراسة بالمعهد الطبي العربي (كلية الطب) بدمشق، هي دخول العجيلي إلى مجلس النواب السوري، ليكون نائبًا عن منطقة الرقة التي يعيش فيها مع أهله وعشيرته، وهذا الحدث يكشف عن طبيعة الحياة السياسية في البلاد العربية عامة وسورية خاصة، ويوضح كيف يتعامل الناس مع النواب والانتخابات، وكيف تتم هذه العملية وفق معادلات منظورة وأخرى خفية، وكيف تعبر في النهاية عن مفاهيم ورؤى تؤثر في السياق العام لحركة الشعب والأمة جميعًا.

لقد صار العجيلي أمينًا للمجلس النيابي يجلس بجوار رئيسه «فارس الخوري» الذي كان في ذلك الوقت رئيسًا لمجلس الأمن الدولي بالأمم المتحدة في إحدى دورات انعقاده، وقد أتاح منصب أمين المجلس النيابي للعجيلي أن يتعرف على زملائه واحدًا واحدًا، وكان زميله في أمانة المجلس الشاعر الكبير «بدوي الجبل» مما فتح لهما صداقة وثيقة استمرت حتى وفاة الأخير. وقد تابع العجيلي من خلال موقعه جلسات المجلس وما يدور فيه من مساجلات ومناورات - بحس الأديب الشاعر - فرأى مشاهد كان يعجب من بعضها ويضحك من بعضها الآخر، وكان يصدمه بعضها فيتألم ويحزن، ويروي من ذلك بعض ما جرى في جلسات الدورة الاستثنائية من جدال حول بعض الأمور القانونية انتهى بتماسك بالأيدي بين بعض النواب بل من اعتداء بالضرب باليد من أحدهم على زميله، وياسى الرجل على ما يحدث أحيانًا من بعض الناس يفترض أنهم صفوة المجتمع ويراه نشازًا في سلوك المؤسسات السياسية حين يكون لكل فعل سيئ رد فعل أسوأ.

مفارقات المجلس النيابي كثيرة ويروي العجيلي بعضها، ولها في كل الأحوال دلالات لا تخفى على من يتابع العلاقة بين النواب والحكومة أو بين بعضهم والرئاسة، وهي في مجموعها تكشف عن بعض ملامح الصراع بين «البراجماتية» والمثالية في العمل السياسي العربي بصفة عامة، أو في البلدان العربية التي عرفت المجالس النيابية.

لقد اضطر العجيلي ذات يوم إلى أن يضع استقالته أمام الرئيس شكري القوتلي حين علم أنه غاضب منه بسبب الانتخابات في حلب، فقد قال له لدى مقابلته في قصر الرئاسة:

«يا فخامة الرئيس. جئت إليك وأنا مملوء الصدر حزنًا. قال: ماذا حدث؟ قلت: بلغني أنك غاضب من سلوكي ومن آرائي في قضية طعون نواب حلب. أنا على علم بمنزلة بعض المرشحين في نفسك. ولكن القضية المطروحة قضية يحكم فيها الضمير والوجدان والنصوص القانونية. إني أضع بين يديك استقالتي من النيابة، ولك أن تتصرف بها كما تشاء. وأقول مخلصًا إني أتنازل عن النيابة بكل رضا لقاء ألا تكون غاضبًا عليّ. كل ما أرجوه هو ألا تكلفني بتصرف لا يرضى ضميري أو يخالف ما أعتقد أنه الصواب».

يواصل العجيلي روايته:

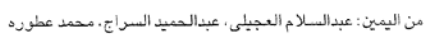
«جاءني رد شكري القوتلي بهدوء، مباشرة ودون محاورة أو مداورة. قال لي: اسمع يا دكتور. ما نقل لك على لساني لا صحة له بتاتًا وأنا لا أكلفك بشيء لا يرضى به ضميرك. أنت شاب في أول عمرك فاحرص دومًا على أن تتصرف بما يرضى به الضمير. اعمل ما تراه هو الصواب. وليكن في علمك أن ذلك لن يغير أبدًا من محبتي لك وتقديري لك. أنا لست غاضبًا منك لشيء أو عاتبًا عليك بشيء. اذهب بارك الله فيك». «بارك الله» هي الكلمة التي كان ينهي بها الحديث دومًا، وقد ثبّت مجلس النواب بأكثرية أعضائه بعد ذلك نيابة رزق الله أنطاكي ويوسف إليان، ولم أر من شكري القوتلي. لا لهذا الأمر ولا لسواه، أي تغير في عطفه عليّ أو رعايته لي».

ولا ريب أن هذه القصة، بعيدًا عن علاقتها بصاحب الذكريات، تكشف عن بعض ملامح الرئيس السوري الراحل «شكري القوتلي» الشخصية، وتفسر لنا بطريقة ما طبيعته الإنسانية والخلقية التي جعلته يتنازل عن رئاسة سورية عام ١٩٥٨ من أجل الوحدة مع مصر، ويكتفي بلقب المواطن الأول، وفي الذكريات حوادث أخرى بين الكاتب والرئيس القوتلي تكشف عن معدنه ووطنيته وإخلاصه للقضية العربية عمومًا، والفلسطينية خصوصًا، وإن كانت الأحداث قد جاءت بما لا يشتهي ونشتهي!

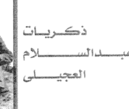


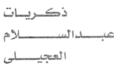
ويحدثنا العجيلي عن علاقته برئيس المجلس فارس الخوري عقب عودته من الأمم المتحدة، وتقريبه له، وخاصة عند غياب واحد من أميني السرّ كي يجلس بجواره على المنصة، وكيف كان يستعين به ليتعرف على المتحدثين، ولا سيما أولئك الذين يسهبون في الكلام ولا يكون لكلامهم زبدة مفيدة. ويذكر أنه أحيانًا عندما تكثر الخطب الطويلة في مواضيع متشابهة كان يضع نظارتيه السوداوين على عينيه ويقول للعجيلي: إذا حدث شيء مهم نبهني! ثم يستسلم إلى إغفاءة خفيفة لا يدل عليها جمود جذعه على مقعده وراء المنصة العالية، وفي أحيان أخرى - يقول العجيلي - كنا نترك الخطباء لكلامهم الكثير ونتحاور في همس حول بعض القضايا الفكرية واللغوية.

يذكر الكاتب أنه كان بسبيل نظم قصيدة ساخرة بعنوان «جنة النفط» يتحدث عن مواقف بعض الحكام العرب حيال القضية الفلسطينية، وهي قصيدة لم تنشر في حينها، ولكنها سارت على


من اليمين: عبدالسلام العجيلي، عبدالحميد السراج، محمد عطوره







ذكريات عبد السلام العجيلى

الألسن وادّعاها كثيرون لأن اسمه لم يوضع عليها، وكان منها هذا البيت:

وما والدى فى مسجد القدس موسّد
وليس لأجدادى بغزة اقبر

فسأله - أى سأل فارس الخورى - هل يجمع قبر على أقبر؟ هز هامته الضخمة، وقال فورًا: كيف لا؟ ألا تحفظ بيت أبى العلاء حين يقول:

أرواحنا معنا وليس لنا بها
علم، فكيف إذا حوتها الأقبر؟

فاثبت الكلمة فى مكانها مع أن لسان العرب ومعاجم أخرى لم تذكرها جمعًا لقبر. ففارس الخورى حجة والمعرى حجة، والعرب جمعوا نهرًا على أنهر، وعصرًا على أعصر، وسهمًا على أسهم، ونجمًا على أنجم.

وفى ذكريات العجيلى تأصيل سهل وقريب لما عرف بمشروع «سورية الكبرى» حيث كان هذا المشروع حلمًا أو اسمًا لحلم سكن مخيلة الأمير، ثم الملك فيما بعد، عبد الله بن الحسين الهاشمى منذ عهد إليه بتولى حكم شريط من الأرض السورية اقتطع منها عام ١٩٢٠، بين الأردن والصحراء الشامية باسم إمارة شرقى الأردن. كان هذا الحلم يخبو ويتوهج بين الحين والحين فى مخيلة صاحبه، ويأمل فيه، إذا تحقق أن يبنى لنفسه مملكة مثل مملكة أخيه فيصل فى العراق، لا أن تقتصر سيطرته على هذا الشريط الهزيل الفقير المصطنع اصطناعًا. فى الفترة التى كانت سورية فيها تحت الانتداب الفرنسى تناضل المحتل فى مظاهرات وإضرابات وثورات متلاحقة كان هذا الحلم يبرز على لسان الأمير عبد الله فى تصريحات متباعدة ووعود جوفاء بطرد ذلك المحتل بجيش أردنى ما هو فى الحقيقة غير صنيعة إنجليزية، وحين استطاعت سورية فى نهاية المطاف أن تفوز باستقلالها التام، وبرزت فى الوقت نفسه المشكلة الفلسطينية بكل أخطارها ازداد توهج الحلم فى تفكير الأمير. كان قد حول إمارته إلى مملكة فأصبح يطالب بأن تتخلى سورية عن نظامها الجمهورى المستقل وتنضم إلى مملكته التى كانت تحت ستار معاهدة استقلال هشة، مجرد تابع للإمبراطورية البريطانية بعد انتصارها فى الحرب العالمية الثانية.

فى عام ١٩٤٥ جوبهت مطالبة الملك عبد الله برد عنيف من جانب السوريين حكومة وشعبًا، ولكن الملك لم ييأس وجدد مطالبته بعد إجراء انتخابات مجلس النواب السورى عام١٩٤٧ فاطلق بهذه المناسبة تصريحًا قال فيه: «إننى أعقد آمالاً كبيرة على البرلمان السورى الجديد الذى يضم نخبة من رجالات سورية المخلصين، ولا سيما الشباب المثقف منهم..» كما تضمن هذا التصريح تهديدًا ضمنيًا إن لم يقم مجلس النواب السورى بواجبه حيث سيجد نفسه - أى الملك - مرغمًا على اتخاذ الخطوات الفعالة لتحقيق مشروع سورية الكبرى بوساطة الجيش الأردنى - جيش الخلاص.

ولأن كاتب الذكريات كان من النواب الشباب فى سورية الذين يعنيهم هذا التصريح، فقد رد عليه بمقال كان افتتاحية جريدة «القبس» فى عددها الصادر ٧ سبتمبر ١٩٤٧ بعنوان: «من نائب سورى شاب إلى الملك عبد الله» تضمن فى البداية تصريح الملك كاملاً ثم أخذ يسرد تاريخ الهاشميين والثورة العربية الكبرى ومنزلة زعمائهم خاصة الحسين وفيصل، ثم تمنى أن تكون للملك عبد الله منزلة تماثل منزلة أبيه وأخيه أو تتفوق عليهما، فهى منزلة لا تنال باللقب والإمارة، ولكن بالإباء والأنفة وجهاد العدو والمحتل.

ويبين العجيلى خطورة مشروع «سورية الكبرى» على الجامعة العربية، ويكشف عن مباركة الملك عبدالله لضياع الإسكندرونة وعدّها أرضًا تركية وكأنه لم يسمع أن والده جعل أطنة حدًا شماليًا لسورية، ثم أشار إلى المذكرات التى ظهرت فى ديوان الملك لإحياء الحزازات وتأريث الأحقاد وتناولت سادات العرب بالنقد والتجريح، ثم يلمح إلى ما قام به الملك من منح الموظفين الفرنسيين فى تونس والجزائر أوسمة تقدير وهم الذين جوعوا الشعب العربى المجاهد فى إفريقية وساعدوا على إبادته، وينتهى إلى أن الشباب فى مجلس النواب السورى الذى عقد عليهم جلالة الملك الآمال يشرفهم أن يردوا على دعوته الباطلة بملء أفواههم: لا. وسيكون هذا أول واجب يؤدونه لهذا الوطن الذى ربوا على حبه وعاهدوا الله على خدمته. ثم يذكر الملك بما فعله جيش الخلاص الأردنى طوال ربع قرن، فهو لم يطرد الفرنسيين من سورية أو الصهاينة من فلسطين، ولكنه طعن الجيش العراقى من الوراء، ويعيد على مسامع الملك أبيات المتنبى التى قالها لذلك الخارجى الأول مختتمًا مقاله:

ولست باول ذى همة
دعته إلى ما ليس بالنائل
يشمر للج عن ساقه
ويغمره الموج فى الساحل

يشير العجيلى إلى أن رأيه فى الملك عبد الله لم يكن وليد الحلم بسورية الكبرى، ولكنه ولد قبل ذلك بزمان من خلال أمور متفرقة لاحظها فى سلوكه وأقواله، منها: تصرفاته عند غزو عبد العزيز بن سعود، سلطان نجد فى ذلك الزمن، لمملكة أبيه الشريف حسين بن على فى الحجاز، ومنها ما رواه عنه لورنس فى كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» وما تناهى إليه من قراءات متفرقة عن علاقاته الودية بكثير من اليهود، رءوس الحركة الصهيونية، ممن كانوا يعملون بكل السبل ليحولوا الوطن القومى الذى نص عليه وعد بلفور إلى دولة قائمة حقيقية راسخة البنيان.

شغلت قضية فلسطين كاتب الذكريات: إنسانًا وأديبًا وسياسيًا، فقد تطوع بنفسه فيما سُمى وقتها جيش الإنقاذ.. ليحارب مع المجاهدين ضد العصابات اليهودية المستعمرة، وكان قلمه مشغولاً بالقضية منذ أمسك به حتى الآن، وفى فترات عمله السياسى بمجلس النواب أو الوزارة أو اللقاءات السياسية والفكرية كان ينافح عن فلسطين وحق شعبها فى الوجود والكرامة.

وفى عام ١٩٩٤، أصدر كتابًا بعنوان «فلسطينيات عبدالسلام العجيلى» وظهر فى دمشق، ويضم الكتاب بعض ما كتبه عن فلسطين التى تعد قضية العرب الأولى فى القرن الأخير من تاريخهم المعاصر.

بعد حصول العجيلى على شهادةالبكالوريا (الثانوية) عام ١٩٣٧، علم أن المحامى «شفيق سليمان» هو أحد الذين يتولون إرسال المجاهدين إلى فلسطين، فذهب لمقابلته فى شارع رامى بدمشق، وحين أخبر الرجل برغبته فى السفر إلى الجهاد دون أن يعلم أحد من أهله أو معارفه، تطلع الرجل إليه ورأى صغر سنه، قال له: ارجع يابنى إلى بلدك وتابع تعلمك.. الثورة أكثر حاجة إلى بواريد وخرطوش (بنادق ورصاص) منها إلى الرجال!

وبعد هذه الواقعة بعشر سنوات (١٩٤٧)، وكان العجيلى نائبًا فى المجلس النيابى، وكان قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة قد صدر بتقسيم فلسطين، ثارت الشعوب العربية فى مختلف البلدان على القرار ورفضته الحكومات العربية التى قررت أن تقاوم تنفيذ هذا القرار بكل وسيلة. وقامت الجامعة العربية بتشكيل جيش الإنقاذ ليدخل الأرض الفلسطينية قبل أن يصبح قرار التقسيم نافذًا وليحول دون قيام الدولة العبرية المخطط لقيامها. تألف جيش الإنقاذ مبدئيًا من فوجين من المجاهدين المتطوعين، وتولى قيادته الثائر العربى القديم فوزى القاوقجى. كان الفوج الأول يتكون من مجاهدين من مختلف البلاد العربية بقيادة القاوقجى مباشرة. أما الفوج الآخر فقد كان يتكون من مجاهدين سوريين وتولى قيادته الرئيس (الرائد) أديب الشيشكلى، أحد ضباط الجيش السورى. والتحق العجيلى بالفوج الثانى (فوج اليرموك) ليدخل مع رفاقه المتطوعين الأرض الفلسطينية، فى بداية الأسبوع الأول من شهر يناير من عام ١٩٤٨. ويحكى العجيلى عن وقائع الفترة التى قضاها فى فلسطين وتردده بين جيش الإنقاذ ودمشق، ويتناول بالحديث كثيرًا من الشخصيات التى شاركت فى الحرب بوصفهم مجاهدين متطوعين من سورية أو من العالم العربى ويتوقف عند السياسى المصرى «أحمد حسين» مؤسس مصر الفتاة، ويذكر بعض التفاصيل الخاصة بوجوده فى جيش الإنقاذ.

بيد أن أهم ما يشير إليه العجيلى فى هذه المرحلة ما جرى على الساحة العربية تجاه القضية الفلسطينية، وما حدث على الساحة السورية السياسية، وكان المجلس النيابى السورى ميدانًا لها.

التقى كاتب الذكريات بعبدالرحمن عزام باشا فى مجلس الأمير محجم بن مهيد، شيخ عشيرة الفدعان ونائب عشائر دير الزور البدوية بالبرلمان. وعبدالرحمن عزام باشا، كما هو معروف ينتمى إلى عشيرة بدوية فى مصر، ولعل هذا ما دفعه إلى زيارة الأمير محجم فى داره حين قدم إلى دمشق فى سياق التهيئة لدخول الجيوش العربية مجتمعة فلسطين ابتداءً من منتصف مايو، بغية الحيلولة دون تنفيذ قرار التقسيم وقيام الدولة العبرية. كان واضحًا أنه لابد من تدخل الجيوش الرسمية فى المعركة بعد أن أخفقت قوى المجاهدين المتطوعين، سواء جيش الإنقاذ الذى ترعاه الجامعة العربية أو جيش الجهاد المقدس الذى يترأسه الحاج أمين الحسينى ويقوده عبدالقادر الحسينى، بعد

يبين العجيلى خطورة مشروع «سورية الكبرى» على الجامعة العربية، ويكشف عن مباركة الملك عبدالله لضياع الإسكندرونة وعدّها أرضًا تركية وكأنه لم يسمع أن والده جعل أطنة حدًا شماليًا لسورية



مذكرة

السيد الأمين العام لجامعة الدول العربية
القاهرة

إني أحملكم المسؤولية بعد أن تركتم جنودي في أوج انتصاراتهم بدون عون أو سلاح.

عبدالقادر الحسيني

مذكرة عبدالقادر الحسينى التى وجهها قبل استشهاده إلى عبدالرحمن عزام

أن أخفقت هذه القوى فى تنفيذ تلك الحيلولة. وكان لابد من التحدث فى مجلس الأمير عن المعركة أو المعارك المقبلة التى ستنشب بين القوى العربية وبين القوات اليهودية بعد أن تنسحب انجلترا من فلسطين. كما كان لابد أن يكون أول المتحدثين فى هذا الموضوع وأهمهم أمين الجامعة العربية التى تشرف على التخطيط لهذه المعارك وتتولى توجيهها وإدارتها.

قال عبدالرحمن عزام باشا فى حديثه فى ذلك المجلس: إن الحرب بيننا وبين اليهود فى فلسطين لابد واقعة. وقال إن اليهود سيحشدون لهذه الحرب نحوًا من اثنين وستين ألف محارب»، وأضاف: «إن كثيرًا من محاربيهم مدربون على القتال لاشتراكهم فى معارك الحرب العالمية الأخيرة، فى صفوف جيوش الحلفاء، ضد الجيوش الألمانية فى مختلف الجبهات».

اثنان وستون ألف محارب فى جيش الهاجاناه اليهودى ليسوا عدداً هينًا. إلا أن ذلك لم يكن مخيفًا مع ما كان يُقرأ ويُسمع عن قوى الجيوش الخمسة، جيوش سورية ولبنان ومصر والأردن والعراق، إضافة إلى المفارز السعودية التى ستنضم إلى هذه الجيوش على الرغم من معارضة الملك عبدالعزيز لخطة الجامعة العربية فى خوض هذه الحرب، وهى معارضة كان الناس يستنكرونها فى حينه، وتبين لهم بعدئذ صحتها وصوابها.

يقول كاتب الذكريات: «أنا وأمثالى كنا من الناحية النظرية فى قلب القضية، مفروضًا بنا أن نكون على علم بكل خوافيها. غير أننا تبينا بعد أن نشبت الحرب فعلاً وتتالت خسائرنا أن الحقائق كانت تستر عنا بحجة المحافظة على الأسرار الحربية، وأن ثقتنا بأنفسنا كانت فى غير محلها. لقد كانت تقديرات أمين الجامعة عن عدد المحاربين اليهود صحيحة، وكان المفروض أن نلاقيهم بعدد مماثل أو متفوق من المحاربين العرب. غير أننا عرفنا، متأخرين وبكل حزن وأسى، أن جيوشنا الخمسة لم تدخل المعارك فى أول أيامها إلا بمحاربين لا يتجاوز مجموعهم عشرين ألف جندى»!



فى كتابه (الحرب العربية الإسرائيلية) يورد الكاتب «إدجار أوبالانس» عددًا لمحاربى الهاجاناة قريباً من العدد الذى سمعته باذنى من عبدالرحمن عزام باشا. إنه يقدرهم بحوالى ستين ألف جندى. أما عن الجنود العرب فإنه لا يفصل فى عدد المشتركين منهم فى الحرب فى أولها. أما آفى شلايم فى كتابه (سياسات التقسيم) فيوافق على عدد المحاربين اليهود الستين ألفًا، ويعد عشرين ألفًا وخمسمائة جندى عربى. من هذا العدد الأخير عشرة آلاف جندى من مصر، وثلاثة آلاف من كل من سورية والعراق، وأربعة آلاف وخمسمائة جندى من الفيلق العربى الذى هو جيش الأردن...».

يذكر الدكتور العجيلى أنه تلقى قبل عام مضى من أحد أصدقائه صورة ضوئية لبضعة سطور أرسلها عبدالقادر الحسينى إلى عبدالرحمن عزام، أمين الجامعة العربية التى يتبعها جيش الإنقاذ قبل يوم واحد من استشهاد ذلك المجاهد البطل وهو على رأس قواته فى معركة القسطل. فى تلك السطور يقول عبدالقادر الحسينى:

القسطل فى ٦/٤/١٩٤٨

السيد الأمين العام لجامعة الدول العربية

القاهرة

إنى أحملكم المسئولية بعد أن تركتم جنودى فى أوج انتصاراتهم بدون عون أو سلاح.

(عبدالقادر الحسينى)

من جانب آخر فإن الموقف داخل سورية كان يتسم بالغضب والثورة ضد الحكومة التى لم تقم بواجبها كما ينبغى فى منظور الرأى الشعبى العام. وفى نهاية عام ١٩٤٨ كانت حرب العرب على أرض فلسطين قد أشرفت على نهايتها السيئة بالنسبة للعرب، وكان بلاء تلك النهاية ينصب بصورة خاصة على الجيش المصرى الذى كان يجاهد للاحتفاظ بمواقعه جنوبى بئر السبع من الأرض الفلسطينية، فتضطره الحملات اليهودية المكثفة إلى تراجع مؤلم عنها. بلغت محنة الجيش المصرى ذروتها من ٢٤ حتى ٢٨ ديسمبر، أمام أعين أبناء الشعوب العربية الذين كانوا يتطلعون إلى جيوش دولهم فيرونها ملتزمة مواقعها، لا تتحرك فتمد إلى الجيش المصرى يد المساعدة أو المساندة. كان العرب فى مختلف أقطارهم فى شبه ذهول مما يجرى لأمتهم تحت قيادة حكام يكتمون عنهم حقائق الأمور، إن لم يكونوا على جهل فاضح بتلك الحقائق.. وفى جلسة عقدها مجلس النواب السورى فى ٢٨ ديسمبر تعاقب على المنبر عدد من النواب منتقدين بقسوة سياسة حكومتهم فى معالجة القضية الفلسطينية من كل نواحيها، وتقاعس جيشها والجيوش العربية الأخرى عن مؤازرة جيش مصر فى محنته الخطيرة، وتقدم كاتب الذكريات مع آخرين من النواب باقتراح مكتوب يلح على الحكومة السورية بالعمل سريعاً بما هو واجب لنصرة الجيش المصرى فى معركته الحاسمة.

وفى عام ١٩٦٢، دخل العجيلى الوزارة السورية التى شكلها بشير العظمة، عقب مرحلة الوحدة مع مصر، وكانت فترة عاصفة فى سورية، وقد تولى العجيلى وزارات الثقافة والخارجية والإعلام، وفى كل وزارة من هذه كانت مواقف وأحداث، وكانت نتائج وثمار، وفى كل الأحوال فإن الرجل لم يعاود هذه التجربة مرة أخرى، وعاد إلى بلدته «الرقة» ليستانف عمله طبيبًا يداوى المرضى، وكاتبًا يعالج النفوس.

ولأن دخول العجيلى وزارة «بشير العظمة» ارتبط بقضية الوحدة والانفصال، فقد كانت للرجل آراؤه التى أعلنها قبل تنفيذ الوحدة، خوفًا عليها من الانتكاس والإخفاق، وقد كتب فى جريدة «الكفاح» اللبنانية عدد ٢٣/١/١٩٥٨ مقالاً بعنوان «اتحاد سورية ومصر» وصف فيه الاتحاد بانه خطوة نحو حلم العرب ومثلهم الأعلى، ولكنه رصد التباين بين موقف السوريين والمصريين واختلاف النظم الاقتصادية والحقوقية والإدارية، ومستوى المعيشة والحالة الاقتصادية، ورأى أنه لابد من تذليل العقبات وتهيئة الجو المناسب، والأساس المتين الذى لا يعتمد على الحلول المرتجلة ولا تفت فيه خلافات عميقة لم تتم تسويتها.. وما حذر منه الرجل حدث، وكانت كارثة الانفصال بسلبياتها التى جرت كثيرًا من المتاعب للطرفين.

لم يعمر العجيلى فى الوزارة كثيرًا، وإنما هى بضعة شهور قضاها بين الوزارات الثلاث: الثقافة، والخارجية، والإعلام، كان منهجه فيها أن يعمل وفق الصالح العام ساعيًا إلى الإنجاز بقدر ما يستطيع، محاولاً بقدر الإمكان أن يقترب من المرءوسين والمعاونين بوصفهم زملاء له فى العمل، مستخفًا فى كل الأحوال بالرسميات ونافرًا منها. وفى أول توليه الوزارة طلب من الأمين العام فى الوزارة ألا يتوافد عليه العاملون لتحيته كما هى العادة مع الوزراء الجدد، لأنه سيمر عليهم بنفسه فى مكاتبهم، ويتعرف عليهم فردًا فردًا مما ترك أثرًا حسنًا فى نفوس الموظفين على استغرابهم إياه. وهذا الاستخفاف بالرسميات هو الذى دفعه ذات يوم أن يقف مع الناس أمام الوزارة بعد أن خرج من مكتبه ليشاهد استعراض فرقة أدلب أو أريحا الفولكلورية، وهو ما أثار استغراب الموظفين أيضًا لأنهم لم يتعودوا ذلك من وزير من قبل.

ويلفت النظر أن كاتب الذكريات لم يغفل الإشارة إلى أن العسكر كانوا غالبًا حاضرين من وراء الستار فى عمل الحكومة، وإن لم يسمح لهم هو أن يمارسوا هذه اللعبة معه. وقد أشار إلى قصة فحواها أنه تلقى من شقيقه عبد العظيم، وكان فى ذلك الوقت طالبًا جامعيًا يدرس الهندسة فى مدينة كولومبس بولاية أوهايو الأمريكية، رسالة يقول له فيها إن جريدة «نيويورك تايمز» كتبت عنه قائلة إن سورية يحكمها طبيب شاب متميز، يعاونه أو يدعمه ضباط مستنيرون يحبونه ويرهبونه فى آن واحد!

ضحك لهذا الوصف وكتب لأخيه: إن ما ذكرته الجريدة لا ينطبق عليه فى شىء، فلا هو حاكم لسورية بل مجرد عنصر عادى من عناصر الحكم، و«لست مدعومًا بضباط أو معتمدًا على الضباط»، وإن كانت البلد لا تفتقد المستنيرين، ثم إنه لا يرهب أحدًا، ولا يحب أن يكون بين الذين يرهبون الآخرين.

ويشير إلى أن علاقته بالجيش، مؤسسة وضباطًا، كانت دومًا علاقة محبة وتقدير منذ كان عضوًا بالمجلس النيابى عام ١٩٤٧، وهذه العلاقة الحسنة، كانت من عوامل بروز اسمه والالتفات إليه حين كثرت الأزمات السياسية فى سورية عقب الانفصال، وعندما كثر تدخل العسكريين فى توجيه سياسة الدولة، وأصبح





كتاب الزاوية

أبو ذر الغفارى (الطبقة الثانية)

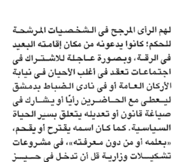
ابن جنادة بن كعيب بن صُعير بن الوَقعة بن حرام بن سفيان ابن عبيد بن حرام بن غفار بن مُليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خُزيمة بن مدركة بن إلياس بن مُضر.

قال: أخبرنا محمد بن الفضيل عن مطرف عن أبى الجهم عن خالد بن وهبان وكان ابن خالة أبى ذر، عن أبى ذر قال: قال النبى ﷺ: يا أبا ذر كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يستأثرون بالفىء؟ قال قلتُ: إذًا والذى بعثك بالحق أضرب بسيفى حتى ألحق به. فقال: أفلا أدُلك على ما هو خير من ذلك؟ اصبر حتى تلقانى.

قال: أخبرنا هُشيم قال: أخبرنا حُصين عن زيد بن وهب قال: مررتُ بالربذة فإذا أنا بأبى ذر، قال فقلت ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله﴾ «سورة التوبة: ٣٤»، وقال معاوية: نزلت فى أهل الكتاب، قال فقلت: نزلت فينا وفيهم. قال فكان بينى وبينه فى ذلك كلام، فكتب يشكونى إلى عثمان، قال فكتب إلىّ عثمان أن أقدم المدينة، فقدمت المدينة وكثر الناس علىّ كأنهم لم يرونى قبل ذلك. قال فذكر ذلك لعثمان فقال لى: إن شئت تنحيت فكنت قريبًا. فذاك أنزلنى هذا المنزل ولو أمر علىّ حبشى لسمعت ولأطعت.

قال: أخبرنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا أبو أمية بن يعلى عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر، من سره أن ينظر إلى تواضع عيسى ابن مريم فلينظر إلى أبى ذر.



ذكريات عبد السلام العجيلى

لهم الرأى المرجح فى الشخصيات المرشحة للحكم؛ كانوا يدعونه من مكان إقامته البعيد فى الرقة، وبصورة عاجلة للاشتراك فى اجتماعات تعقد فى أغلب الأحيان فى نيابة الأركان العامة أو فى نادى الضباط بدمشق ليعطى مع الحاضرين رأيًا أو يشارك فى صياغة قانون أو تعديله يتعلق بسير الحياة السياسية. كما كان اسمه يقترح أو يقحم، «بعلمه أو من دون معرفته»، فى مشروعات تشكيلات وزارية قل أن تدخل فى حيز التنفيذ.

ولعل هذه العلاقة الحسنة مع الجيش هى التى جعلته يرفض تصرفات بعض الضباط التى تتعلق بعمله فى الوزارة أو الضغوط التى كان يمارسها بعضهم لتحقيق مصالح خاصة. ويشير كاتب الذكريات صراحة أن رئيس الجمهورية لم يكن هو صاحب القول الفصل فى كل ما يجرى فى مختلف مجالات سياسة الدولة، ويشرح ذلك بأن الوزراء فى الحكومة كانوا صنفين: الأول يضم الوزراء السياسيين أصحاب الفكر والممارسة السياسية، والآخر يضم الوزراء التكنوقراط الذين يعملون من خلال خبرتهم العلمية والإدارية وهؤلاء يبعدون عن القرارات التى تتجاوز حدود عملهم الفنى. أما الأولون فلم يكونوا أصحاب الكلمة العليا فى سياسة الدولة، لأن هناك هيئة أخرى غير مرئية، ولكن قراراتها فعالة ونافذة. هذه الهيئة كانت تسمى مجلس الأمن القومى الذى يتشكل بالإضافة إلى رئيس الجمهورية ووزراء الداخلية والخارجية والدفاع والمالية، من قائدى قوى الأمن وعدد كبير من ضباط الجيش بينهم رئيس الأركان ورؤساء الشعب المختلفة فيه. ومباحثات هذا المجلس سرية وكذلك قراراته وتوصياته ويقسم أعضاؤه على الالتزام بهذه السرية فى أول عهدهم بالانضمام إليه.



لم يكن العجيلى متمسكًا بالوزارة، بل كان يتحين الفرص للتخلى عنها، إلا أنه كان حريصًا مادام يحمل عبء المنصب على ألا يتنازل عن اقتناعاته، ولا عن العمل بما تمليه هذه الاقتناعات فى ممارسة مسئوليات المنصب، وحين وجد أنه وزملاءه الذين يشاركونه الرأى لا يستطيعون الحيلولة دون ما يقرره رئيس الجمهورية ويقبل به رئيس الوزراء، لم يشأ أن يكون شريكًا فى قرارهما. لذا تقدم إلى رئيس الوزراء بكتابة استقالته الشخصية قبل أن تقدم الحكومة استقالتها.

ويروى العجيلى بعض المواقف التى تعرض لها عقب انقلاب ٨ مارس ١٩٦٣ الذى انتهى به ما يسمى عهد الانفصال، وإن لم ينقض الانفصال ذاته، ومنها فرض الإقامة الجبرية عليه فى بيته حتى إشعار آخر، وهى إقامة لم تستمر أكثر من يومين حيث جاءه من يعيد الأمر إلى طبيعته، وليمارس العجيلى عمله طبيبًا فى عيادته. كما يشير العجيلى إلى أن تقارير كانت ترفع إلى دوائر الدولة المركزية فى القاهرة، تتحدث عنه بغير الروح الطيبة التى لمسها من بعضهم، متوخية إلحاق الأذى بسمعته السياسية والشخصية، فقد جاء فى مذكرات «صلاح نصر» رجل المخابرات الأول فى زمن الرئيس جمال عبد الناصر أن المؤامرات كانت تحاك ضد الوحدة فى منطقة الفرات والجزيرة وأن الذين كانوا يحيكونها هم: عبد السلام العجيلى وآخرون.

لم يكن صلاح نصر يعرفه بالطبع، ولا هو كان يعرفه، ولكنها تقارير رفعت إليه، ممن كانوا حوله، تضمنت وشايات كاذبة تبغى الأذى له وللبلاد معًا.



وبعد عامين أو أكثر من ترك الوزارة، تلقى العجيلى رسالة رسمية من مدير عام هيئة الإذاعة والتليفزيون يطلب منه رد «راديو» ترانزستور سيلفر موديل ٢٩٠ كان قد تسلمه فى أثناء توليه وزارة الإعلام. ويبتسم الرجل.. لهذا الطلب، لأنه كان لا يستخدم ما يخص الوزارة، حتى السيارات الرسمية ما كان يستخدمها إلا عند الضرورة مفضلاً استخدام سيارته الخاصة. وكان يشترى من جيبه حاجات مكتبه فى الوزارة حتى بعض أصناف الأوراق والأقلام. ترى ما الذى يفعله بهذا الراديو الهزيل فى خلال عامين مرا وهو ملقى فى أحد أدراج مكاتبهم؟ وانتهى الأمر بأن مدير مكتبه أيام الوزارة وبعدها قال للمسئولين: إن الراديو فى درج مكتبى، تعالوا خذوه!

وإذا كانت السياسة قد استغرقت بعض سنوات العجيلى فى المجال العملى، فإنها استغرقت عمره المديد - إن شاء الله - من خلال مقالاته وكتبه ومحاضراته وأفكاره التى بثها فى قصصه ورواياته، سعيًا واجتهادًا لتتجاوز الأمة ما تعيشه من محن وأزمات وآلام، إلى ما تطمح إليه من تقدم وتفوق ورخاء، وفى ذكرياته السياسية جوانب كثيرة لتجربة تستحق أن يستفاد بها ومنها من جانب كل محب لوطنه وأمته. ■



الملح

سر الحياة ووقود التفكير



جيمس مبيك

في عام ١٨٧٠ أمرت السلطات الإمبريالية في لندن مصممًا للشعارات بتصميم علم وشعار لجزء من الامبراطورية البريطانية اسمه تيركس أند كايكوس Turks and Caicos ولم يكن المصمم قد سمع من قبل عن ذلك المكان، فأرسلوا له رسمًا لأحد الفنانين المحليين يظهر فيه مشهد تقليدى: رجال يستعملون أدوات تستخدم منذ القدم، وخلفهم تلال بيضاء كبيرة. وكان الاهتمام في ذلك الوقت باستكشاف المنطقة القطبية فى أوجه، فأعطى المصمم التلال البيضاء مكانًا بارزًا في الشعار الذى انتهى منه، حيث كان هناك منظر عام لبيوت من الثلج لها أبواب.. وقد ظل شعار جزر تيركس أند كايكوس حتى عام ١٩٦٨ وكان أهل الجزر الواقعة في البحر الكاريبى من الخجل أو الأدب بحيث لم يخبروا سادتهم الامبراطوريين أن الصقيع والجليد غير معروفين لهم، وأن التلال البيضاء كانت أكوامًا من المنتج الوحيد الذى يحقق أرباحًا في تيركس أند كايكوس، وهو الملح.

وفى الوقت الذى حصلت فيه تيركس أند كايكوس على علمها المجنون، كان معظم الفيكتوريين فى الوطن الأم يفكرون في الملح - إن كان بينهم من يفكر - على أنه شيء رخيص ويسهل الحصول عليه، كما نظن نحن الآن. وكان اهتمامهم قليلاً بالمكان الذى يأتى منه. ولم يكن الأمر دائمًا كذلك. فعندما وصل الرومان إلى بريطانيا، قالوا إن السكان المحليين يعانون من شح شديد فى الملح حتى أنهم كانوا يصبون ماء البحر على الفحم ويكشطون البلورات التى تتبقى على الخشب المتفحم. والآن تنتج الولايات المتحدة وحدها أربعين مليون طن من الملح سنويًا، حيث يُستخدم ٨ بالمائة فقط من هذه الكمية فى الطعام وينثر أكثر من النصف على الطرقات فى الشتاء.



ومنذ فترة طويلة جداً كان يعتقد أن الملح مادة عجيبة يمكن أن تحول دون الموت جوعًا بحفظها للطعام. وعلى مستوى الأسرة، كان الملح عنصرًا مهمًا من عناصر الطقوس والأساطير والضيافة. ومع ذلك فقد كان منذ آلاف السنين، باعتباره السلعة الوحيدة التى تتصف بأنها ثمينة وضرورية، تعويذة لكل ما هو أسوأ فى السلوك البشرى - الاستعباد والجشع والحرب واستغلال الأقوياء للضعفاء وتضييعنا الأرعن لما ورثناه من الطبيعة.

ولم يكن جهل الموظف الإمبراطورى بما كان يجرى على أرض مستعمرة الملح التابعة للإمبراطورية بريئًا كل البراءة. فلا تزال تيركس أند كايكوس مستعمرة بريطانية، إلا أن إحدى الجزر، وهى سولت كاى Salt Cay، هى صحراء ما بعد الملح تغطيها السحالى، وتعد تذكارًا لثلاثمائة سنة من الاستغلال الذى لا يعرف الرحمة ولم ينته إلا منذ عقود قليلة. فقد قُطِّعَت أشجار الجزيرة من أجل أشغال الملح، كما جُفِّفت الأرض. ووصف مارك كورلانسكى Mark Kurlansky الذى ذهب إلى هناك مقابلة كبار السن الذين شاركوا فى أشغال الملح، وهم سكان الجزيرة السود الذين يذكرون أنهم كانوا يحصلون على أجر قدره شلن وستة بنسات فى اليوم مقابل عمل شاق ينقلون فيه أكياس الملح. وبما أنه لم يكن هناك وجود لعمل بديل، فقد كانوا بالتأكيد عبيدًا كذلك.

ومن الصعب القول من هم الذين عاملهم الحكام والرأسماليون أسوأ معاملة على مر السنين: أهم من كانوا ينتجون الملح، أم من كانوا مضطرين لشرائه؟ بل إنه فى الوقت الذى كانت تتلقى فيه تيركس أند كايكوس علمها، كان البريطانيون فى جزء آخر من الغابة الإمبراطورية، فى الهند، يكملون شبكة اللوائح والنظم التى قُصد بها إعطاء الملح الذى يصنعه البريطانيون ميزة تنافسية على الملح المنتج محليًا، مستخدمين فى ذلك كل السبل الشريرة.



وقبل أربعة آلاف سنة من وصول البريطانيين، كانت الهند تحصل على ما يكفيها من ملح من مستنقعات الملح فى جوجارات على الساحل الغربى وملاحات أوريسا فى الشرق. وللقضاء على هذه المنافسة التى يلاقيها ملحها الأغلى ثمنًا، الذى كان يُنتج فى (تشيشاير Cheshire كانت عائلة من عائلات تشيشاير المنتجة للملح أحد مؤسسى صناعة (اتيركس أن كايكوس)، سعت بريطانيا فى البداية إلى شراء كل الملح الذى يخرج من أوريسا، كما أصدرت مرسومًا يحظر بيعه فى البنغال: ثم قامت فى عام ١٩٠٣ بضم أوريسا بالقوة. وفى ذلك الوقت أممت إنتاج الملح - الذى كان من قبل حرفة الفلاحين - وحظرت البيع الخاص له، ومنعت نقله، واستخلصت لنفسها مخزون الملح الخاص. وبحلول عام ١٨١٤ كان محرمًا على أى إنسان غير الحكومة البريطانية استخراج الملح فى أوريسا. ومن أجل منع تهريب الملح، زُرِع سور من الأشواك طوله ٢٥٠٠ ميل بارتفاع ١٤ قدمًا وعرض ١٢ قدمًا، وكان يمتد من أوريسا إلى جبال الهمالايا ويُعرف بخط الجمرك. وفى عام ١٨٣٦ وتحت ضغط من صُنَّاع الملح، رفعت الحكومة قيمة الضريبة المفروضة على ملح أوريسا مما جعله غير منافس للملح المستورد (أى البريطانى). وقللت السلطات إنتاج ملح أوريسا، ثم أمرت فى عام ١٨٦٣ بوقفه تمامًا. وأعقبت ذلك المجاعة ونقص الملح فى البنغال. وبعد أن لاحظ البريطانيون ما تسببت فيه سياساتهم من موت وفقر، فتحوا مصنعًا لإنتاج الملح المحلى الرخيص، ولكنه حقق نجاحًا كبيرًا، ففرض لوبى تشيشاير إغلاقه. ويقول كورلانسكى: «ما إن أُغلق المصنع حتى مات العمال جوعًا، بينما كان الملح الذى هو محصولهم النقدى التقليدى ملقى تحت أقدامهم فى صورة رقائق متلألئة فى انتظار أن يلتقطوه ويبيعوه. بل كان مجرد كشط الملح من على سطح الملاحات يعد مخالفة تستحق العقاب الشديد». وكان أحد شواطئ جوجارات قد شهد فى عام ١٩٣٠ تحدى غاندى العلنى للحكومة البريطانية بالتقاطه قطعة من الملح المترسب بطريقة طبيعية،



منذ فترة طويلة جداً كان يعتقد أن الملح مادة عجيبة يمكن أن تحول دون الموت جوعًا بحفظها للطعام. وعلى مستوى الأسرة، كان الملح عنصراً مهمّاً من عناصر الطقوس والأساطير والضيافة



Salt : A World History

(الملح.. تاريخ عالم)

Mark Kurlansky

Walker & Co, 2002, 352P.

مخالفًا بذلك قوانين الملح وبادئًا الرحلة إلى استقلال الهند، داعيًا إلى تقليد دام طويلاً من ثورات الملح المناوئة للبريطانيين في أوريسا.

وعاشت تشيشاير هي الأخرى الجانب المظلم من الملح. فقد قطّع المستثمرون، ممن لا يكادون يخضعون لأية لوائح ويغلون مياه البحر للحصول على الملح، أشجار الغابات وألحقوا أضرارًا بالغة بالحقول بما يلقونه فيها من نفايات كيماوية، كما غطوا الريف بمداخن قصيرة ملأت الهواء بالدخان الكثيف الداكن. وعلى مدى ثلاثة قرون، أدى شفط الماء المالح الطبيعي من مستودعات الملح الصخري الجوفية إلى تجوف الأرض بطريقة غير متوقعة؛ ففي عام ١٨٨٠، تعرض أربعمائة مبنى في نورثويتش Northwich للدمار أو الضرر. وتمشيًا مع روح العصر - أو فهمنا لها - كان من الممكن تمييز شكل واعظ يرتدي الملابس السوداء من بين الدخان، حين كان يقف على شفا حفرة كان يقوم مكانها بيت من البيوت، ويلقي في الناس موعظة عن اللعنة الأبدية.

لم تقتصر القسوة في السعي وراء الملح على العالم القديم. ففي السنوات الأولى من حياة الولايات المتحدة كان حكام البلاد الجدد، الذين كانوا بحاجة شديدة إلى ملح محلي، يرهبون هنود الأونونداجا Onondaga في ولاية نيويورك المتحدثين بلغة إيروكوا Iroquois كي يسلموا أرضهم الغنية بالماء المالح مقابل الحصول على ١٥٠ بوشل من الملح سنويًا. ولم يكن الأمر هو أن هذه كمية قليلة جدًا من الملح وحسب: بل إن الأونونداجا لم يكونوا بحاجة إليه. ومع أنهم لا يستطيعون استعادة أراضيهم، فهم لا يزالون يتلقون الملح؛ وهم يستخدمونه لصنع الكرنب المخلل لمستعمريهم. وبما أن الهنود باتوا خارج الصورة، فقد واصل الأمريكيون المحدثون صنع الملح، وتحقيق الثروات، ونهب البيئة. ففي البداية قطعوا الغابات المحيطة وأحرقوها لغلي الماء المالح؛ وبعد ذلك استوردوا الفحم إلى أن صار أغلى مما يجب؛ ثم استخدموا التبخير الشمسي، إلى أن بات سعر ملحهم أعلى من أسعار السوق وماتت صناعتهم، وتُركت بحيرة أونونداجا على قدر من التلوث بكربونات الكالسيوم والزئبق بحيث تحتاج إلى ٦٠٠ مليون دولار تقريبًا لتنظيفها، كما ذكر بيير لازلو Pierre Laszalo.

ومن بين كل أشكال الظلم المرتبطة بحاجة البشرية إلى الملح وطمعها في المال، وكثير غير ذلك مما يناقش في هذين الكتابين القيمين، تبرز ضريبة الملح الفرنسية la gabelle - ولم تكن قد أُلغيت تمامًا حتى عام ١٩٤٦. ولكي ينتزع التاج الفرنسي الضريبة من أهل البلاد، أصدر مرسومًا يقضي بأنه على كل شخص تعدى الثامنة في شمال فرنسا أن يشتري سبعة كيلوجرامات من الملح سنويًا. وكان ذلك أكثر مما يمكن لأي شخص أن يستخدمه، ما لم يكن استخدامه لحفظ الطعام، وهو ما لم يكن مسموحًا لهم القيام به - مما اضطرهم لشراء المزيد من الملح. وإلى جانب ازدياد ثقل الضريبة على الأجيال المتعاقبة، فقد أصبحت ظالمة إلى حد كبير. وأدى تعديل جان باتيست كولبير Jean-Baptiste Colbert لضريبة الملح عام ١٦٨٠ إلى تقسيم البلاد إلى ست مناطق، حيث كانت كل منطقة تدفع ضريبة تختلف عن الأخرى. ففي الضفة الشمالية لنهر اللوار Loire، كان ممكنًا في مرحلة من المراحل شراء مينوت من الملح (٤٩ كيلو) بسعر ٣١ سو (١/٢٠ من الفرنك)؛ بينما كانت نفس الكمية تُباع على الضفة الجنوبية بـ٥٩١ سو. وليس مستغربًا أن التهريب كان منتشرًا. وكان ضباط الجمارك يضطرون لاستحضار الجنود الذين كان الناس يكرهونهم ويحاربونهم بنفس المرارة التي يحاربون بها جيش الاحتلال. وفي السنوات السابقة على الثورة، كان يُحكم في كل عام على أكثر من ثلاثة آلاف فرنسي من الرجال والنساء والأطفال بالسجن أو الإعدام، لانتهاكهم قوانين الملح. وعقد لازالو مقارنة بين ضريبة الملح الفرنسية والضرائب التي تفرض حاليًا في أوروبا على البنزين، إلا أن المخاطر كانت أكبر في القرن الثامن عشر. ففي ٢٥ يوليو ١٧٨٥ أمر قاضي ضريبة الملح شخصًا يدعى ج. فورنييه Fournié بدفع غرامة قدرها ٢٠٠ جنيه بسبب مخالفات تتعلق بالملح. ولأنه لم يستطع تدبير المبلغ، فقد حُكم عليه بتعرية نصفه الأعلى، والطواف به في أنحاء البلدة، وجلده علنًا، ووسمه بالحديد المحمي، كما أمروه بأن يقضي بقية حياته على سفينة للمذنبين.

وكان ماتياس ياكوب شلايدن Matthias Hakob Schleiden، وهو أحد علماء النبات الألمان في القرن التاسع عشر، يعتقد أن فرض ضرائب الملح علامة أكيدة من علامات الاستبداد. وكانت تلك قضية تزعج المفكرين وتدهشهم على الأقل منذ عام ٣٠٠ ق.م، حين اقترح وزير صيني على حاكم دولة تشي تحصيل عائدات احتكار الملح. وقد قال إن بعض مناطق المملكة تعاني من نقص في الملح بصورة تصيب الناس بالمرض، وهؤلاء يمكن فرض قدر أكبر من الضرائب عليهم.

ووجدت الفكرة قبولاً وصارت في نهاية الأمر سياسة امبراطورية الصين الناشئة. وكان المال الذي يُجمع من احتكار الملح، إلى جانب المال الذي يحصل من احتكار الحديد المماثل له، يُدفع لبناء سور الصين العظيم. وبعد عدة أجيال، ومنذ حوالي ٢١٠٠ سنة، عقد الامبراطور جاو دي مؤتمرًا للخبراء لمناقشة الحكمة من الاحتكارات التي يمقتها الناس وحفظت نسخة من المداولات بعنوان «رسالة في الملح والحديد». وكان الجدل يدور حول مسألة حدود ما يمكن للحكام عمله لشعبهم باسم المصلحة الوطنية. وقال الفريق القانوني إن الأرباح التي تأتي من الضرائب المفروضة على الملح والحديد ضرورية لصمود الدولة في مواجهة الأعداء الخارجيين. وأجاب الفريق الكونفوشيوسي بأن الحكم الحكيم الحميد والسلوك الأخلاقي هما أفضل شيء، ولا ضامن غيرهما للدفاع. وينقل كورلانسكي ما قاله مينج تسي، مؤلف أحد النصوص الكونفوشيوسية الرئيسية، عن فوائد الدولة:



لماذا تستخدم جلالتك كلمة فائدة؟ إن كل ما يهمني هو الخير والحق. وإن قلت جلالتك كيف أفيد دولتي؟ سيقول موظفوك كيف أفيد عائلتي؟ وسيقول الضباط وعامة الناس كيف أفيد نفسي؟ وما إن يتنافس الرؤساء والمرؤوسون على الفائدة حتى تصبح الدولة في خطر.



لم أقرأ بعد كتاب كورلانسكي الرائع (Cod: A Biogragpy of the Fish that Changed the World) الحوت: «قصة حياة السمكة التي غيرت العالم»، أو كتابه (Basque History of the World) «التاريخ الباسكي للعالم»، ولكن بعد أن قرأت (Salt: A world of History) «الملح: عالم تاريخي» أشعر وكأني قرأتهما. فكتاب «الملح» فيه عن الحيتان والباسك ما يزيد قليلاً عما يجب أن يعرفه المتحمسون الخالصون لما يسميه كورلانسكي «العائلة الوحيدة من الصخور التي يأكلها البشر». ويعمل كورلانسكي بذخيرة متجددة من الحقائق. فبعض الحقائق الخاصة بكل إنتاج سابق تعاود الظهور فيما يتلوه. فالحيتان من الأسماك المهمة. وكان الباسك يصطادونها. ولكي يخزنوها لمدة طويلة، كانوا بحاجة إلى كميات ضخمة من الملح.

إن كلا المؤلفين يقدمان برميل مخللات ثري من الحقائق والحكايات عن الملح. فكورلانسكي يشير في تقديمه للكتاب إلى مكتبة نيويورك العامة وما يزيد على ألف كتاب عن الملح في أقبيتها. ويبدو أن لازلو وقع على المصادر ذاتها، ومن ثم فإن ما يدعو للاستغراب أن الكتابين يشتركان في كثير من الأشكال التوضيحية.



لولا الملح العادي - كلوريد الصوديوم - لمتنا. فالكلوريد مهم، ولكن الصوديوم ضروري للطريقة التي تعمل بها الحياة ميكروثانية بميكروثانية وخلية بخلية. فنحن حين نفكر، نفكر بأيونات الصوديوم وتتحرك أيونات البوتاسيوم جيئة وذهابًا لتوليد الشحنات الكهربية اللازمة للومضات العصبية. ومن ثم كان اشتهاء الجسد للملح. وهناك نوع من الفراشات يجمع الملح الذي يحتاجه للتزاوج عن طريق قضاء حوالي ثلاث ساعات في كل مرة وهو يشرب من برك المياه، حيث يخزن كميات ضئيلة من الصوديوم ويصدر عنه انبجاس طوله ٥٠ سنتيمترًا من البول كل بضع ثوان. وكان أسلافنا ممن عاشوا على الصيد والجمع يحصلون على ما يحتاجونه من ملح من اللحوم والأسماك، إن توفرت في غذائهم. وما إن استقر الإنسان واستأنس الحيوانات



وأخذ يزرع المحاصيل حتى أدرك أن عليه توفير الملح بصورته الخالصة من أجل بهائمه ومن أجله هو، وأن عليه حفظ الطعام ليقيم به أوده فى وقت المجاعة (الذى كان يشمل الشتاء المعتاد). ومن هنا جاءت المخللات والسجق والسمك المملح واللحم المقدد والجبن والصلصات - ومن ثم فى واقع الأمر الكثير من الأشياء الرائعة فى الطعام.

وكما يشير كورلانسكى، فإن فى هذا بعض المفارقات. ذلك أن هذه الأطعمة، التى كانت فى يوم من الأيام ضرورية لمنع خطر الموت جوعًا الذى كان الجميع معرَّضين له، موجودة الآن فى عصر التبريد وأطايب الطعام. وفى يوم من الأيام كانت هناك وفرة كبيرة فى الأسماك وكان الملح غالى الثمن، واليوم الملح وفير والسمك هو النادر. لقد تلاشى المعنى الفطرى لدور الملح باعتباره واهب الحياة. وفى وقت من الأوقات كان يُنظر إلى الملح نظرة صوفية ميتافيزيقية. فقد كانت للملح نفس صفة النار؛ وهى تغيير الأشياء. غير أنه بينما كانت النار تفنى ما هو دائم، كان الملح يديم ما هو فان. والملح كرمز للدوام - إذ لا يحفظ وحسب، بل يمكن إذابته وبلورته فى الماء وخارجه بلا نهاية - كان قدماء المصريين والإغريق والرومان والعبرانيون ينذرونه لآلهتهم. ولا يزال الملح جزءًا من الشعائر اليهودية. وفى ويلز Wales كان من المعتاد حين يموت شخص أن يوضع الخبز والملح على النعش ويُستدعى أكلة الخطايا المحترفين لأكل الملح. وفى السويد كانوا يعطون الفتيات اللائى فى سن الزواج طعام الأحلام شديد الملوحة - وهو ثريد الأحلام أو فطيرة الأحلام - ثم ينمن دون أن يشربن، حيث كان من المتوقع أن من يعطونهن الماء فى أحلامهن سيكونون أزواج المستقبل.



وفى بعض الأحيان كانت هناك صلة مباشرة أكثر بين الملح وعالم الأرواح. وكان من الممكن تمليح البشر بعد موتهم. وفى عام ١٦٧٠ صدرت الأوامر فى فرنسا بتمليح من ينتحرون ووضعهم للعرض كتحذير للأحياء. وكانت مومياوات مصر القديمة فى المقام الأول أشخاصًا مملحين، وإن حُفظوا فى النطرون، وهو نوع مختلف من أملاح الصوديوم. وفى القرن التاسع عشر، حيث بدأ علماء الآثار التنقيب عن مقابر المصريين وشحن محتوياتها للخارج، كانت تُدفع على المومياوات ضرائب كضرائب السمك المملح قبل أن تسمح السلطات بدخولها القاهرة. وعرف قدماء المصريين ملحهم. فحيث كانت المجاعة تتهددهم على ضفاف النيل الضيقة، كانوا يستعدون لاستئناس وذبح وتمليح كل شىء تقريبًا، فيما عدا الخنزير المحرَّم دينيًا. بل إنهم حاولوا استئناس الضبع، وفشلوا فى ذلك، ولكنهم نجحوا فى استئناس وتمليح الأوز والسمان والحمام والبط والبجع. كما أن المصريين ملحوا بطارخ سمك البورى المجففة التى صارت إحدى الصيحات فى مطاعم لندن فى الفترة الأخيرة. واكتشفوا كيفية استخدام الملح لجعل الزيتون مستساغًا، وكانوا يرشون على طعامهم خليطًا من الماء المالح والخل. وقد خلفوا ما يشبه أول شعار إعلانى فى العالم مكتوبًا على ورق البردى: «ما من طعام أفضل من الخضروات المملحة».



ولا بد أن يحتوى جسم الشخص البالغ العادى على ما يكفى من الملح لملء ملأحتين أو ثلاث ملأحات مائدة. وقد جادت قريحة البشر بملايين أخرى من الطرق غير مجرد رش البلورات البيضاء على النشا. ويرى الكثيرون الملح على أنه متبل. ويرى كورلانسكى أنواعًا مختلفة من الطعام على أنها أدوات معقدة لنقل الملح إلى الجسم. فالبريطانيون يرشون الملح على البطاطس. وكان قدماء المصريين يستخدمون خليط الماء المالح والخل. ويستخدم الصينيون صلصة الصويا المالحة، ويستخدم الفيتناميون صلصة السمك المالحة، وكذلك كان يفعل الرومان - وكان الفارق فى طعمها ضئيلاً بين كونه لاذعًا وعفنًا. وقد عزمت على صنع واحدة من الوصفات التى ينثرها كورلانسكى فى أنحاء كتابه ثم أقول رأيى. إلا أنها جميعًا هزمتنى. كنت مستعدًا تقريبًا لأن أخلط سمك الحوت المملح بالتفاح وجوزة الطيب والقرفة والزنجبيل والزبيب والفلفل والكراوية والمشمش والزبيب وماء الورد وقشر الليمون المفروم والسكر والتمر والنبيذ الأبيض والزبد. ثم أخبز الخليط فى التارت، إلا أننى توقفت عند الخطوة الأخيرة من توجيهات روبرت ماى Robert May من القرن السابع عشر التى تشير إلى تجميل الفطائر. ووصفة الكراسبوكس craspoix التى تعود للقرن الثالث عشر غاية فى البساطة، ولكنها تحتاج إلى لحم الحوت المملح. وتبدأ إحدى الوصفات الرومانية كما يلى: «يُنتف ريش البجعة». ووصفة الأويجورو huiguorou نموذج مميز للطريقة التى يطهون بها فى سيتشوان بمكونات مالحة عديدة بدلاً من الملح، إلا أن دولاب المطبخ كان خاليًا من الدوبان (معجون الفاصوليا الجافة المالح الحار) والجاكاى (الخضروات المملحة) والدوسى (معجون الفاصوليا الصفراء المملح). وهذه الفكرة الأخيرة ليست بغريبة عن الطهى الأوروبى الحديث. فالوصفة الأصلية فى كتاب الطهى River Café Cookbook الخاصة بالمكرونة القلم بالطماطم وصلصة الأنشوجة لا تحتوى على الملح وحده لتتبيل الماء، بل هناك كذلك الأنشوجة المملحة وجبن البارميزان، وهناك القمح المملح، والسمك المملح، والحليب المملح: فنحن نشبع اشتهاءنا الفطرى للصخر القابل للأكل. ويحفظ الصخر القابل للأكل المواد الغذائية التى يحميها منذ آلاف السنين. ويسعدنى أن ما أحصل عليه من ملح وأنشوجة وجبن البارميزان يأتى بدون ضريبة الملح. كما يسعدنى أن أقول إن الصخر فى المكرونة القلم طيب جداً بالفعل. ■

بترتيب خاص مع:
London Review of Books
ترجمة: أحمد محمود

كتاب الزاوية

فاطمة

بنت رسول الله ﷺ، وأمّها خديجة بنت خُوَيلد بن أسد بن عَبْدالعُزَّى بن قُصَى، ولدتها وقريش تبنى البيت وذلك قبل النبوّة بخمس سنين.

أخبرنا مسلم بن إبراهيم، حدّثنا المُنذر بن ثعلبة عن علباء ابن أحمَر اليَشكُرى أنّ أبابكر خَطَبَ فاطمةَ إلى النبى ﷺ، فقال: يا أبابكر انتظر بها القضاء، فذكر ذلك أبوبكر لعمر، فقال له عمر: ردّك يا أبابكر. ثمّ إنّ أبابكر قال لعمر: اخطب فاطمة إلى النبى ﷺ، فخطبها فقال له مثل ما قال لأبى بكر: انتظر بها القضاء. فجاء عمر إلى أبى بكر فأخبره، فقال له: ردّك يا عمر. ثمّ إنّ أهل علىّ قالوا لعلىّ: اخطب فاطمة إلى رسول الله ﷺ، فقال: بعد أبى بكر وعمر؟ فذكروا له قرابته من النبى ﷺ، فخطبها فزوّجه النبى، فباع علىّ بعيرًا له وبعض متاعه فبلغ أربعمائة وثمانين. فقال له النبى ﷺ، اجعل ثُلثين فى الطيب وثلثًا فى المتاع.

أخبرنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا جرير بن حازم، أخبرنا أيّوب عن عكرمة أنّ عليًا خطبَ فاطمة فقال له النبى ﷺ: ما تصدقها؟ قال: ما عندى ما أصدقها. قال: فأين درعك التى كنت منحتك؟ قال: عندى. قال: أصدقها إيّاها. قال: فأصدَقَها وتزوّجها. قال عِكرِمَة: كان ثمنها أربعة دراهم.

أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبى فُديك عن محمد بن موسى عن عون بن محمد بن على بن أبى طالب عن أمه أم جعفر عن جدتها أسماء بنت عميس قال: جهزت جدتك فاطمة إلى جدك على وما كان حشو فراشهما ووسائدهما إلا الليف، ولقد أولم على فاطمة فما كانت وليمة فى ذلك الزمان أفضل من وليمته، رهن درعه عند يهودى بشطر شعير.



جيف مادريك

نفوذ
الثراء
الفاحش

هل تخضع أمريكا لحكم الأغنياء

الأمل الكبير الذي يراود بعض الأمريكيين ذوي الاتجاهات الإصلاحية هو أنه ستكون هناك حركة ارتجاعية سياسية، إن عاجلاً أو آجلاً، ضد التفاوت المتزايد في أمريكا. ومن بين هؤلاء كيفن فيلبس المستشار الجمهوري الإصلاحي الذي يعد الهدف الأساسي من كتابه (Wealth and Democracy الثروة والديمقراطية) هو بيان أن نمو الثروة الخاصة في التسعينيات كان مشابهًا لزيادة حجم الثروة الخاصة في الحقب السابقة، وخاصة في العصر الذهبي في أواخر القرن التاسع عشر وعشرينيات القرن العشرين.

ويقول فيلبس إن الثروات الضخمة في كل تلك الفترات كان لها أثرها على تقويض القيم الديمقراطية وخلق أوقات اقتصادية عصيبة لكثير من الأمريكيين، وربما معظمهم. وفي الماضي كانت الأمة تبدو دومًا متأرجحة بين سيطرة المصالح الخاصة والمصالح العامة، ومن الممكن أن تبدو كذلك من جديد. فقد أعقبت عصر فاندربلت وروكفلر وكارنيجي ومورجان الذهبي تنظيمات جديدة للأعمال والتجارة، وضرائب الدخل المتصاعدة، وإنشاء بنك الاحتياط الفدرالي في عهدي الرئيسين تيودور روزفلت وودرو ويلسون. أما عشرينيات عائلات فورد وميلون وديبون وجوزيف كنيدي وغيرهم فقد أعقبها الاتفاق الجديد في عهد فرانكلين روزفلت، الذي أقر المزيد من القيود الخطيرة على الأعمال، وأنشأ الضمان الاجتماعي وتأمين البطالة، ووضع حدًا أدنى للأجور، وزاد ضريبة الدخل. وكان جوزيف كنيدي نفسه أول رئيس للجنة الأوراق المالية والبورصة. ويقول فيلبس إن «بداية القرن الحادي والعشرين ينبغي أن تشهد صراعًا آخر لأن تعاظم الشركات في الثمانينيات والتسعينيات تعدى التعاظم الذي شهده العصر الذهبي».



ولكن لماذا لم يحدث هذا الصراع حتى الآن؟ بل إننا على العكس من ذلك نجد أن العمال الأمريكيين تقبلوا في الفترة ما بين ١٩٧٩ و١٩٩٥ التباين المتزايد في الثروة والدخل وسرعة تزايد أرباح الشركات بهدوء وسكينة، بل وبما بدا أنه جَلْد للذات. ومن المؤكد أن الناخبين في تلك الفترة من النمو الاقتصادي البطيء كانوا محبطين، ولكن ذلك كان في مصلحة خافضي الضرائب الجمهوريين، مثل رونالد ريجان، أو ديمقراطيي الوسط، مثل بيل كلينتون، وقد وُجِّه ناحية إعادة تقييد الحكومة وليس الأعمال. وبدا أن معظم الأمريكيين شعروا بالرضا لحل النقابات، مثل نقابة المراقبين الجويين، ولإصلاح الرفاهية، مع أن هذا لم يوفر للحكومة الفدرالية أكثر من واحد بالمائة من إجمالي الناتج القومي في السنة، ولتخفيض الضرائب، بالنسبة للأغنياء في الغالب. ولم تكن

Wealth and Democracy: A Political History of the American Rich

(الثروة والديمقراطية: تاريخ سياسي للغنى الأمريكي)

by: Kevin Phillips

Broadway Books, 473PP., $29.95

أكثر من ٤٠ بالمائة من إجمالي الدخل في أمريكا الآن يذهب إلى أعلى ١٠ بالمائة من أصحاب الدخول، وهو تقريبًا نفس المستوى الذي كان في العشرينيات ويزيد كثيرًا عن نسبة الثلاثين بالمائة أو نحو ذلك في أوائل الأربعينيات وأواخر السبعينيات

هناك أية محاولة جادة لتنظيم الأعمال. وحتى الشعبيين المحافظين، مثل باتريك بوكانان أو روي بيرو، لم تكن لهم شعبية كبيرة. وبدا أن توسع الائتمان الضريبي للدخل المكتسب، الذي ساعد ما لا يحصى من العمال ذوي الدخل المنخفض، يتسلل دون أن يلاحظه أحد تقريبًا.

وأزال الانتعاش الاقتصادي في أواخر التسعينيات بشكل كامل تقريبًا أية مخاوف كامنة بشأن نفوذ الأغنياء، بينما كانت الأجور ترتفع بعد عقدين من الكساد بالنسبة لكل مستويات الدخل. كما هبط معدل البطالة إلى ٤ بالمائة وأصبحت سوق الأوراق المالية التي ارتفعت أسعارها ارتفاعًا كبيرًا - وإن ظلت لا تفيد إلا نسبة مئوية صغيرة من السكان - الرياضة القومية. وأسفرت المشاكل المالية الدولية في عامي ١٩٩٧ و١٩٩٨، وانفجار فقاعة سوق الأوراق المالية عام ٢٠٠٠، وحتى فضيحة إنرون الأخيرة، عن مقترحات متواضعة للإصلاح الاقتصادي ولم تقض قضاء تامًا على الدعم السياسي لمزيد من تخفيض الضرائب بالنسبة للأغنياء. والحملة الأخيرة من أجل إصدار تشريع للإصلاح المالي هي الاستثناء الوحيد، غير أن هناك عددًا قليلاً متحمس بشأن مدى فاعليتها.



فيما يتعلق بمن يشعرون بأن حدوث تغير في اتجاه سياسة أكثر مساواة قد بات مستحيلاً في الوقت الراهن، يشير فيلبس إلى أن الحركة الارتجاعية في بداية القرن العشرين احتاجت إلى عشرات السنين كي تكتمل؛ فقد سيطرت على البلاد المواقف الموالية للأعمال طوال ثلاثة عقود بعد الحرب الأهلية. وكان المحرك للإصلاحات العريضة التي تمت في الفترة التقدمية والاتفاق الجديد هو الأزمة الحادة. وكانت البلاد قد عانت في عام ١٨٩٣ من أسوأ انكماش اقتصادي في تاريخ الولايات المتحدة، مما أدى إلى الغضب الشعبي الذي أعد المسرح للتقدميين بعد عشر سنين تقريبًا. وكان الاتفاق الجديد بطبيعة الحال ردًا على الانهيار الاقتصادي عام ١٩٢٩ وعلى الكساد الكبير في الثلاثينيات. وإذا كانت البلاد ترغب في أن تسفر هذه المعاناة الحادة عن إصلاحات فعالة، فإن هذا لن يعجب المنتقدين. فالأسعار قد ترتفع، وقد لا تتم الإصلاحات الفعلية. وبدلاً من الأزمة المفاجئة، ربما تكافح البلاد طوال عشرين سنة أخرى من النمو الاقتصادي شديد البطء الذي قد تكون عواقبه قاسية، ولكنها من التدرج بحيث لا تحدث تغيرًا سياسيًا خطيرًا.

إن التفاوت المتزايد في الدخول والثروة في أمريكا منذ السبعينيات أمر مذهل، مع أن من هم على وعي كبير به قلة قليلة. فأكثر من ٤٠ بالمائة من إجمالي الدخل في أمريكا الآن يذهب إلى أعلى ١٠ بالمائة من أصحاب الدخول، وهو تقريبًا نفس المستوى الذي كان في العشرينيات ويزيد كثيرًا عن نسبة الثلاثين بالمائة أو نحو ذلك في أوائل الأربعينيات وأواخر السبعينيات. وكان متوسط دخل أعلى ٥ بالمائة من الأسر صاحبة الدخول يزيد تسع عشرة مرة عن دخل أقل ٢٠ بالمائة في ١٩٩٩؛ وفي عام ١٩٧٩ كان يزيد قليلاً عن إحدى عشرة مرة. ويملك ١ بالمائة من الأسر الآن أكثر من ٤٠ بالمائة من كل الأصول، بما في ذلك البيوت والاستثمارات المالية (بعد خصم الديون)، وهو ما يزيد على أي عام منذ ١٩٢٩.

ويرجع السبب في هذا الانحراف، إلى حد ما، إلى الثروات الضخمة التي تحققت حين ارتفعت أسعار الأسهم ارتفاعًا كبيرًا في التسعينيات. فقد زاد ثراء أغنى أربعمائة أمريكي ضمتهم قائمة مجلة «فوربس» أكثر من عشر مرات في المتوسط عام ٢٠٠٠، عن أغنى أربعمائة أمريكي ضمتهم قائمة المجلة نفسها عام ١٩٩٠، بينما تضاعف الاقتصاد مرتين فقط. وربما كان صافي قيمة ثروة عشرة آلاف أسرة أمريكية يزيد على ٦٥ مليون دولار عام ٢٠٠٠ بينما كان صافي ثروة ربع مليون أسرة يزيد على ١٠ ملايين دولار.

وحتى بدون ضم الأرباح الرأسمالية من الأسهم وغيرها من الاستثمارات، تفاوتت الدخول تفاوتًا كبيرًا. وقياسًا فقط لما يسميه مكتب التعداد «الدخل النقدي»، الذي يستبعد الأرباح الرأسمالية ولكنه يُضَمِّن الأجور والمرتبات والمدفوعات الحكومية والإيجارات وأرباح الأسهم والفوائد، فقد زادت دخول الأسر زيادة كبيرة لا مثيل لها. إذ ارتفع متوسط دخل أعلى ٢٠ بالمائة من الأسر إلى ثلاثة عشر ضعف دخل أدنى ٢٠ بالمائة من الأسر في أواخر التسعينيات؛ وكان في أواخر السبعينيات عشرة أضعاف ونصفا فقط.

إذا كان الكثير من قياسات الدخل ومن تفاوت الثروة قد أعاد أمريكا إلى مستويات العشرينيات، فإن الثروات الشخصية الخرافية في الثمانينيات والتسعينيات تنافس الآن ثروات العصر الذهبي الخرافية، بل تزيد عليها في بعض الجوانب. ولم يكن هذا هو الحال قبل الثمانينيات، كما يبين فيلبس. ففي عام ١٩٥٧ كان العديد من الأسر، ومنها أسر ديبون وروكفلر وميلون وج. بول جيت وكبار أباطرة البترول، مليونيرات بحق، ولكن ثرواتها لم تكن تقارن بمراكز روكفلر وكارنيجي المهيمنة في بداية القرن. ولم يكن أكثر الأمريكيين ثراءً عام ١٩٦٨ - وكانت بينهم وقتها أسر هانت أويل وهوارد هيوز وإدوين لاند صاحب بولارويد - أغنى بشكل ملحوظ. وكان الجزء الأكبر من أرباح تلك الفترة التالية للحرب العالمية الثانية يذهب إلى الطبقة الوسطى النامية. وفي عام ١٩٨٢ كانت هناك ثروة كبيرة محصورة حصرًا نسبيًا. ويقول فيلبس: «إلى جانب عمالقة العصر الذهبي، كان مليارديرات ١٩٨٢ الأفراد - خمسة منهم أبناء رجل البترول هـ. ل. هانت من تكساس - يمثلون انحدارًا شديدًا في كل من الثروة الحقيقية والوضع السياسي والاقتصادي».



تغير ذلك بحلول أواخر الثمانينيات. فقد ساعد تناقص حدة التضخم وتخفيف القيود وزيادة الأرباح على ارتفاع أسعار سوق الأوراق المالية. وفي الوقت ذاته أجرى الرئيس ريجان خفضًا كبيرًا في الضرائب التي يدفعها الأمريكيون من أصحاب الدخول المرتفعة. ويقول فيلبس إن «الثروة تضخمت بالقدر الذي جعل أكبر الثروات الفردية والعائلية في عام ١٩٩٢ ضعفي أو ثلاثة أضعاف ما كانت عليه عام ١٩٨٢ وكانت الفجوة بين الأغنياء ومن سواهم تتسع بصورة لم يرها أحد منذ العشرينيات والثلاثينيات».

وبحلول عام ١٩٩٩ كان حجم الثروة الشخصية مذهلاً. فبينما كانت ثروة أغنى أربعمائة أمريكي عام ١٩٨٢ في المتوسط هي ٢٣٠ مليون دولار طبقًا لما ذكرته «فوربس»، فقد كان متوسط ثروتهم في عام ١٩٩٩ أكثر من عشرة أضعاف هذا المبلغ، أو ٢,٦ مليار دولار. وكان الكثير من المليارديرات وافدين جددًا مثل وال مارت، وبيل جيتس صاحب «مايكروسوفت»، وعائلة فيشر صاحبة «جاب»، والمستثمر وارين بافيت، وتيد تيرنر. وساهمت كذلك عائلات روكفلر وديبون وميلون وفيبس وهيرست في الانتعاش الذي شهدته



الثروة الخاصة، وإن لم تعد هى صاحبة السيطرة، فى الوقت الذى زادت فيه قيمة ثرواتها عشر مرات عما كانت عليه فى الثلاثينيات.

بل إنه حتى بعد انفجار فقاعة سوق الأوراق المالية، ظل الكثير من الثروات الشخصية على ضخامته. فى الوقت الذى هبط فيه صافى قيمة ثروات الأمريكيين من الطبقة الوسطى هبوطًا طفيفًا منذ الثمانينيات. ورغم الادعاءات الخاصة بديمقراطية المساهمين، لم يساعد ارتفاع أسعار سوق الأوراق المالية سوى الأغنياء. ومع ارتفاع أسعار المنازل فى تلك الفترة، فقد اقترض الأمريكيون مبالغ ضخمة بضمان أصولهم الأساسية؛ وهى المكان الذى يعيشون فيه. وقلل الدين صافى ثروتهم وإن حسَّن طريقة معيشتهم فى الوقت الراهن.

ولكن من ينتقدون تركز الثروة الخاصة فى أمريكا مضطرون للدخول فى جدل شديد مع حجة قوية مضادة. فرغم زيادة الثروات الخاصة، التى لا مثيل لها فى أى مكان آخر من العالم بعد الحرب العالمية الثانية، وما صاحب ذلك من سوء استغلال للنفوذ فى كثير من الأحيان، لا بد من اعتبار التاريخ الاقتصادى الأمريكى نجاحًا كبيرًا بالنسبة لمعظم المواطنين. فقد ارتفع مستوى المعيشة ارتفاعًا جامحًا، وإن لم يكن مستمرًا، بالنسبة لمعظم مواطنى البلاد. وظل الواقع يفوق التوقعات. وبقى الكثير من الأمريكيين، وخاصة السود، على فقرهم أو فقدوا وظائفهم؛ ولكن معظم الناس بصورة عامة كانت أعمارهم أطول، وكانوا يحتاجون إلى جهد أقل فى العمل، وكانوا يمتلكون بيوتهم، وصار بإمكانهم شراء ما لا يحصى من المنتجات الجديدة والمثيرة. وعادة ما كانت ظروف أبنائهم أفضل من ظروفهم.

فهل كان التدخل الحكومى جزءًا مهمًا فى النجاح الاقتصادى الأمريكى؟ فى رأيى أنه ما من شك فى كونه كذلك. ولكن طبقًا لقدر كبير من التفكير الاقتصادى الخاص بالتيار العام، فإن الحكومة والديمقراطية نفسها يعتبران إجمالاً تكاليف لا أرباح؛ فهما «عدم الكفاءة» التى تتدخل فى أساليب عمل السوق. وحسبما يراه هذا التفكير، فإن مهمة الحكومة الأساسية هى إقامة حكم القانون، بما فى ذلك قدسية التعاقدات. ولا ينبغى أن يقضى الاحتكار على التنافس؛ ولكن حتى فى هذه النقطة يتردد خبراء اقتصاديون كثيرون فى تشجيع التدخل الحكومى.

ومن جانبه، ليس لدى فيلبس أية شكوك. فهو لا يتردد فى التأكيد على مقدار مساهمة الحكومة فى النمو الاقتصادى فى أمريكا بما فى ذلك الاستثمارات فى الطرق والقنوات والتعليم العام والسكك الحديدية والكهرباء والاتصالات والإنترنت. وكذلك الإنفاق على الدفاع استعدادًا للحرب وأثناءها. وهو يهمل بعض المساهمات الحكومية المهمة، كالصحة مثلاً، والمحاولات الأمريكية الأولى لضمان الملكية الرخيصة للجميع. وما كان بإمكان رأس المال الخاص تحقيق ذلك وحده، خاصة حين يتعلق الأمر باستثمارات المصلحة العامة، كالتعليم والرعاية الصحية والنقل، أكثر من تعلقه بالمكافأة الخاصة. ويشير فيلبس، كما أشار كثيرون قبله، إلى أن حرية العمل كانت على الدوام تسمية مغلوطة. فكثيرًا ما كان الأغنياء يعملون بشكل وثيق مع الحكومة، بما يمكنهم من الفوز بعقود الدفاع أو الحصول على الدعم للسكك الحديدية الخاصة بهم على سبيل المثال. ويضع فيلبس التكنولوجيا فى موضعها، مذكرًا إيانا بأن الاستثمار والأفضلية الحكوميين ربما كانا أكثر أهمية كمصدر من مصادر النمو الاقتصادى؛ ومن المؤكد أنهما مصدر من مصادر الثروات الشخصية.



ويتتبع فيلبس كذلك معاناة بعض الجماعات الاقتصادية أثناء فترات الانتعاش الاقتصادى التى أفرزت ثروة البلاد الكبيرة. فقد أضير المزارعون بشكل خاص فى أواخر العقد الأول من القرن التاسع عشر، وكثيرًا ما كان عمال المصانع يعاملون معاملة فظة. فقد قُمع تنظيم العمال قمعًا عنيفًا. وكانت المحاكم ومجلس الشيوخ الأمريكى، الذى كان ينتخبه فى ذلك الوقت أعضاء المجالس التشريعية فى الولايات، على قدر كبير من المحافظة والموالاة لمؤسسات الأعمال فى تلك السنوات التالية للحرب الأهلية.

وبالمثل خُفِّضت معدلات ضرائب الدخل مرارًا بالنسبة للأغنياء فى عشرينيات القرن العشرين. ويذكرنا فيلبس أنه حتى مع انتعاش الاقتصاد فى تلك السنوات فقد الكثيرون وظائفهم نتيجة للتحول التكنولوجى، فى الوقت الذى لم يكن فيه وجود لتأمين البطالة. وغذى نمو الثروة الخرافية المضاربة المالية التى أسفرت عن الانهيار المفاجئ المؤلم لسوق الأوراق المالية عام ١٩٢٩.

ومع هذا كله نمت الإنتاجية، التى هى المقياس الأساسى لحيوية الاقتصاد، نموًا سريعًا فى العصر الذهبى والعشرينيات. وتعد الإنتاجية، أو ناتج السلع والخدمات فى ساعة العمل الواحدة، مصدر ارتفاع مستوى المعيشة. ولم تتحسن أحوال بعض العمال، وإن تحسنت أحوال كثيرين منهم. (كانت زيادة دخول العمال غير المهرة أبطأ من زيادة دخول معظم العمال الآخرين، وذلك بسبب منافسة المهاجرين). وكان ٦٠ بالمائة من الأسر تمتلك سيارة سنة ١٩٢٩ مقابل ٢٠ بالمائة فقط فى ١٩٢٠ ولم تتدخل زيادة الثروة فى القمة - فى ظاهرها على الأقل - فى النمو الاقتصادى.

إلا أنه خلال الثمانينيات والنصف الأول من التسعينيات ازدادت الإنتاجية بمعدلات شديدة البطء. في الوقت الذى هبط فيه متوسط الأجور الفعلية. ودخول الأسر العادية فى الوقت الراهن أعلى قليلاً فقط، بعد التضخم، مما كانت عليه فى الثمانينيات، ولكن حتى هذا التحسن اقتضى من كلا الزوجين العمل ساعات أكثر من تلك التى كانا يعملانها فى الماضى. ولا تزال مستويات دخول الأسر بلا أى ارتفاع يساوى ارتفاع نفقات التعليم الجامعى والرعاية الصحية والأدوية والإسكان. وتبين قياسات الدخل المعقدة أن الدخل انخفض بالفعل بالنسبة للكثيرين على مدى فترة طولها ٢٠ عامًا، وفى بعض الجماعات العمرية انخفض بالنسبة لمعظم الذكور. وينسى فيلبس نقطة مهمة بإصراره على بيان التشابهات بين التسعينيات وفترتى خلق الثروة السابقتين عليها. فقد كانت التجربة الاقتصادية فى الثمانينيات وجزء كبير من التسعينيات مزعجة إلى حد كبير، لأن ثروات ضخمة تكونت حتى فى الوقت الذى كان فيه أداء الاقتصاد متدنيًا بشدة. وعوّض انتعاش التسعينيات تعويضًا جزئيًا عن الانخفاضات التى طرأت على الدخول الفعلية فى العقود السابقة.

ومع هذا كله لم تكن هناك حركة سياسية ارتجاعية تقدمية جادة. وكان الخطاب العام فى التسعينيات فى كل جزء منه مناوئًا للعمل مثلما كان فى العصر الذهبى. ويرى فيلبس أن العولمة فى الوقت الراهن تساوى الداروينية الاجتماعية فى أواخر العقد الأول من القرن التاسع عشر. ويمكنه كذلك إضافة أيديولوجيا السوق. وهو يقول إن «الديمقراطية والأسواق لا يمكن أن يكونا شيئاً واحدًا». والغريب أنه لا بد من تذكيرنا بهذا.

[٢]

إن غضب فيلبس من التفاوت أخلاقى أكثر منه اقتصاديًا، وهو يعبر عن ذلك الغضب بحجج قوية ومؤثرة تعبر عن وجهة نظر لا بد من عرضها. فهو يعتقد أن التفاوت الحاد سيئ فى حد ذاته، وهو موقف يسهل تجاهله فى عصر يسيطر عليه المال. فهل يستحق مديرو الشركات أن يحصلوا على ٤١٩ ضعفًا لأجر عمال الإنتاج فى الساعة؟ وكانوا فى عام ١٩٨٨ يحصلون على ٩٣ ضعفًا فقط، وهو لايزال مرتفعًا ارتفاعًا غير معقول. وزادت مكافأة كبار المديرين التنفيذيين أسرع خمس مرات من زيادة الأرباح فى الفترة من ١٩٩٠ و١٩٩٨ فهل يُدفع للعمال ما يستحقونه بالفعل؟

ولكنى أظن أن هم فيلبس الأخلاقى والسياسى الرئيسى هو أن نقيضى الثروة يمكن أن يدمرا الديمقراطية. وقد وجد أن هذا هو ما كان عليه الحال فى أواخر العقد الأول من القرن التاسع عشر، حين كانت الأعمال والمصالح تسيطر على المحاكم والكونجرس، ثم فى عشرينيات القرن العشرين. وهو يشير إلى أنه فى وقتنا هذا تأتى ثلاثة أرباع إجمالى المساهمات السياسية فى حملة انتخابات الرئاسة وانتخابات الكونجرس من عائلات يزيد دخلها على ٢٠٠ ألف دولار فى العام. ومع انخفاض مشاركة الناخبين فى التصويت، يورد فيلبس دراسة تبين أن العمال أصحاب الدخول المنخفضة هم أقل من يشاركون فى التصويت.

فى مثل هذا البيئة ليس مستغربًا أن يكون إقرار تخفيضات الضرائب لمصلحة أناس ذوى دخول عالية وأن يسعى مجلس النواب إلى تخفيض الضرائب على الأراضى الزراعية حتى بعد أكبر زيادة فى الثروة فى التاريخ. ومنذ ذلك الوقت ومجلس الشيوخ لم يوافق على مشروع القانون. ولا تزال الدعوات المطالبة بخصخصة الضمان الاجتماعى تؤخذ مأخذ الجد. ويمكن للشركات إقرار خطط المعاشات التقاعدية التى يساهم فيها العاملون ويشجِّع من يريدون الادخار من أجل التقاعد كى يساهموا فى خطط مثل (ks٤٠١). (ولكن هناك دليلاً متزايدًا على أنه فى ظل نظام المعاش التقاعدى الخاص السابق حين كانت الشركات تضمن فقط مبلغًا يدفع سنويًا) كان حال عمال الدخول المتوسطة والمنخفضة أفضل بكثير. ولكن هناك تفكيرًا جادًا فى فرض ضرائب على البنزين لتقليل التلوث والاعتماد على البترول الأجنبى.

وفى الوقت ذاته يتطلب التعليم المزيد من الاستثمارات العامة. ولأنه يمول تمويلاً محليًا فى أمريكا، فإن جودته شديدة التباين. وهناك أربعون مليون أمريكى ليس لديهم تأمين صحى، بينما أسعار الأدوية ترتفع بسرعة رهيبة تتعدى قدرة الكثير من الأمريكيين - وخاصة كبار السن - على دفع ثمنها. وتزيد نسبة الأطفال الفقراء فى أمريكا عما فى أية دولة متقدمة أخرى. ولا تتناسب رعاية الأطفال بصفة عامة مع دولة يعمل فيها معظم الآباء والأمهات. فهل تعكس تلك الترتيبات بالفعل رغبات معظم الأمريكيين؟

وتقوم الصحافة والتلفزيون كذلك بدور فى تضييق فجوة الخطاب العام، وإن لم يعطهما فيلبس الاهتمام الكافى فى كتابه. وتزداد سيطرة عدد صغير من الشركات الكبرى على هذين المجالين. وعادة ما يرأس تلك الشركات بعض أغنى الرجال والنساء فى أمريكا، وبينهم الآن ستيف كيس رئيس «إيه أو إل - تايم وارنر»، وروبرت مردوخ رئيس «نيوز كورب» وشقيقاته اللائى يملكن إمبراطورية «كوكس ميديا». والأمر الأكثر غموضًا بالنسبة لوسائل الإعلام، بغض النظر عمن يملكها، أنها تعانى من نفس الضغط الخاص بخفض النفقات لتلبية أهداف الأرباح الأعلى فى السباق التنافسى بالغ الشدة الذى تشجعه بورصة وول ستريت. وفى صحافة الأعمال كان التحمس للاقتصاد الجديد ولرئيس بنك الاحتياط الفدرالى آلان جرينسبان والاهتمام الضئيل بالمحاسبة المضللة وصراعات المصالح بين المحللين الماليين يعكس الشعور المتزايد بأن وسائل الإعلام تساهم فى الوقت الراهن فى الاندفاع نحو الثروة، وبأنها لا تمعن النظر فيما تقوم به من مراقبة. وقد بدت مترددة إلى حد كبير فى نقلها الأخبار الاقتصادية السيئة، إلى أن وقعت أزمتا ١٩٩٧ و١٩٩٨ وانهارت السوق فى عام ٢٠٠٠ وأجبرتها فضيحة «إنرون» على نقل تلك الأخبار.

ويخرج الغضب المسحة الشعبية التى لدى فيلبس. فهو يركز تركيزًا خاصًا على ازدياد النفوذ السياسى للمسئولين غير المنتخبين. وهو يبين باعتباره جمهوريًا أنه بعد سنوات من التعيينات الجمهورية أصبح القضاء شديد المحافظة. وهو يمقت بشدة بنك الاحتياط الفدرالى برئاسة جرينسبان - حصن السلطة غير المنتخبة دومًا - الذى تفيد سياساته المستثمرين ومن لهم نفوذ مالى. ويرى فيلبس أن نفوذ المؤسسات غير المنتخبة يصل إلى حد ضياع السيادة القومية. وهو يهتم، كما هو متوقع، بفقدان السيادة لمصلحة الشركات الدولية التى تقلل تكلفة العمالة إلى أدنى حد ممكن عن طريق الاستثمار فى الخارج، وتقلل الضرائب ببحثها عن مآوٍ لها فى بلاد أجنبية لا تخضع لقوانين الضرائب.



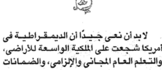
ولكن السؤال الذى نطرحه فى النهاية هو: هل هذا كله يضر النمو الاقتصادى؟ هذا السؤال لا بد له من إجابة. فقد كان لإنعاش الأسواق فى أمريكا فوائد كثيرة. وأدت أرباح الشركات المتزايدة إلى استثمار أفضل لرأس المال. ويرى بعض المراقبين أن الرضا السياسى فى أمريكا دليل على أن الأسواق تخدم معظم الأمريكيين، حتى وإن منحت عددًا قليلاً نسبيًا أرباحًا خرافية. ويقول بعض المدافعين عن الثروات الجديدة إنها كانت مجرد فاتحة الانتعاش الاقتصادى فى أواخر التسعينيات، حيث زادت الأجور زيادة سخية بالنسبة لكل فئات الدخل. وكان المستثمرون يحصلون على جزائهم العادل مقابل مدهم الاقتصاد الأمريكى بحيوية جديدة.

إلا أن هناك ادعاءً قويًا بأن التفاوت يضر النمو الاقتصادى وزيادة الإنتاجية، خاصة بعد أن بات أكثر تطرفًا، ومن المؤكد أنه نادرًا ما تكون له أية فائدة. وإحدى المقولات المؤيدة للثروة الخاصة، على سبيل المثال، هى أن الأغنياء يدخرون أموالهم، مما يوفر رأس مال تستثمره البلاد. ولكن المدخرات الشخصية بصفة عامة تناقصت تناقصًا شديدًا فى أمريكا حين زادت الثروات الخاصة فى الثمانينيات والتسعينيات. وكانت نتيجة ذلك أن اضطرت أمريكا لاقتراض مبالغ قياسية من الخارج، وهى الآن أكبر بلد مدين فى كل الأزمنة.

وبالمثل لم يسفر التخفيض الحاد فى معدلات ضريبة الدخل الشخصى فى عهد الرئيس ريجان عن نمو أسرع للإنتاجية، كما توقع مؤيدوه. فقد احتاج الأمر إلى اثنتى عشرة سنة كى ترتفع الإنتاجية، وحدثت حركتها شديدة الميل إلى أعلى بعد زيادة الرئيس كلينتون معدلات ضرائب الدخل العليا فى عام ١٩٩٣.

ويقدم فيلبس سببًا رئيسيًا واحدًا على الأقل لوجود آثار اقتصادية مدمرة للثروات الكبيرة. فهى تغذى المضاربة المالية التى كانت تؤدى فى السنوات العشر الماضية إلى انهيارات مفاجئة فى الاقتصاد وإلى كساد فى أحيان كثيرة. وأصبح ارتفاع أسعار سوق الأوراق المالية نفسه مصدرًا رئيسيًا من مصادر النمو الاقتصادى فى التسعينيات، حيث أنفق المستثمرون أرباحهم أو اقترضوا بضمانها لشراء سلع أو خدمات. كما ساعد ذلك على رفع قيمة الدولار الأمريكى، مما أدى إلى انخفاض أسعار الواردات واجتذاب رأس المال إلى بلد متعطش للمدخرات. ولكن الاقتصاد الأمريكى مضطر حاليًا للتعامل مع مستويات مرتفعة من الدين، ومع دولار معرض للخطر، ومع أسعار سوق الأوراق المالية الآخذة فى الانخفاض، إلى جانب مئات المليارات من الدولارات من الاستثمار الضائع أو الذى خُصِّص تخصيصًا خاطئًا فى انهيار أسهم التكنولوجيا الفائقة.

وهناك مشكلة أخرى متعلقة بالتفاوت كثيرًا ما يُتغاضى عنها، وقد تكون أهم مشكلة. فنمو الطلب المحلى هو فى حد ذاته محرك رئيسى للنمو الاقتصادى وزيادة الإنتاجية. وكانت زيادة الطلب فى أواخر التسعينيات عبر فئات الدخل المختلفة المصدر الرئيسى للانتعاش. وتستثمر الشركات أموالها لأنه يمكنها بيع منتجاتها وتحقيق اقتصادات جديدة ذات حجم كبير حين تنمو أسواق الدخل المتوسط. فى حين يدمر التفاوت الأسواق المحلية بتقليله القدرة الشرائية. بل إن السوق المحلية القوية أهم من التجارة الدولية. وتنبع ميزة أمريكا الاقتصادية، التى بقيت على مدى ما يربو على مائتى عام من التميز، من سوقها على اتساع القارة التى لا مثيل لها حتى الآن فى أى مكان من العالم.



لا بد أن نعى جيدًا أن الديمقراطية فى أمريكا شجعت على الملكية الواسعة للأراضى، والتعلم العام المجانى والإلزامى، والضمانات القانونية للتنافس، وبرامج الصحة العمومية بدءًا من الإجراءات الصحية البلدية حتى التطعيمات المجانية، وشبكة الطرق السريعة التى تربط الولايات ببعضها، والضمان الاجتماعى وتأمين البطالة، والنظام الجامعى العام، ودعم الكليات الخاصة. وقد ساهم كل ذلك فى وجود الأسواق المحلية القوية والنمو الاقتصادى والثقة فى العدالة الاقتصادية.

ولكن تجاهل هذا الميراث فى ازدياد. ولم تكن مكافأة عمال أمريكا من الارتفاع بحيث تدعم الاستهلاك دون الاقتراض، كما أنها لم تكن

إذا كان الكثير من قياسات الدخل ومن تفاوت الثروة قد أعاد أمريكا إلى مستويات العشرينيات، فإن الثروات الشخصية الخرافية فى الثمانينيات والتسعينيات تنافس الآن ثروات العصر الذهبى الخرافية، بل تزيد عليها فى بعض الجوانب. ولم يكن هذا هو الحال قبل الثمانينيات

كافية لمساعدة العمال على استثمار أموالهم استثمارًا ملائمًا فى تعليمهم أو مستقبلهم المالى. وتحتاج السوق المحلية القوية استثمارًا عامًا فى التعليم المتكافئ، والرعاية الصحية الوافية للجميع، والنقل والاتصالات رفيعة المستوى، والمؤسسات الجديدة كرعاية الطفولة المبكرة. وفى الماضى نجحت أمريكا فى تلبية حاجات اقتصادها المتغير. واليوم، وفى عصر خلق الثروات الذى يشعر فيلبس بالأسى عليه، كثيرًا ما تكون تلبيتها عبيًا.

ويعتقد فيلبس أن الناخبين الأمريكيين قد يتحولون إلى «متشددين». وهو لا يتوقع نشوب حرب طبقية. بل إنه يرى أن التفاوت يمكن أن يخلق نخبة: أى طبقة أرستقراطية من ذلك النوع الذى يخلّف ثروة للورثة ويكون له نفوذ سياسى زائد على الحد. وهو يقول إن الأمريكيين اعتادوا معارضة تلك النخب، وليس الثروة الخاصة ذاتها. وهو يتخيل على سبيل المثال أن الأمريكيين سوف يطالبون بفرض ضرائب على الثروة وبتعريفة حمائية. كما يشعر بحب تجاه جمهوريين مثل لنكولن وتيودور روزفلت، بل وريتشارد نيكسون، كانوا متعاطفين مع العمال مقارنة بخلفائهم الديمقراطيين، ولم يتقبلوا فكرة حكم الأثرياء النخبوى.



ولكن رغم ما لدى فيلبس من ميل لقراءة التاريخ الأمريكى قراءة متفائلة، فهو مهتم كذلك بعد إمكان التغلب على زيادة نفوذ وول ستريت فى أمريكا. كما يخصص فصلاً طويلاً لاتجاهات مشابهة فى بريطانيا القرن التاسع عشر وهولندا القرن الثامن عشر قبل انهيار تلك الاقتصادات، ولكنه لا يمضى كثيرًا فى تقديم الأشباه. والواقع أنها قد لا تكون صحيحة تمامًا. ففى رأيى أنه أمكن التغلب على تلك البلاد لأن دولاً ذات أسواق محلية أكبر حلت محلها. فقد حلت بريطانيا محل هولندا، وحلت الولايات المتحدة محل بريطانيا. إلا أن القيم المالية التى فُهمت فهمًا محدودًا أبعدت تلك البلاد عن حاجات أسواقها المحلية، وعن الاستثمارات العامة كذلك.

ويتسم كتاب «الثروة والديمقراطية» فى كثير من الأحيان بالتكرار والتطويل، ويتناول فيلبس بعض القضايا التى سبق له تناولها. ولكن غضبه الأخلاقى أكثر كثافة الآن. فهو يحذر من اتجاه أمريكا السريع نحو حكم الأثرياء، ومن أن روح الديمقراطية آخذة فى التناقص. ويتسم الجدل الاقتصادى الأمريكى بالتشويه بالقدر الذى يجعل قلة فقط من الخبراء الاقتصاديين على استعداد لأن تقول إن إضعاف القيم الديمقراطية يمكن أن تكون له آثار مدمرة على النمو الاقتصادى والدخل، ولكن الدراسة الموضوعية لدور الديمقراطية فى الاقتصاد الأمريكى قد تبين أن هذا هو الحال. وبينما يعالج فيلبس قضايا كثيرة فى كتابه، فإن جوهر هذا البحث هو أن الديمقراطية فى خطر. وقد أصبح بتحليله لذلك الخطر واحدًا من أكثر مفكرينا السياسيين الاقتصاديين قيمة. ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
ترجمة: أحمد محمود



الرأسمالية الأمريكية فى أزمة!

محمود عبدالفضيل



■■ مسلسل فضائح الشركات الأمريكية الكبرى الذى تفجر خلال الشهور الأخيرة أفصح عن العديد من مساوئ وإخفاقات النظام الرأسمالى الأمريكى، الذى كان ينظر إليه البعض باعتباره «النموذج» الذى يجب أن يحتذى فى البلدان التى تأخذ بنظام «اقتصاد السوق». وبدأت تعليقات المحللين تتحدث «القلب المتعفن للرأسمالية الأمريكية» (The rotten core of American capitalism).

فبعد عشر سنوات متصلة من الازدهار الاقتصادى خلال التسعينيات، نتيجة صعود قطاع التكنولوجيا والاتصالات كقطاع قائد للإنتاجية والربحية، أو ما سمى «الاقتصاد الجديد»، بدأ انكسار موجة الصعود للاقتصاد الحقيقى (العينى) المنتج عند نهاية التسعينيات. ورغم ذلك استمرت موجة المضاربات المحمومة فى القطاع المالى (البورصات، شركات الخدمات المالية والسمسرة، بنوك الاستثمار). وبدأ الانفصام التدريجى بين الأداء المتدنى لشركات «الاقتصاد الجديد»، وبين حصد الأرباح والمكاسب الرأسمالية فى البورصات، من خلال تضخم وتصاعد أسعار أسهم تلك الشركات الكبرى. وقد ساعد على ذلك تواطؤ وفساد شركات المحاسبة والمراجعة التى قامت بتزوير القوائم المالية (ميزانيات الشركات، وقوائم الربح والخسارة)، وذلك حتى تستمر عملية تغذية ما سمى «اقتصاد الفقاعة» على الصعيد المالى، وتأجيل أجل انفجار البالونة المنتفخة بالهواء الفاسد. كما ساعدت وسائل الإعلام المسموعة والمرئية على نشر الأوهام حول استمرار الرواج المالى فى أسواق المال والبورصات فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وتدريجيًا تكشفت حلقات ما كان يجرى من وراء الستار من عملية طبخ للحسابات والقوائم المالية، وترويج متعمد للأكاذيب لتضليل المستثمرين والأجانب وصغار المدخرين المحليين وأرباب المعاشات. وكأننا بصدد استرجاع أحد مشاهد مسلسل رواج «شركات توظيف الأموال» فى مصر خلال الثمانينيات التى تدافع الناس لإيداع أموالهم لديها.

ولقد شمل مسلسل الفضائح المالية كبريات الشركات الأمريكية، وشركات عالمية عملاقة مثل:

١- شركة إنرون للإتجار فى منتجات الطاقة.

٢- شركة «وورلد كوم» العملاقة فى مجال الاتصالات.

٣- شركة «زيروكس» لآلات ومعدات تصوير المستندات.

وغيرها من كبريات الشركات الأمريكية فى كافة المجالات. حيث تم الكشف عن عمليات التدليس المالى الواسع فى قوائمها المالية، ولا سيما «تضخيم حجم الأرباح»، من ناحية، والإقلال من «حجم مديونياتها للغير»، من ناحية أخرى. وكانت الأرقام بعشرات البلايين من الدولارات. ويوضح الجدول (١) عدد الشركات التى أعلنت إفلاسها خلال ٢٠٠٢، وبلغ حجم أصولها ٢٣٠,٧ بليون دولار.

ولكن الصورة اتضحت بشكل أكبر عندما تم الكشف عن تواطؤ واحدة من كبريات شركات المحاسبة والمراجعة فى العالم (آرثر أندرسون) فى عمليات التدليس هذه، وهى الجهة المفترض أنها تدقق الحسابات وتشهد بسلامة المركز المالى للشركة التى تراقب حساباتها وتفصح عن أى مخالفات أو أى تدليس مالى فى قائمة الأرباح والخسائر، باعتبارها جهة مراجعة خارجية تحصل على أتعاب مهنية هائلة مقابل القيام بتلك المهمة الدقيقة والمسئولة أمام جمهرة المساهمين والمستثمرين وموظفى الشركة وصناديق التقاعد.

وتكتمل «حلقات الفساد» بالدور المهم الذى لعبته شركة عملاقة للخدمات والاستشارات المالية فى العالم المعروفة باسم «ميرل لينش» التى اعترفت علانية بقيام أحد أقسام «خدمة المستثمرين» بتضليل عملائها من المستثمرين، وأوصتهم بشراء أسهم معروف أن قيمتها السوقية المستقبلية سوف تتدهور. بل تم التنكيل ببعض الموظفين والمحللين الماليين الذين جرؤوا على تخفيض التصنيف الائتمانى لشركة كبرى مثل «إنرون»، قبل افتضاح أمرها فى العلن. وهكذا لم تلعب الشركة العملاقة ذات الشهرة الواسعة فى عالم المال دور «الوسيط النزيه» بين سوق المال



وعملائها من المستثمرين الساعين للمشورة والنصح السديد.



ولكن ترى ما هو ذلك الخيط الرفيع الذي يربط بين تلك الحلقات من الممارسات والفضائح المالية في الولايات المتحدة الأمريكية. ولعل التفسير الوحيد لكل تلك الممارسات من الأطراف الثلاثة: (أ) المسئولين التنفيذيين للشركات الكبرى، (ب) مراقبي الحسابات، (ج) الوسطاء الماليين، هو تغذية استمرارية «لاقتصاد الفقاعة» في ظل المضاربات المحمومة على أسهم الشركات الأمريكية الكبرى العملاقة. الأمر الذي كان يجب استمراره لصالح حفنة من المديرين والمضاربين والوسطاء الماليين الفاسدين. إذ إن الإفصاح عن حقيقة المراكز المالية لتلك الشركات سوف يؤدي بالضرورة إلى تدهور قيمة أسهمها في البورصات، وبالتالي تتوقف لعبة المضاربة، والإثراء من خلال جني الأرباح. ولذا يصبح «التدليس المالي» ضرورة منطقية لاستمرار «لعبة الكازينو» في بورصات الأوراق المالية، حتى يتم التربح بواسطة كبار المديرين حملة الأسهم والمضاربين والسماسرة، تحت الحماية الضمنية لبعض كبار المسئولين في الإدارة الأمريكية.

وقد أرجع الاقتصادي الأمريكي المعروف «جوزيف ستيجلز» - الحائز مؤخراً على جائزة نوبل في علم الاقتصاد - السبب الكامن وراء اتساع رقعة ممارسات الفساد والتدليس المالي في الاقتصاد الأمريكي إلى عاملين رئيسيين:

(أ) تمتع رؤساء الشركات الأمريكية الكبرى بما يسمى (Stock options)، أي التمتع بالحصول على حوافز في شكل مجموعة من أسهم الشركات التي يعملون بها، وبالتالي تكون مصلحتهم في الحفاظ على مستوى أسعار مرتفع لتلك الأسهم، ليتم تصفيتها في وقت الذروة، وجني الأرباح.

(ب) قيام شركات «المحاسبة والمراجعة» - في ظل النظام الأمريكي - بأعمال الاستشارات جنباً إلى جنب مع أعمال المراجعة مما يؤدي إلى طبخ الحسابات والقوائم المالية، وفقاً لأهواء الإدارة، حتى لا تفقد تلك المكاتب الأتعاب الاستشارية الضخمة التي تفوق بكثير «أتعاب المراجعة».

ويمكن تصور تداخل حلقات الفساد بين مؤسسات الرأسمالية الأمريكية على النحو الموضح في الشكل (١):



ويكفينا للتدليل على تداخل المصالح للحفاظ على أسعار مرتفعة «غير حقيقية» لأسهم الشركات الكبيرة أنه بعد اكتشاف فضيحة شركة «ورلد كوم» ثاني أكبر شركة أمريكية للاتصالات الدولية، هبطت أسهم تلك الشركة إلى مستوى عشرين سنتاً فقط (خمس دولار)، بعد أن كان يجرى تداوله بسعر يصل إلى ١٦ دولاراً أمريكياً خلال الـ ٥٢ أسبوعاً التي سبقت ذلك. وكانت القيمة السوقية للشركة قد سجلت خلال ذروة ارتفاع أسهم شركات التكنولوجيا والاتصالات في الأسواق العالمية



ما قيمته نحو ١٨٠ بليون دولار، وإذا بتلك القيمة تهبط إلى نحو ٢,٥ بليون دولار فقط في أعقاب اكتشاف فضيحة التدليس المالي. وهكذا فقد المستثمرون الأجانب وصغار المدخرين وأرباب المعاشات الجانب الأكبر من قيمة أصولهم المالية بين عشية وضحاها.

وقد تضمنت عمليات «التدليس المالي» العديد من الألاعيب المحاسبية التي تضمنت تحويلات بين الحسابات الداخلية للشركة، مما أدى إلى إظهار أرباح كبيرة «صورية» حققتها الشركة، بدلاً من تسجيل خسائر صافية عن عام ٢٠٠١، وعن «الربع الأول» من عام ٢٠٠٢، وذلك هو مجرد نموذج صارخ لما حدث في العديد من كبريات الشركات الأمريكية، بهدف الحفاظ على قيمة سوقية «مصطنعة» في عمليات التداول في بورصات الأوراق المالية، لكي يتم الإثراء للبعض على حساب جمهرة حملة الأسهم والمستثمرين في صناديق التقاعد.

وفي تقدير أولي لمجموعة التخطيط الاستثماري في مؤسسة «مورجان ستانلي»، أن مجموع الخسائر المالية التي ترتبت على كشف فضائح خمس شركات أمريكية كبرى هي: «إنرون»، شركة الإنتاج الصناعي «تايكو»، شركة الاتصالات «كليه وست»، وشركة «كمبيوتر أسوسيتس»، وشركة «ورلد كوم» للاتصالات، قد بلغ ٤٦٠ بليون دولار (أي نحو نصف تريليون دولار).

وتلك الظاهرة التي تحدثنا عنها لم تقتصر على أسواق المال الأمريكية فحسب، بل امتد مسلسل الفضائح مؤخراً إلى «بورصة باريس» بعد تفجر فضيحة شركة «فيفندي يونيفرسال» للإنتاج الإعلامي، التي تعتبر ثاني أكبر مجموعة إعلامية عملاقة في العالم. حيث تم الكشف أيضاً عن تزوير وتدليس في الحسابات والقوائم المالية بهدف تخفيض حجم الديون، وتضخيم حجم الأرباح، وتحسين مركز السيولة الخاص بالشركة. وقد نتج عن انكشاف المستور، أن هبطت قيمة سهم مجموعة «فيفندي» بمقدار ٤٠ في المائة بين ليلة وضحاها.

وقد طالت الشبهات الرئيس الأمريكي نفسه، إذ إنه في عام ١٩٩٠ أرسل بوش إلى «لجنة السندات والبورصة» إشعاراً - طبقاً لنص القانون - يعلمها فيه بنيته بيع ٢١٢١٤٠ سهماً يملكها في شركة «هاركين» بسعر أربعة دولارات للسهم الواحد. وقد انهارت قيمة أسهم تلك الشركات بعدها بنحو شهر، حيث وصل سعر سهم شركة «هاركين» إلى دولار واحد، نتيجة إعلانها عن خسائر قدرها ٢٣ مليون دولار. وثارت الشبهات عندئذ حول مدى علم الرئيس الأمريكي بمعلومات داخلية استفاد منها للتخلص من الأسهم التي يملكها قبل انهيارها في البورصة. وقد تم التحايل على هذا الموضوع بأشكال شتى. كما لاحقت الاتهامات نائب الرئيس «ديك تشيني» وقت أن كان رئيساً لمجلس إدارة شركة «هاليبرتون» خلال الفترة ١٩٩٥-٢٠٠٠، والتي تعتبر الشركة الأولى عالمياً في مجال الأبحاث البترولية. وهناك اتهامات بأنه حقق لنفسه أرباحاً تقدر بنحو ١٢,٥ مليون دولار بمقتضى عمليات تفتقر إلى الشفافية.



ولعل الكثيرين يتساءلون: ما هي انعكاسات التطورات الأخيرة في الاقتصاد الأمريكي على الاقتصاد العربي؟

تشير بعض التقديرات المبدئية إلى أن خسائر المستثمرين الخليجيين، نتيجة انهيار أسهم العديد من شركات الاتصالات والتكنولوجيا، في الولايات المتحدة، وغيرها من الأسهم المصنفة «أسهم ممتازة» فيما سبق، قد انتقلت من خانة ملايين الدولارات إلى خانة البلايين! وتأتي الخسائر الكبيرة التي لحقت بالمستثمرين الخليجيين في أعقاب التدهور الحاد الذي سجلته الأسهم الأمريكية، إذ انخفض مؤشر ناسداك لأسهم التكنولوجيا إلى أدنى مستوى له منذ خمسة أعوام. بينما تراجع مؤشر «داو جونز» الذي يشمل معظم الأسهم المتداولة إلى أدنى مستوى له منذ عامين.

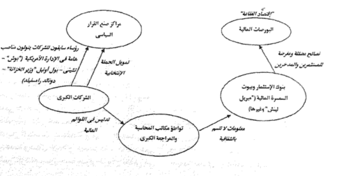
ولعل من أهم تداعيات تلك الأحداث هو انهيار تلك الثقة الزائدة، بل العمياء أحياناً، في متانة المراكز المالية للشركات الأمريكية الكبرى والعملاقة، التي كانت تعتبر بمثابة «الملاذ الآمن» للمستثمرين العرب (الأفراد والمؤسسات). كذلك سقطت مصداقية

جدول (١): الشركات الأمريكية الكبرى التي أعلنت إفلاسها خلال عام ٢٠٠٢

الشـركـات	حجم الأصول (بليون دولار)
١ - وورلد كوم	١٠٣,٨
٢ - إنرون	٦٣,٤
٣ - جلوبال كروسن	٢٤,١
٤ - أديلفيا	٢٢,٤
٥ - كمارت	١٧,٠
المجمـوع	٢٣٠,٧

المصدر: الفايننشال تايمز، ٢٢ يوليو ٢٠٠٢

شكل (١): تداخل حلقات الفساد بين مؤسسات الرأسمالية الأمريكية



النصائح المالية التي تقدمها شركات الوساطة المالية وبنوك الاستثمار لعملائها الكرام. إذ اكتشف العديد منهم أنهم كانوا ضحايا «اقتصاد الكازينو» في البلدان الرأسمالية المتقدمة.

ومن ناحية أخرى، فمن المعروف أن الإيرادات الحكومية في البلدان الخليجية تعتمد بدرجة رئيسية على «عائدات البترول» المقوّمة بالدولار الأمريكي. ونظراً لأن «القوة الشرائية» لتلك العائدات تتوقف على سعر صرف الدولار الأمريكي، فإن أي هبوط في سعر صرف الدولار يعني في واقع الأمر هبوطاً مماثلاً في «القوة الشرائية» لإيرادات البترول عند تقويمها أو عند تحويلها إلى أي عملات أجنبية أخرى.

وهكذا، فإن المستثمرين الخليجيين قد تعرضوا لخسائر ضخمة خلال عام ٢٠٠٢، مصدرها ثلاثة عوامل:

(أ) تضاؤل قيمة ما يمتلكونه من أسهم وأصول مالية في البورصات الأمريكية (ولا سيما الاستثمارات في أسهم التكنولوجيا «ناسداك»).

(ب) تدني أسعار الفائدة العالمية على الودائع المربوطة بالدولار الأمريكي.

(ج) تدهور سعر صرف الدولار الأمريكي، المقوّم به معظم الأصول المالية والاستثمارات الخليجية في الخارج والداخل. إذ إنه منذ بداية العام الحالي، انخفض «سعر صرف» الدولار الأمريكي بنحو ١٢٪ أمام «اليورو»، كما انخفض بنحو ٦٪ أمام الجنيه الإسترليني، وبالنسبة ذاتها تقريبًا أمام الين الياباني.

وتلك بلا شك آفة الاستثمار المفرط في أصول وأدوات مالية، تتعرض لتقلبات عنيفة في أسواق المال العالمية. إذ إنه عند وقوع الكارثة، وانفجار «الفقاعة»، لا تنفع نصائح شركات الوساطة المالية والسماسرة المحترفين. وجدير بالذكر أن تلك الخسائر لا تقتصر على المستثمرين الأفراد، بل تشمل الصناديق التابعة للحكومات والاستثمارات المالية الخارجية للمصارف وبيوت الاستثمار العربية. الأمر الذي يتطلب إعادة النظر في إستراتيجية وأساليب استثمار «الفوائض المالية» العربية، في ظل الظروف الدولية الجديدة.



يتساءل الكثيرون: هل الأزمة الراهنة للرأسمالية الأمريكية: أزمة طارئة أم أزمة بنيوية هيكلية؟ وأين يكمن «الخلل» و«العطب» في النظام الرأسمالي الأمريكي الراهن؟

ولقد كان من الطبيعي أن يعقد الرئيس الأمريكي جورج بوش العديد من الاجتماعات لاحتواء هذا الموقف الخطير حيث تعهد باتخاذ كل ما يلزم من إجراءات لمعاقبة مديري الشركات الذين يثبت تلاعبهم في البيانات المالية للشركات، كما تعهد بالسعي لمضاعفة عقوبة السجن لمسئولي الشركات الذين يثبت تورطهم في مثل هذه الجرائم من ١٠ سنوات إلى عشرين عاماً.

ولكن الأزمة الحقيقية للنظام الرأسمالي الأمريكي لا يمكن حلها من خلال مجموعة من الإجراءات العقابية. لأن هناك حاجة ملحة لإجراء إصلاح مؤسسي ومنظومي متعدد الجوانب. وتتمثل أهم عناصر ذلك الإصلاح فيما يلي:

(أ) إعادة النظر في النظم الرقابية والضوابط (Regulation) التي تحكم الممارسات الرأسمالية، بعد أن استفادت الشركات والوسطاء الماليون مما سمي (Deregulation)، أي رفع القيود والضوابط التي تحكم الممارسات الرأسمالية.

(ب) عدم التصرف في الأسهم التي يحصل عليها المديرون كمنحة (Stock options)، أثناء تولي مناصب قيادية وتنفيذية في الشركات.

(ج) إعادة النظر في مدى كفاءة المعايير المحاسبية القائمة، ولا سيما عند حدوث الاندماجات بين الشركات، أو الاستحواذ على أسهم شركات أخرى.

(د) إصلاح نظام لجنة التداول والبورصة (SEC) في الولايات المتحدة الأمريكية.




وأخيراً، وليس آخراً، لابد من وضع حد لتداخل النفوذ السياسي مع مصالح رجال الأعمال، مما يؤثر على نزاهة نظام الحكم، وخاصة في مجال التبرعات السخية التي تقدمها الشركات أثناء الحملات الانتخابية الرئاسية. كذلك عملية تبادل مواقع مستمرة بين المراكز القيادية في هيكل السلطة في البيت الأبيض والوزارات المهمة (الخزانة، التجارة، الدفاع)، ومقاعد مجالس إدارة الشركات الكبرى، مما يؤدي إلى تداخل المصالح بين رجال الإدارة الأمريكية ورجال «وول ستريت» (حي المال والأعمال في نيويورك) والمؤسسة العسكرية «البنتاجون».

وقد أوردت «مجلة الإيكونومست» البريطانية (عدد ١٣ يوليو ٢٠٠٢) قائمة مختصرة لرجال الإدارة الأمريكية الحالية الذين كانوا يرتبطون بقطاع الأعمال والشركات الأمريكية الكبرى:

١- «ديك تشيني» - نائب الرئيس - عمل كنائب لرئيس شركة «هاليبرتون» لخدمات البترول.

٢- «بول أونيل» - وزير الخزانة - عمل كرئيس لشركة Alcoa، الشركة العملاقة لصناعة الألومنيوم.

٣- «دونالد رامسفيلد» - وزير الدفاع - كان على رأس شركة General Instruments.

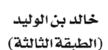
٤- «دون إيفانز» - وزير التجارة - أدار شركة Tom Brown للبترول والغاز.

٥- «توماس وايت» - سكرتير القوات المسلحة - كان على رأس قطاع تسويق الطاقة لشركة «إنرون».

ومن ناحية أخرى، أفصحت تلك الأزمة عن خطورة حالة «الانفصام المتزايد»، بين أداء «الاقتصاد العيني»، من ناحية، وازدهار «الاقتصاد المالي»، ونشاط البورصات من خلال المضاربات، من ناحية أخرى. وقد سبق وتحدث الاقتصادي البريطاني الكبير «كينز» في مؤلفه المهم «النظرية العامة» (١٩٣٦) عن ما أسماه «اقتصاد الكازينو» الذي يزدهر أحياناً بين جنبات الاقتصاد الرأسمالي، ولا سيما في مجال بورصات الأوراق المالية، من خلال المضاربات.

ولو قدر «لكينز» أن يعيش بيننا هذه الأيام لشهد مثالاً حياً على نشاط «اقتصاد الكازينو» في الولايات المتحدة الأمريكية، وما صاحب ذلك من فساد وعمليات تدليس مالي واسعة. ■





خالد بن الوليد
(الطبقة الثالثة)

ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. ويكنى أبا سليمان. وأمه عصماء، وهي لبابة الصغرى بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهزم بن رويبة بن عبد الله بن هلال بن عامر ابن صعصعة بن قيس عيلان.

قال: أخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثني يحيى بن المغيرة ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، قال: سمعت أبي يُحدِّث قال: قال خالد بن الوليد: لما أراد الله بي ما أراد من الخير قذف في قلبي حب الإسلام، وحضرني رشدي، وقلت قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد، فليس موطن أشهده إلا انصرفت وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء، وأن محمدًا سيظهر. ودافعته قريش بالراح يوم الحديبية فقلت: أين المذهب؟ وقلت: أخرج إلى هرقل. ثم قلت: أخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم مع عجم تابعًا لهم مع عيب ذلك عليَّ! فكتب إلي أخي: لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك!

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام وسرتني مقالة رسول الله ﷺ وأرى في المنام كأني في بلاد ضيقة جدبة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع. فقلت: إن هذه لرؤيا. فذكرتها بعد لأبي بكر الصديق فقال: هو مخرجك الذي هداك الله فيه للإسلام، والضيق الذي كنت فيه: الشرك. فأجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ، حتى قدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، أول يوم من صفر سنة ثمان. فلما طلعت على رسول الله ﷺ سلمت عليه بالنبوة، فرد عليّ السلام بوجه طلق فأسلمت وشهدت شهادة الحق.



مفهوم الأجيال

في تاريخ الأدب

صلاح فضل

تحتاج فكرة الأجيال لبحث معرفي يؤصلها في الثقافة العربية، لأنها كثيرة التداول والالتباس، خاصة في الاستخدام الأدبي المعاصر؛ إذ يوشك المبدعون - وبعض النقاد - أن يطلقوها على أبناء العقد الواحد من الزمان، فيقال جيل الستينيات وجيل السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات، وهذا ترخص شديد في مفهوم الجيل، لا يتسق مع نظرية الجيل في تاريخ الأدب كما هي معروفة في الفكر العالمي. ومع أن الكلمة قديمة في اللغة العربية، إلا أن دلالتها مخالفة للمصطلح الجديد، فهي تعني عند ابن منظور في لسان العرب «الجيل كل صنف من الناس؛ الترك جيل، والصين جيل، والعرب جيل، والروم جيل والجمع أجيال». وقد جاء المعجم الحديث ليضيف البعد الزمني والبشري لفكرة الجيل، كما اكتسبتها اللغة العربية بالترجمة، فيقول المعجم الوسيط: «الجيل الأمة، والجنس من الناس، فالترك جيل، والروم جيل، والقرن من الزمن. وثلث القرن يتعايش فيه الناس».

فانتقال كلمة الجيل من الدلالة على أجناس البشر لتشير إلى المجموعات المتعاصرة في فترة زمنية محددة يعد نقلة اصطلاحية ترتبط بفلسفة التاريخ وتصوراته الحديثة، خاصة في علاقتها بتاريخ الحركات والتيارات الأدبية المختلفة. فالرؤية الفلسفية للتاريخ تعمد إلى تنظيم حركته عبر فكرة الأجيال؛ إذ يلاحظ أن مفهوم الجيل يربط الحركة الشخصية للأفراد بالظروف الموضوعية للعصر، كما تتمثل في البيئة وعلاقات الحياة الواقعية والمواقف الاجتماعية والسياسية والثقافية المحددة.



على أن هناك فرقًا واضحًا بين التصور الحيوي أو البيولوجي للجيل، الذي كان يطلق عليه الفيلسوف الألماني «ديلثي»: اعتباطية الطبيعة الخلاقة مع قوانين الوراثة، وبين التصور الاجتماعي التاريخي للحصاد الفكري والثقافي للعصر، بما يمثل الخلفية الفاعلة في وعي الجيل وضميره. فالعلاقة بين توالي الثواني والدقائق في الساعة والزمن النفسي الداخلي توازي بالنسبة للفترات التاريخية الكبرى العلاقة بين العقود والقرون من ناحية والحياة الإنسانية في متوسطات الأعمار البشرية من ناحية أخرى.

إضافة إلى أن هذه الرؤية الزمنية للصيرورة الإنسانية تتعلق بتصور الجيل الذي يقدمه «ديلثي» هكذا:

«الجيل يمثل مسافة زمنية، وهو أيضًا فكرة للقياس من الداخل، تنتظم في طيات فكرة أشمل هي الحياة الإنسانية. هذه المسافة الزمنية تستغرق الفترة الواقعة بين الميلاد وبلوغ العمر المتوسط الذي تنبت فيه حلقة جديدة في شجرة الحياة، وهي تبلغ في المعتاد ثلاثين عامًا». كما يعتبر الجيل - من ناحية أخرى - تسمية لتعاصر الأفراد وتعايشهم في مرحلة معينة من أعمارهم، بعد أن يكونوا قد نشأوا سويًا في مرحلة الطفولة والشباب المشتركين، بما يجعلهم يتعاصرون في جزء على الأقل من مراحل نضجهم، وبما يؤدي إلى أن يكونوا قد خضعوا تقريبًا لتأثيرات متشابهة، وعوامل تغير متزامنة، الأمر الذي يجعلهم يمثلون «حلقة ضيقة من الأفراد تشكل كلاً متجانسًا». ومعنى هذا أن العوامل الأساسية التي تصوغ طبيعة الجيل تعتمد على الرؤية الحيوية لطبيعة الإنسان

التى تخضع لنظام خاص من الاختيار الوراثى والثقافى معًا. فالناس - باعتبارهم أفرادًا - لا يتمتعون بحرية غير محدودة فى تنمية قدراتهم الوراثية، بقدر ما يخضعون للشروط التى يفرضها عليهم العصر والمناخ الثقافى. كما أن الفرد بتوظيفه لهذه الحرية الخلاقة يسهم فى تشكيل معالم جيله نفسه. وبهذا فإن فكرة المعاصرة تمثل مكونًا أساسيًا لمفهوم الجيل الذى يولد وينمو ويعيش بطريقة مشتركة، تخضع لتأثيرات فعالة لا تلبث أن تفوق العوامل الوراثية، بما يجعل أبناء الجيل يمثلون كيانًا متجانسًا بالرغم من الفوارق الفردية اللافتة.

شروط الجيل:

جاء المفكر الألمانى «بيترسون» ليضع هيكل الأجيال الأدبية وشروطها المعرفية والفكرية انطلاقًا من رؤية «ديلثى» السابقة، وقد اعتمد إلى حد كبير على فكرة «روح العصر» التى راجت فى النصف الأول من القرن العشرين، حيث يرى أن «أيديولوجيا الوضعية التقدمية لا تعنى أكثر من أن تكون الأجيال بمثابة درجات السلَّم المتجانسة الصاعدة، أما النزعة التاريخية النسبية فهى تعدّ الأجيال بمثابة موجات تمثل ذروتها ونهايتها المنتظمة مقياسًا للزمن يتوقف على كثافة القوة التى تدفعها».

على أن هناك ظروفًا وشروطًا تبعد بعض الأفراد المتعاصرين عن الاندماج فى الجيل المعاصر لهم، مثل المنطقة التى يولدون بها أو الوسط الذى يعيشون فيه، مما يجعل نظرية الأجيال تتوافق مع التصور المألوف عن «النماذج البشرية» فهناك نماذج قائدة تتزعم جيلها، وهناك نماذج تابعة ليس لها تاثير يذكر فى الجيل الذى تنتمى زمنيًا إليه؛ لأنها لم تتشرب روحه بالقوة ذاتها مثل الأولى.

أما العوامل الفاعلة فى تشكيل الجيل الأدبى فهى عند «بيترسون» ثمانية:

١ - الوراثة، وهو يحلل من خلال هذا العامل إمكانية انتقال المواهب الأدبية والفنية والرياضية عبر الأجيال، منتهيًا إلى نتيجة مؤداها أن هذا الانتقال ليس مألوفًا «بل من الضرورى أن يكون تغيير الاتجاه مناهضًا لفكرة الوراثة».

٢ - تاريخ الميلاد، ويرى أنه من أسرار الطبيعة - مثل لعبة الحظ والزمن - أن تتوافق الظروف ليولد العبقرى الذى يحتاجه العصر، ويعتبر أن كل فرد يسهم مع بقية أعضاء الجيل فى تشكيل القوى التطورية التى تعمل فى كل لحظات التاريخ.

٣ - العناصر التربوية: فأنماط التربية السائدة فى كل فترة تمثل أحد الأسباب الرئيسية فى تحولات الأجيال، وهى بدورها تؤثر بشكل حاسم فى نوع الأنماط التربوية الجديدة.

٤ - التواصل الشخصى: إذ لابد أن يقوم نوع من الارتباط بين أبناء الجيل، بما يحقق وحدة المصير لأفراده، ويمثل نقطة تجمع الجيل فى شكل جماعات تحقق درجة من التعايش المشترك. ويمكن أن تكون الجامعات والمعاهد التعليمية أوالجمعيات من أبرز نقاط التجمع، لأنها مقر الروح الشبابى الذى تنبثق فى حضنه التيارات الجديدة للأجيال المتميزة، وكذلك المجلات التى تطبعها هذه الأجيال تعد منبتًا جيدًا لهذا التواصل الوثيق.

٥ - تجارب الجيل: تكتسب دلالة خاصة مشكِّلة للجيل الأدبى تلك المعايشات والاكتشافات الكبرى التى تكوِّن خبرات الأجيال المشتركة فى مراحل تطورهم الحساسة، مثل الثورات الحاسمة والتطورات الحضارية البارزة، كما كانت الثورة الفرنسية وظهور السكك الحديدية والسفن البخارية بالنسبة للرومانسيين الذين رأوا فيها موت الشعر.

٦ - الدليل أو الأب الروحى: ويمكن أن نفهم هذا التصور بأشكال مختلفة، فقد يمثل الشخصية العملية التى تضع نفسها، أو يضعها غيرها على رأس معاصريها لتقدمها فى السن أو المقام؛ بحيث تجذب الآخرين وتشير للشباب إلى الطريق الواجب سلوكه، وربما كانت من بلد آخر أو عصر مختلف.

٧ - لغة الجيل: يرى المفكر الألمانى أن كل تغيير فى الأجيال الأدبية يتضمن تغييرًا فى المصطلحات، وهذا التغيير فى لغة التعبير يحدث فى الفنون غير اللغوية بشكل أوضح مثل الموسيقى والفنون التشكيلية.

٨ - تصفية الجيل القديم: ويلاحظ أن مشكلة عجز الجيل القديم عن فهم الجيل الجديد لا تعود إلى مشاكل فردية، بل إلى طبيعة الأجيال ذاتها، لكنه من ناحية أخرى لا يرى أن تغير الأجيال يقتضى بالضرورة صراعًا وتناقضًا، بل إنه كثيرًا ما يتم تجاوز هذا التناقض بشكل يجعل حركة الحياة تمضى بسلاسة وتوافق.

مفهوم الجيل يربط الحركة الشخصية للأفراد بالظروف الموضوعية للعصر، كما تتمثل فى البيئة وعلاقات الحياة الواقعية والمواقف الاجتماعية والسياسية والثقافية المحددة



وقد خضعت هذه الشروط لمناقشات فكرية وفلسفية عميقة، أبرزها ما قدمه الفيلسوف الأسبانى الكبير «أورتيجا اى جازيت» الذى نمّى فكرة الأجيال فى سياق تحليله لمراحل التحولات الحضارية بإضاءة الشروط المعرفية والثقافية اللازمة لتشكيل الجيل بشكل ديناميكى قائلاً: «عندما يجد الفكر نفسه مضطرًا إلى اتخاذ مواقف عدائية تجاه الماضى القريب فإن جماعة المثقفين تنشق إلى طائفتين: إحداهما وهى الأغلبية الكبرى تصرّ على التمركز داخل الأيديولوجيا السائدة، والأخرى - وهى الأقلية - وعادة ما تتألف من أصحاب النزعات الطليعية ذات القلوب الجريئة والأرواح المتمردة والمتشوقة للمناطق غير المأهولة بعد. فإذا ما كان تحول الحساسية يحدث لفرد واحد فإن هذا لا ينجم عنه أى أثر تاريخى، لكن عندما يحدث هذا لكوكبة من الأفراد فإنهم سرعان ما يشكلون جسدًا اجتماعيًا جديدًا متماسكًا، لا يلبث أن يصنع أتباعه من بين الآخرين. فالجيل بالنسبة لأورتيجا لا يتكون من أفراد عظماء معزولين، وإنما من جسد اجتماعى يضم الكتلة التابعة له.

ومع أن أبناء الجيل يرثون بعض الخصائص من الأجيال السابقة عليهم فإنهم لابد أن يتميزوا عنهم بعناصر الاختلاف والثورة على الماضى. وليس من الضرورى - كما يرى الفيلسوف الألمانى - «أن يمثلوا كلا متجانسًا»؛ إذ كثيرًا ما نجد عوامل التناقض بينهم على أشدها دون أن ينقص هذا من واقع انتمائهم وتمثيلهم لجيل واحد.

وهنا يميز الفيلسوف الإسبانى بين مفهومين يمكن أن نترجمهما بالمعاصرة والتعاصر: الأول يتمثل فى أن يتعايش الناس فى الفترة الزمنية ذاتها، على أساس فكرة «هايدجر» فى أن الحياة زمن، زمن محدد يستهلك وينتهى. فالمعاصرون هم جميع الرجال والنساء والأطفال والشيوخ الذين يعيشون فى زمن واحد، لكن التعاصر يقتصر على من لهم ذات العمر ونفس الأفكار. لكن: ماذا يعنى أن يكون لهم ذات العمر؟ هل يشترط أن يكونوا قد ولدوا فى نفس اليوم والشهر والسنة؟ بالطبع لا. بل أن تكون لهم ذات الطريقة فى الحياة بالنسبة لمسيرة حياة الإنسان، طريقة الحياة الممتدة على مدار العمر، فالعمر - كما يقول - ليس تاريخًا، ولكنه منطقة من التواريخ، أو على حسب عبارته التصويرية الجميلة، سلة من التواريخ، والذين لهم نفس العمر حيويًا وتاريخيًا ليسوا فقط من ولدوا فى العام ذاته، بل من ولدوا داخل منطقة من التواريخ المتقاربة. أما مدة كل جيل فإن «أورتيجا» يسلم بفترة الأعوام الثلاثين مبدئيًا، وهى التى تسمح للإنسان بأن يقدم إضافته المهمة للواقع التاريخى، لكنه يقسم الحياة البشرية إلى ثلاث مراحل:-

- الأولى: مرحلة الطفولة والشباب الممتد إلى الثلاثين، وفيها يتم تعليمه واستعداده لمواجهة العالم.

- والثانية: فترة النضج التى يبتكر فيها حلولاً جديدة للمشكلات التى يواجهها ويشكل علاقات جديدة، وهى تدوم من الثلاثين إلى الستين.

- أما الثالثة: فهى الفترة الأخيرة من العمر الممتد من الستين حتى الموت وهى التى لا تتيح له التدخل الحاسم فى صناعة التاريخ.

انطلاقًا من هذا التصور الكلى للمراحل الإنسانية يرى «أورتيجا» أن الأجيال البشرية لا تتعاقب على التوالى، وإنما يطوى بعضها بعضًا، فالمراحل الدقيقة للإنسان فى الواقع خمس، كل منها خمسة عشر عامًا، وهى الطفولة والشباب والرجولة والسيطرة والشيخوخة، وفى كل لحظة تاريخية تتعايش عدة أجيال متعاصرة مدة كل منها ١٥ سنة، وكل جيل يتشكل من المتعاصرين: أى ممن ولدوا فى مسافة خمسة عشر عامًا، بالإضافة إلى أن كل جيل يتشكل فى هذه المدة ويمارس وظيفته فى مدة مشابهة؛ أى يستغرق ثلاثين عامًا فى نهاية الأمر. لكن: كيف يمكن لنا تحديد الجيل الأدبى؟ وكيف نحسب بدايته وسلّة التواريخ التى يشملها؟



يقترح «أورتيجا» الإجراء التالى: لابد أولاً أن نبحث داخل الفترة التاريخية التى نريد تحديد أجيالها عن لحظة واضحة يتجلى فيها «التطور الدائب والمستمر لبعض مبادئ الحياة التى برزت للمرة الأولى فى هذا التاريخ» فى هذه اللحظة يعيش جيل يستشعر للمرة الأولى بعض المبادئ الفكرية الجديدة ويعيشها بكل قوته، ويمكن أن نطلق على هذا الجيل تسمية «الجيل الحاسم». فإذا ما عرفنا موقع هذه اللحظة التاريخية الفاصلة بحثنا عن الشخصية التى تمثل الخواص الجوهرية لهذه الفترة، تلك الشخصية تصبح العلامة التى يمكن أن يسمى بها هذا الجيل. وحينئذ نقوم بتحديد التاريخ الذى بلغت فيه هذه الشخصية ثلاثين عامًا من عمرها، وهى المرحلة التى يبدأ فيها رجولته الناضجة لتصبح تاريخ الجيل الذى ينتمى إليه. ويكفى حينئذ أن نضيف أو ننقص عددًا من السنين، يبلغ خمسة عشر عامًا لكى نحصل على سلسلة الأجيال التالية. أما بالنسبة لأبناء «الجيل الحاسم» الذى أشرنا إليه فهو يتكون من كل من بلغوا ثلاثين عامًا، بسبعة أعوام أكثر أو أقل من تاريخ ميلاد الشخصية الرئيسية أو تاريخ إعلان الجيل.

ونخلص من ذلك إلى أن فكرة الجيل تعتبر مفهومًا إجرائيًا يسعف الباحثين فى تنظيم معلوماتهم التاريخية فى مجال الأدب والتقاط التيارات والموجات الرئيسية فيه. وتحليل العوامل التى تصنع قوة الدفع فى تخليق العلامات البارزة فيه، وقد أضاف «أورتيجا اى جازيت» للأفكار السابقة فكرة أخرى مهمة تتعلق بالبؤرة الوجدانية التى تنجح غالبًا فى بلورة الأجيال الأدبية حول «شعور الفقد والفاجعة» إثر الكوارث القومية، أو «إحساس التوثب والطموح» إزاء المشروعات الجماعية الكبرى فى عصور المد القومى، وكلاهما يستقطب الاهتمام ويساعد على تمركز التيارات الفكرية والثقافية.

خطاطة الأجيال العربية:

على ضوء هذه المفاهيم النظرية فإن بوسعنا أن نقترح توزيع موجات الأدب العربى فى القرن العشرين إلى أجيال رئيسية:-



عُقبة بن نافع
(الطبقة الرابعة)

ابن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن ظرب بن الحارث ابن فهر، وأمه من لخم، وأبوه نافع بن عبد قيس الذى كان مع هبار بن الأسود بن المطلب يوم نخس بزينب بنت رسول الله ﷺ .

لما وُلِّىَ معاوية بن أبى سفيان وجه عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهرى إلى إفريقية غازيًا فى عشرة آلاف من المسلمين، فافتتحها واختط قيروانها.

وقدم عقبة بن نافع على معاوية فقال: الله! إنى فتحت البلاد ودانت لى، وبنيت المنازل، وبنيت مسجد الجماعة، وسكنت الرجال، ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزلى! فاعتذر إليه معاوية وقال: قد عرفت مكان مسلمة من الإمام المظلوم رحمه الله، وتقديمه إياه على من سواه، ثم قيامه بعد ذلك بدمه، وبذل مهجة نفسه محتسبًا صابرًا مع من أطاعه من قومه ومواليه، وقد رددتك على عملك واليًا.

فلما انتهى عقبة بن نافع إلى تهودة القريبة من القيروان فى عهد يزيد بن معاوية عرض له كسيلة بن لمزم الأوروبى فى جمع كثير من البربر والروم، وكان قد بلغه افتراق الناس عن عقبة بن نافع وقلة من معه، وجمع لذلك جمعًا، فالتقوا، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل عقبة بن نافع شهيدًا رحمه الله، وقتل من كان معه، وقتل أبو المهاجر، وهو موثق فى الحديد، واشتعلت إفريقية حربًا. ثم سار كسيلة ومن معه حتى نزلوا قونية الموضع الذى كان عقبة بن نافع اختط - فأقام بها ومن معه، وقهر من قرب منه بأب قايش وما يليه، وجعل يبعث أصحابه فى كل وجه، إلى أن توفى يزيد بن معاوية، وكانت خلافته ثلاث سنين وثلاثة أشهر.




أولا: جيل طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣) الذى بلغ ثلاثين عامًا إبان الثورة المصرية عام ١٩١٩، ويضم فى تقديرنا كلا من الشخصيات المشاركة له فى مشروع النهضة الفكرية والجامعية والثقافية والإبداعية مثل أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٤٨)، وعبد الرحمن شكرى (١٨٨٦- ١٩٥٨)، وسلامة موسى (١٨٨٧ - ١٩٥٨)، ومحمد حسين هيكل (١٨٨٨- ١٩٥٦)، وعباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤)، وإبراهيم عبد القادر المازنى (١٨٨٩- ١٩٥٨)، وعبد الرحمن الرافعى (١٨٨٩- ١٩٦٦)، وزكى مبارك ١٨٩٣-١٩٥٣)، وأحمد حسن الزيات (١٨٩٥-١٩٦٨)، وتوفيق الحكيم (١٨٩٨-١٩٨٧).

وإذا طبقنا عليهم شروط الجيل وجدناها مضبوطة من الوجهة الزمنية، لكنها غير دقيقة بالنسبة للمعاهد العلمية التى تخرجوا فيها، وإن كانت الدائرة التى ينتهون إليها جميعًا هى «روح العصامية» وما كان يطلق عليه كارلايل «أفضل الجامعات وهى المكتبة». على أن وحدة العمل النهضوى كانت تجعلهم ينخرطون فى مشروعات مشتركة مثل «لجنة التأليف والترجمة والنشر» ومثل بعض المجلات التى تبنوها وتيارات التجديد التى قادوها فى الفكر والثقافة والتعليم والتنوير. والمواقف الإنسانية والحضارية. ولعل مشروع الإصلاح والتجديد بكل جوانبه أن يمثل الرسالة الأساسية لهذا الجيل الذى صنع لغة عربية حديثة وعقلاً عربيًا متطورًا وإبداعًا عربيًا مرموقًا فى أجناس جديدة مثل المقال والنقد والقص والترجمة الأدبية والتأويل التاريخى للعصور الماضية كى تصبح طاقة خلاقة فى توجيه المستقبل.

ثانيًا: جيل نجيب محفوظ، وهو الجيل الذى بلغ أوج نضجه خلال الحرب العالمية الثانية، وحمل على عاتقه مهمة تأسيس جنس الرواية العربية فى الدرجة الأولى، ويمكن أن يكون تاريخ الثورة المصرية ١٩١٩ والتى تصادف ميلاد واحد فقط من أبنائه هو إحسان عبد القدوس هو العام الذى يمثل نشاته وتدور حوله نشاة بقية الأفراد، حيث يمضون على النسق التالى فى ميلادهم ورحيل من رحل منهم، على أحمد باكثير (١٩١٠-١٩٦٩)، ونجيب محفوظ (١٩١١-.....)، ومحمد عبد الحليم عبد الله (١٩١٣-١٩٧٠)، ويوسف جوهر (١٩١٣-٢٠٠١)، وعبد الحميد جودة السحار (١٩١٤-١٩٧٤)، ويوسف السباعى (١٩١٧- ١٩٧٨)، وإحسان عبد القدوس (١٩١٩- ١٩٩٠)، وعبد الرحمن الشرقاوى (١٩٢٠- ١٩٨٧)، وفتحى غانم (١٩٢٣-١٩٩٨)، ويوسف الشارونى (١٩٢٤-.....)، وصوفى عبد الله (١٩٢٥-٢٠٠١)، وإدوار الخراط (١٩٢٦-.....)، ويوسف إدريس (١٩٢٧-١٩٩١)، وجاذبية صدقى وثروت أباظة اللذان ولدا فى العام ذاته. ورحلت الأولى عام ٢٠٠١ والثانى عام ٢٠٠٢.

وربما تكون السلة الزمنية التى تتركز فيها تواريخ ميلادهم أوسع قليلاً من المتعارف عليه، لكن تضافر مشروعهم الإبداع المشترك - على اختلاف توجهاتهم وأساليبهم - يجعل منهم كوكبة المبدعين الذين أثروا اللغة العربية بتجاربهم التقنية ووضعوها فى مصاف اللغات العالمية الحية، وإذا كنا نتخذ اسم نجيب محفوظ علامة عليهم، وهو ليس من أوسطهم، بل من أكبرهم فى العمر، فإن ذلك لأنه أصبح راية على إنجاز هذا الجيل على مستوى الوطن العربى وخارجه، ولأنه يمثل نموذجًا لمنظومة من القيم الليبرالية السياسية والاجتماعية التى تعد تطويرًا نوعيًا لمسعى الجيل السابق الذى اشتغل معظمه بالسياسة إلى جانب الأدب، أما جيل نجيب فقد كان مبدعًا فى الدرجة الأولى وفى جنس خاص هو الرواية.

ثالثًا: جيل الشعر الحر، وهو الجيل الذى ولد فى العشرينيات، وقام بأكبر ثورة تجديدية فى الشعر العربى المعاصر على وجه الخصوص، وشهد فى شبابه نكبة ضياع فلسطين، وعاصر موجات الثورة العربية، ابتداء بمصر وسوريا والعراق واليمن، ثم خاض ثورة التحرر والاستقلال والمد القومى، وأسهم فى صناعة خطابه، ثم امتد ببعض أفراده العمر حتى شهد فترات الانتكاس والهزيمة وخيبة الأمل القومى، ولعل أهم ممثليه - وهم جميعًا شعراء - أن تكون الأسماء التالية:-

نزار القبانى (١٩٢٣- ١٩٩٨)، وبدر شاكر السياب (١٩٢٦- ١٩٦٤)، وبلند الحيدرى (١٩٢٦- ١٩٩٦)، ونازك الملائكة (١٩٢٦-.....)، وعبد الوهاب البياتى (١٩٢٦- ١٩٩٩)، وفدوى طوقان (١٩٢٩-.....)، وصلاح عبد الصبور (١٩٣٠-١٩٨١)، وأدونيس (١٩٣٠-.....)، وأحمد عبد المعطى حجازى (١٩٣٥-.....).

وتتوفر فى المجموعة العراقية منه شروط الجيل بأدق مواصفاتها؛ إذ تخرجوا جميعًا فى دار المعلمين وشهدوا نفس التطورات الفكرية والثقافية مما جعلهم رأس الحربة فى المدرسة الجديدة وحاملى لوائها، بينما ينتمى الباقون إلى الشام بمفهومه الواسع ومصر، على أن هناك تجانسًا واضحًا بين أفراد هذا الجيل على اختلاف أساليبهم التعبيرية، فهم الذى يشكلون اليوم ما نطلق عليه «العصر الذهبى الثانى للشعر العربى» بعد العصر العباسى، وكان لديهم ما أطلق عليه صلاح عبد الصبور «شهوة إصلاح العالم» كما تميزوا برؤية كونية تحديثية وضعت الفكر الشعرى العربى للمرة الأولى فى تاريخه الحديث على مستوى العالمية، وقد تميزوا بتعاطفهم مع الجيل السابق عليهم، خاصة من الرومانسيين أمثال على محمود طه وغيره، وإن كانوا يبدءون تاريخًا جديدًا للشعرية العربية.

رابعًا: جيل الستينيات، ويمكن أن يضم عددًا ضخمًا من المبدعين فى مجالات الرواية والقصة والشعر والفكر النقدى معًا، ومعظمه ولد فى نهاية الثلاثينيات، وتفتح وعيه على الحياة إبان ثورة ١٩٥٢ وما أحدثته من تغييرات هيكلية فى بنية المجتمع المصرى



والعربى، وما أطلقته من مارد الحلم القومى بمشروع الوحدة العربية، ثم وصل ذروة إحساسه الفاجع فى لحظتين فاصلتين فى التاريخ العربى الحديث، إحداهما تفكك الجمهورية العربية المتحدة فى الانفصال السورى عن مصر، والثانى - وهو يمثل «التاريخ البؤرة» فى وعى الجيل المأساوى - وهو هزيمة ١٩٦٧.



ويمكن أن تتسع أيضًا سلة ميلاد هذا الجيل منذ أوائل الثلاثينيات حتى منتصف الأربعينيات على النحو الذى أسلفنا الحديث عنه فى التقديم النظرى، ويضم من الروائيين محمد أبو المعاطى أبو النجا وعبد الحكيم قاسم وإبراهيم أصلان وبهاء طاهر وخيرى شلبى ومحمد جبريل ومحمد مستجاب ومجيد طوبيا وأحمد الشيخ حتى يصل إلى جمال الغيطانى ويوسف القعيد وغيرهم من كبار مبدعى اليوم ممن شارفوا أو ناهزوا الستين من العمر، وكذلك يمكن أن يضم من الشعراء أمل دنقل ومحمد إبراهيم أبو سنة وفاروق شوشة وفاروق جويدة وعفيفى مطر، ومن النقاد رجاء النقاش وجابر عصفور وفاروق عبد القادر وصبرى حافظ وعبد المنعم تليمة وكاتب هذه السطور.

وسنلاحظ أن هذا الجيل الرابع هو الوحيد الذى أطلق على نفسه تسمية الجيل، واختار لها العقد السادس عن عمد، مما أثار شهية الشباب الذين جاءوا بعدهم ليطلقوا تسميات مشابهة فى السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات، لكن مشروعه الإبداعى والفكرى لم يكد يصل لذروة عطائه حتى بدايات القرن الحادى والعشرين.

ملاحظات نقدية:

- يتعين علينا فى البداية أن نعترف بان هذه الخطاطة أولية ومنقوصة، تحتاج لكثير من الصقل والتعديل، فإن كان من حقها أن تركز على البيئة المصرية فى الجيلين الرائدين فإنها تصبح جزئية جدًا إن تجاهلت الإبداع العربى فى المراكز الجديدة فى النصف الثانى من القرن العشرين، وعلى سبيل المثال فإن جيل الستينيات من النقاد فى مصر مهما كان دوره الطليعى فإنه لا يستطيع تجاهل كوكبة ممتازة من النقاد العرب فى المغرب وتونس والشام والعراق والخليج العربى أعطوا للنقد المعاصر مذاقه المميز.

وكما رأينا فى الإبداع الشعرى للجيل الثالث اتساع منظوره ليشمل حركة الشعر العربى وإن لم يستوعب كل تفاصيلها فى الشام والمغرب فإن الإبداع الروائى العربى فى النصف الثانى من القرن العشرين كان يحتاج إلى خطاطة جديدة تكمل نواقصه وتسد فجواته.

- تراوح منظور التوزيع الجيلى المقترح بين الاعتماد على التيار الفكرى فى مجمله كما لوحظ لدى الجيل الأول والرابع أو التركيز على جنس أدبى بعينه كما حدث للجيلين الأوسطين، وأدى هذا إلى شىء من التداخل فى الترتيب الزمنى، بحيث لم يعد الفاصل بين كل جيلين ثلاثين عامًا كما يقضى بذلك النظام المقترح، وذلك بهدف ملاحقة المجموعات التى تصنع تيارًا إبداعيًا تنتظمه إلى حد ما بعض المؤشرات الأيديولوجية والإبداعية. لكن لو تذكرنا أننا نتحرك بطريقة مرنة تحاول الإمساك بمركز الثقل فى الواقع التاريخى للإبداع العربى فى موجاته المتلاحقة حينًا والمتجاورة نسبيًا حينًا آخر أمكننا أن نعدل المقياس النظرى حتى يتسع لاستيعاب هذه النتائج التجريبية.

- أجد من الأمانة أن أعترف بأن سبب اهتمامى بهذه المشكلة الآن طريف جدًا؛ لأنه لا يرتبط بالأدب العربى من قريب أو بعيد، فقد دعانى المركز الثقافى الإسبانى فى عمان كى ألقى محاضرة فى الجامعة الأردنية بمناسبة الاحتفال بالعيد المئوى لجيل ١٨٩٨ من الأدباء الإسبان، فأخذت أتأمل مفاهيم الجيل، وأفيد مما كتبه النقاد هناك، خاصة من كتاب «برنال مونيوث» عن جيل ٩٨ الإسبانى وإحالته الذكية، وحينئذ انبثق لدى - عن طريق المقارنة والتوازى - هذا الإدراك لأهمية تنظيم تاريخنا القريب، إفادة من جميع المقولات الفلسفية والنقدية، مع اختبارها وتعديلها عند الضرورة، وبدا لى - وهذا موطن الطرافة - أن تيار البنيوية الذى شاركت فى صناعته قد أهمل هذا البعد التاريخى الخصب، وآن لنا الآن أن نستكمله بجهد علمى منظم.



- أما الملاحظة الأخيرة فى هذا الصدد فهى الاعتراف بالنقص الشديد فى الثقافة العربية المعاصرة فى مجال البحوث البيوجرافية والببليوجرافية، فليس لدينا حتى الآن معجم منظم لأعلام العصر الحديث فى أى مجال من الفكر أو الأدب أو الإبداع أوالعلم، ولكى نحصل على تاريخ ميلاد أحد الأعلام أو وفاته لابد أن نبذل جهدًا خارقًا دون أن نكون متأكدين فى نهاية الأمر من صحة النتائج بشكل حاسم، ولعل مشروع معجم البابطين الشعرى عندما يكتمل أن يسد فراغًا فى هذا الصدد، وإن كانت بقية الفروع المعرفية والإبداعية ستظل فى حاجة لمن يتبنى من المؤسسات أو الهيئات فكرة إصدار معاجم منظمة عنها. وأعتقد أن أفضل تحية نزجيها للقرن الحادى والعشرين فى مطلعه أن نكمل المشاريع التى لم تتم فى هذا الصدد؛ حتى نستطيع أن ننظم منهجيًا وعينا به، ونتجاوز معرفيًا وقوفنا عنده. ولعل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التى تبنت مشروع موسوعة الأعلام أن تكون الهيئة القومية القادرة على إنجاز هذا المشروع المعرفى الضرورى للثقافة العربية. ■





الحسين بن على رضي الله عنه
(الطبقة الخامسة)

ابن على بن أبى طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَىّ ويُكنى أبا عبدالله، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأمها خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعُزَّى ابن قصَىّ.

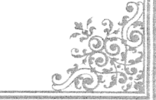
ولد الحسين: عليّا الأكبر، قُتل مع أبيه، وأمه آمنة بنت أبى مرة بن عُروة.

وعليّا الأصغر، له العقب من ولد الحسين، وأمه أم ولد، وأخوه لأمه عبدالله بن زبيد مولى الحسين بن على، وهم ينزلون بينبع، وجعفراً لا بقية له، أمه السلافة امرأة من بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة.

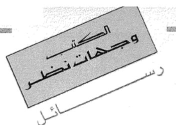
وفاطمة، وأمها أم إسحاق بنت طلحة. وعبدالله، قُتل مع أبيه. وسكينة، وأمها الرباب بنت امرئ القيس بن عدى بن أوس.

قال: أخبرنا مالك بن إسماعيل، عن شريك، عن سماك، عن قابوس، عن أم الفضل، قالت: لمّا ولد الحسين بن على قلت: يا رسول الله أعطنيه أو ادفعه إلىّ، فلأكفله وأرضعه بلبن قثم، ففعل، فأتيته به، فوضعه على صدره، فبال عليه فأصاب إزاره، فقلت أعطنى إزارك أغسله فقال: إنما يصب على بول الغلام ويغسل بول الجارية.

قال: أخبرنا عبد الله بن نمير، عن ابن أبى ليلى، عن عيسى ابن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن أبيه قال: كنا جلوسًا عند النبى ﷺ إذ أتاه الحسن أوالحسين يحبو، فوضعه رسول الله ﷺ على صدره، فبينما هو يحدثنا إذ بال على صدره فقمنا لنأخذه، فقال رسول الله ﷺ ابنى ابنى، ثم دعا بماء فصبه على مباله.







ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

الشيوعيون المصريون وثورة يوليو وجهة نظر أخرى

قرأت بإمعان ما كتبه الصديق العزيز محمد سيد أحمد فى عدد أغسطس من «وجهات نظر». ومع احترامى الشديد للأستاذ محمد سيد أحمد ولكتاباته ولدوره، فإننى أختلف معه فيما كتبه حول الشيوعيين المصريين وثورة يوليو. وحرصت على أن أكتب ردى هذا لأنه يمثل وجهة نظر أخرى انطلاقا أيضا من معايشتى للأحداث التى عاشها الأستاذ محمد. وقد عاصرت هذه الأحداث قبل قيام الثورة وبعدها.

وقد أثار مقال الأستاذ محمد سيد أحمد نقاطا عديدة أختلف فيها ونقاطا أخرى أتفق عليها. وسأبدأ أولا بنقاط الخلاف والتساؤلات التى طرحها.

النقطة الأولى التى أختلف فيها قوله «كان عبد الناصر ضد الشيوعية. وكان الشيوعيون ضده». لا أتفق على أن عبد الناصر كان ضد الشيوعية إلا إذا استندنا فى ذلك إلى الكتاب الذى نشره عام ١٩٥٣ بعنوان (حقيقة الشيوعية) بالإضافة إلى الصدام الذى حدث بين سلطة يوليو والشيوعيين بعد إجراءات تمت بدءا من ١٩٥٣ بقرار إلغاء الأحزاب ومحاكمة خميس والبقرى واعتقال الشيوعيين فى الفترة من ٥٣-٥٥. وفى هذه الفترة وقف الشيوعيون بمختلف اتجاهاتهم ضد سلطة يوليو.

ولكن هذا لا يجعلنا ننسى أن قسما مهمًا من الشيوعيين وبالذات الذى كان يسمى «بالحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو) كان أول حركة سياسية أيدت الثورة وأصدرت منشورا بهذا المعنى فور قيامها. وأن عبد الناصر كان على صلة بقيادة (حدتو) قبل الثورة وأخطرها بموعد قيام الثورة (مذكرات أحمد حمروش فى الأهالى) وكانت مطبوعات الضباط الأحرار تطبع سرا على رونيو تابع لحدتو. وكان لحدتو تنظيم داخل الجيش. بعض أعضائه كانوا يتعاونون مع الضباط الأحرار، بل إن اثنين من هؤلاء الضباط كانوا أعضاء فى التنظيم القيادى للضباط الأحرار هما خالد محيى الدين ويوسف صديق وكان لهما دور بارز فى القيام بحركة الجيش.

وكنت وقت قيام الثورة فى المجر أعمل فى اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى ممثلا لشباب حدتو. وعندما قامت الحركة وعزل الملك اتصل بى مندوب مجلة الشباب المجرى وطلب منى تعليقا على الأحداث. فكتبت مقالا اعتبرت فيه حركة الجيش (كما كانت تسمى وقتها) امتدادا للحركة الوطنية المصرية ضد الاستعمار البريطانى وضد السراى. وقد كتبت هذا استنادا إلى المطبوعات التى كانت تصلنى من زملائى فى مصر بما فيها منشورات الضباط الأحرار والبيانات والمقالات التى كانت تنشر فى الصحافة الديمقراطية التى عادت للصدور مثل الملايين والميدان وغيرهما والتى كانت تساند الثورة مساندة كاملة.

ولم يحدث ذلك التأييد لأن جمال عبد الناصر كان عضوا فى حدتو وكان يسمى «موريس» كما يقول الأستاذ. فعبد الناصر لم يكن شيوعيا ولم يكن عضوا فى حدتو ولكنه كان على صلة بالشيوعيين فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى وكان يتعاون معهم. وكان موقف حدتو متميزا عن كل الأحزاب الشيوعية فى الخارج التى كانت تعتبر ما حدث انقلابا أمريكيا. وكنت ألتقى فى اتحاد الشباب الديمقراطى بممثلى الأحزاب الشيوعية الأخرى وكانوا يختلفون معى وتوتر الجو بيننا. ولم يكن يتفق معنا غير الحزب الشيوعى السودانى وبعض الكتاب فى الحزب الشيوعى البريطانى لفترة معينة.

وحدث تغيير فى هذا الموقف المعارض من حدتو بعد مؤتمر باندونج ثم صفقة الأسلحة «التشيكية». وقد بدأت الأحزاب الشيوعية تغير موقفها من المعارضة إلى التأييد وظهرت بعض الكتابات السوفيتية فى مجلة «نيوتيمز» وغيرها، أخذت تتصاعد بعد ذلك خصوصا بعد باندونج وصفقة الأسلحة ورفض حلف بغداد وغيره من المشاريع الاستعمارية. ويفسر ذلك أن الحركة الشيوعية فى مصر نشأت من خلال الحركة الوطنية، وأن الكثيرين الذين التحقوا بالتنظيمات الشيوعية من الطلبة وغيرهم من المثقفين والعمال ارتبطوا بها أساسا انطلاقا من الموقف ضد الاستعمار. ويتضح ذلك من توجهات عدد من الكتابات، ومنها الكتاب الذى صدر من شهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى بعنوان «أهدافنا الوطنية» الذى حددا فيه أن أهداف الشيوعيين هى التحرر من الاستعمار عسكريا وسياسيا واقتصاديا وأن الاشتراكية هى الهدف البعيد. ويدل على هذا التوجه أن التنظيم الشيوعى الأكبر والذى نشأ فى ١٩٤٧ نتيجة وحدة عدة تنظيمات كان اسمه «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى». ولم يتسمّ بالشيوعية، ومن أكبر المعارك التى خاضها هذا التنظيم سواء عشية نشأته أو بعدها هو النضال الوطنى مع الطلبة والعمال وتكوين «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» التى قادت التحركات الوطنية فى مصر عام ١٩٤٦ وبعدها. وقد كانت الصحف والمجلات العلنية التى نشرت أهداف الشيوعيين الوطنية والديمقراطية جرائد ومجلات مثل: «الجماهير» و«أم درمان» و«الطليعة» وغيرها.

هذا بالنسبة للشيوعيين أو الجزء الأكبر منهم سواء قبل الثورة أو بعدها. وكانت هناك فترة تصادم مع سلطة يوليو فى الفترة من ٥٣-٥٥ ثم تغير الوضع انطلاقا من مبادرات عبد الناصر المتتالية بعد صفقة الأسلحة والوقوف ضد الأحلاف والرد على رفض البنك الدولى تمويل السد العالى بضغط من أمريكا بتأميم قناة السويس والاعتراف بالصين الشعبية ونمو العلاقات الاقتصادية معها ومساندة الاتحاد السوفيتى لمصر وتوثيق العلاقات مع الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية والبلاد الاشتراكية ثم إجراءات ٦١ التى جرت فى وقت حدث فيه صدام فى ١٩٥٩ مع الشيوعيين المصريين والعرب والاعتقالات التى استمرت حتى ١٩٦٤ والإفراج عن الشيوعيين من السجن رغم الأحكام وهو ما يؤكد أن الصدام والاعتقال لم يكن موقفا ضد الشيوعية ولا موقفًا ضد الأهداف الوطنية والاجتماعية التى زادت التقارب بين عبد الناصر والشيوعيين. رغم أن هذا التقارب لم يؤد إلى أن يصبح عبد الناصر شيوعيا، خلافا لكثير من الادعاءات بذلك فى الصحافة الغربية. ولم تؤد فى البداية أن يحل الشيوعيون أحزابهم، الذى كان يقدم إليهم كشرط للتعاون. واتخذ الشيوعيون بعد الإفراج عنهم قرارا بحل تنظيماتهم والعمل فى تنظيم واحد تحت قيادة عبد الناصر. بعد أن دعا عبد الناصر إلى وحدة كل القوى الاشتراكية. وبدأ يضم الكثير من الشيوعيين فى التنظيم الطليعى الذى كان يسعى ليصبح حزبا اشتراكيا.

كل هذا يؤكد أن عبد الناصر لم يكن يعادى الشيوعية بل كان يعتبر الماركسية أحد الروافد التى تنطلق منها التجربة الاشتراكية فى مصر. وكان يتعاون تعاونا كبيرا مع البلاد الاشتراكية فى المجال العسكرى والاقتصادى ويرسل المبعوثين للدراسة هناك. وأنشأ المعهد الاشتراكى الذى استعان فيه ببعض الشيوعيين المصريين مثل د. إبراهيم سعد الدين والدكتور محمد الخفيف وغيرهما. وصدرت مجلة الطليعة التى كان يصدرها الشيوعيون وغيرهم من القوى اليسارية من خلال الأهرام. عبد الناصر كان يرفض قيام تنظيم شيوعى أو غير شيوعى، فهو فى تلك الفترة كان يرفض قيام الأحزاب ويكتفى بقيام تنظيم واحد تحت قيادته كان يسمى فى البداية منظمة التحرير ثم الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى. وتغيير هذه المسميات كان يعبر عن التحول الذى يجرى فى فكر عبد الناصر.

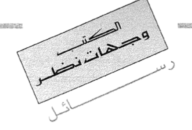
وكما أن الشيوعيين وصلوا إلى التوجه الاشتراكى من خلال ارتباطهم بالحركة الوطنية ونضالهم ضد الاستعمار. فقد توصل عبد الناصر أيضا إلى التوجه الاشتراكى من خلال نضاله ضد الاستعمار ونضاله من أجل التحرر السياسى والاقتصادى والاجتماعى. فقبل تاميمات ١٩٦١، حاول عبد الناصر أن تقوم الرأسمالية المصرية بالتنمية وصدرت فى فترة الثورة الأولى أفضل التشريعات التى تقدم التسهيلات للرأسمالية المصرية فلم تتجه إلى التنمية بل قصرت استثماراتها على المبانى والمكاسب السريعة، فاضطر إلى أن تتدخل الدولة لتقوم بالتنمية. ولم يبدأ عبد الناصر بمعاداة أمريكا بل أرسل على صبرى إلى أمريكا لشراء الأسلحة وحاول أن يقوم البنك الدولى بتمويل السد العالى. ففشل فى هذا كله إذ كانت أمريكا تربط ذلك بربط مصر بالتحالفات مثل حلف بغداد ومشروع ايزنهاور وغيرهما من التحالفات التى تمس استقلالنا الوطنى.

كان توجه عبد الناصر الاجتماعى انطلاقا من توجهه الوطنى. وفى هذا كان يتفق مع الشيوعيين رغم أنه لم يكن شيوعيا. ولكنه لم يتباعد عن الشيوعيين بل تقارب وتعاون معهم واستعان بهم فى الصحافة والإعلام وفى الاتحاد الاشتراكى. وتعاون بشكل وثيق مع الدول الاشتراكية (الشيوعية) واختلف معها أحيانا. وكانت علاقاته وثيقة بتيتو ويوغوسلافيا الذى كون معه ومع غيره من البلاد حركة عدم الانحياز. فتيتو لم ينضم إلى حلف وارسو رغم أنه لم يتخل عن الشيوعيه واختلف مع الاتحاد السوفيتى. كما اختلف الاتحاد السوفيتى بعد ذلك مع الصين بل وحدثت مناوشات على الحدود وحدثت صدامات بين الصين وفيتنام، ومع ذلك لم يقل أحد أن أيا من هذه الدول معاد للشيوعية. وقد حاول الاستعمار الأمريكى أن يستفيد من هذه التناقضات والخلافات وحاول توسيعها. إن حركة عدم الانحياز التى كانت حسب تسميتها ترفض الانحياز إلى أمريكا أو إلى الاتحاد السوفيتى كانت فى جوهر الأمر معادية للاستعمار ومتعاونة مع الاتحاد السوفيتى والبلاد الاشتراكية.

ولهذا فإن ما يذكره الأستاذ محمد سيد أحمد بأن عبد الناصر كان ضد الشيوعية وكان الشيوعيون ضده إنما هى نظرة جامدة إلى الأمور ولم ينظر إليها فى حركتها وتطورها.

والنقطة الثانية والمهمة التى أختلف فيها مع الأستاذ محمد سيد أحمد والتى كررها كثيرا فى كتاباته فى مناسبات عدة هى قضية دور اليهود فى الحركة الشيوعية المصرية فى نشأة التنظيمات الشيوعية فى الأربعينيات.

أبدأ بالقول بأن المنطلق الأساسى للفكر الصهيونى هو أن حل المشكلة اليهودية هو فى تكوين جيتو خاص لليهود أو دولة خاصة «يهودية» تبعد اليهود عن الاضطهاد الذى واجهوه فى عهد النازية وغيرها. ودعوة جميع يهود



العالم إلى الهجرة إلى هذه الدولة وقد اختاروا فلسطين لكي تكون أرضا لها. وهم بهذا المعنى يعتبرون كل يهودى فى العالم إسرائيليًا، عليه أن يهاجر إلى إسرائيل أو يساعدها باعتبارها أرضه ووطنه. وبهذا يصبح اليهود فى كل بلد أصحاب ولاء مزدوج وجنسيتين.

والفكر الماركسى يرفض الصهيونية ويعتبرها فكرا عنصريا ويدعو اليهود إلى أن يعيشوا فى أوطانهم ويندمجوا مع شعوبهم. فلا يجب تقسيم الشعب على أساس الدين أو الجنس، وتدعو جميع أبناء الشعب إلى النضال من أجل التقدم ورخاء البشرية.

ولهذا فإن الدعوة التى تعتبر أن الصراع العربى الإسرائيلى هو صراع بين العرب واليهود تتعارض مع الفكر الماركسى الذى يعارض ذلك ويدعو لوحدة كل عناصر الأمة. وقد تأكد ذلك المفهوم فى ثورة ١٩١٩ حيث دعت إلى الوحدة بين الهلال والصليب ووجد يهود بين صفوف الحركة الوطنية.

وقد أشار محمد سيد أحمد بحق إلى أن الشيوعيين اليهود فى الحركة الشيوعية المصرية وقفوا ضد الصهيونية وقدم مثلا شحاتة هارون الذى وقف ضد العدوان الإسرائيلى واعتبر نفسه مواطنًا مصريا مثل باقى المواطنين، رغم أنه لم يتخل عن ديانته اليهودية. ورغم اعتقاله أكثر من مرة عند اعتقال اليهود رفض أن يترك مصر ويهاجر لأنه تمسك بمصريته.

لهذا فإن الدعوة لمحاربة اليهود أو التميز ضدهم يقوى الدعوة الصهيونية ويصب فى نهاية الأمر فى نفس المنطلق الذى تنطلق منه هذه الدعوة.

ولا أعتقد أن محمد سيد أحمد يختلف معى فى ذلك.

ولكنه مع ذلك يثير قضية أن معظم مؤسسى المنظمات الشيوعية فى مصر كانوا شخصيات يهودية. وقال أن هذه ظاهرة بحاجة إلى تفسير.

ويقول «إن بروز حركة شيوعية يقرر مصائرها يهود. الكثير منهم غير مصريين (بل متمصرون وحتى أجانب) لم يكن بوسعها بالبداهة، امتطاء المد الوطنى الصاعد بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها، واستثماره الاستثمار الأمثل».

الواقع يثبت غير ذلك فالذى حدث بعد الحرب العالمية وتصاعد الحركة الوطنية أن الدور الأبرز فى هذه الحركة كان للشيوعيين المصريين سواء أكانوا طلبة أو عمالا الذين كون ممثلوهم «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» المنتخبة انتخابا ديمقراطيا من تجمعات الطلبة وتجمعات العمال والتى حصل فيها الشيوعيون وحلفاؤهم على الغالبية والنفوذ بينما سقط ممثلو القوى الأخرى اليمينية. ومازالت أحداث عام ١٩٤٦ وما بعدها تؤكد الدور البارز للشيوعيين الذين كانت لهم بصماتهم وتاثيرهم على توجهات الحركة الوطنية المصرية حتى قيام ثورة يوليو التى تاثرت أيضا بتوجهات الشيوعيين والتى برزت فى برنامج الضباط الأحرار.

ويؤكد هذا القول أيضا ما ذكره محمد سيد أحمد وما حدث فى الواقع من أنه عندما اختلف عبد الناصر مع الشيوعيين فى أواخر الخمسينيات لم يتهم الشيوعيين بوجود قيادات يهودية عند نشاتهم أو بالصهيونية كما كانت تفعل الدعاية الرجعية قبل الثورة. وإنما اتهمهم بالعمالة للسوفييت. والحقيقة أن الاتهام بالصهيونية قبل الثورة أو بالعمالة للسوفييت كما ذكر محمد سيد أحمد ليس له أى علاقة بالحقيقة.

ولكن لماذا وجد الأجانب واليهود فى الحركة الشيوعية بكثرة وفى قيادتها فى الثلاثينيات والأربعينيات. إن دراسة تاريخ مصر فى هذه الفترة تشهد أن الامتيازات الأجنبية كانت سائدة فى مصر. وكان الأجانب يحاكمون أمام محاكم خاصة وكان لهم سجن خاص هو سجن الأجانب. وكانت القاهرة والإسكندرية تعجان بالأجانب من إيطاليين ويونانيين ويهود أجانب أو بلا جنسية أو مصريين وكانت ثقافتهم أجنبية تسهل لهم إقامة علاقات مع الخارج.

وهذا الطابع الأجنبى الغالب بدأ يتقلص شيئا فشيئا فى الأنشطة المختلفة فى ارتباط مع تطور الحركة الوطنية المصرية. فغالبية الأجانب كانوا من اليونانيين والأرمن والإيطاليين وكانوا يتعاطفون مع الحركة الوطنية فى مصر. وكذلك الوضع بالنسبة لجزء من اليهود وبالذات اليهود الشيوعيون.

ولم تكن التنظيمات الشيوعية المصرية تهدف إلى استمرار الطابع الغالب عليها لليهود والأجانب فى القيادة، فكان من أول أهداف «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» «التمصير». وقد تحقق ذلك فى ارتباط بتطور الحركة الوطنية المصرية بحيث إنه عندما حدثت الأزمة فى العلاقة بين عبد الناصر والشيوعيين لم يبق أحد من اليهود فى قيادة الحركة الشيوعية.

ننتقل الآن إلى عام ٤٨ وقرار التقسيم والحرب بين العرب وإسرائيل. عندما أعلنت الأحكام العرفية جرى اعتقال للشيوعيين سواء منهم المصريون أو اليهود. ولم يكن ذلك الاعتقال هو الذى أدى إلى تصاعد الدعوة «لتمصير» الحركة كما يذكر محمد سيد أحمد. بل إن هذه الدعوة كانت من الأهداف الأولى للحركة الشيوعية وبالذات «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» منذ أوائل نشاتها. وكان هذا الاتجاه واضحًا إذ إن الغالبية فى القيادة كانت للمصريين. أما المنظمة الأخرى التى اتحدت معها الحركة المصرية للتحرر الوطنى وهى منظمة شرارة (اسكرا) فهى التى كانت غالبية قيادتها من الأجانب وعندما اتحدت مع «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» وتكونت «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» لم يدخل القيادة إلا ثلاثة من اليهود ووجد قسم للأجانب كبير، قسم إلى فروع للأرمن واليونانيين والإيطاليين وغيرهم وهو ما كان يعكس الوضع فى ذلك الوقت.

أما بالنسبة للموقف من قرار التقسيم الذى صدر عام ١٩٤٧. فقد أيدته حدتو ولم يكن ذلك لأنها كانت تعتبره أفضل الحلول، بل لأنه كان الحل الممكن. وكان البديل هو الحرب التى قامت لأهداف بعيدة عن مصالح الشعب الفلسطينى أو الشعوب العربية. وإذا رجعنا إلى كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل «جيوش وعروش» فإنه يكشف لنا أن الملك عبد الله كان يهدف إلى منع قيام دولة فلسطينية. واتفق على ذلك مع الوكالة اليهودية والحكومة البريطانية. بل إن الجيوش العربية كان يقودها الجنرال جلوب القائد الإنجليزى. وقامت الحرب بتسهيلات كبيرة من الإنجليز الذين كانت قواتهم مرابطة فى العديد من البلاد العربية ويسيطرون على سياسة تلك الدول. وفى الوقت الذى كان فيه النضال الوطنى ضد الاستعمار البريطانى يتصاعد فى مصر بالذات. وكان إعلان الأحكام العرفية والاعتقالات التى شملت الشيوعيين تهدف أساسا إلى ضرب هذا النضال.

وكان الشيوعيون المصريون يعارضون هجرة اليهود إلى فلسطين ويدعون إلى توحيد كفاح العرب واليهود ضد الاستعمار. ويقاومون المحاولات التى كان يقوم بها الإخوان المسلمون وغيرهم من القوى اليمينية لتحويلها إلى حرب ضد اليهود.

وفى مؤتمر باندونج طالب عبد الناصر مع غيره فى المؤتمر بتطبيق قرار الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٤٧ وبذل محاولات عديدة لتأجيل النزاع مع إسرائيل ليتفرغ للتنمية الداخلية.

ويورد محمد حسنين هيكل فى كتابه «العروش والجيوش» الوقائع التى تكشف حقيقة حرب فلسطين وأنه ليس لها علاقة بتحرير فلسطين بل العكس هو الصحيح.

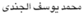
مثل هذه الحرب رفضها الشيوعيون وحذروا منها ودعوا إلى توجيه السلاح إلى المحتلين. وقد تبين الشعب وقواه الوطنية بما فيه ضباطه الأحرار صدق رؤية الشيوعيين ووطنية موقفهم .

يقول الأستاذ محمد سيد أحمد أن هذا الموقف من الشيوعيين هو الذى أدى إلى الانقسامات فى حدتو. وأقول إن هذا يخالف الواقع.

إذن لماذا حدثت انقسامات فى الحركة الشيوعية فى مصر أكثر من غيرها من البلاد العربية وغير العربية؟ السبب أن الأحزاب الأخرى كانت تخضع لمركز دولى حتى بعد إلغاء الكومنترن كان للحزب الشيوعى السوفيتى فعليا سلطة ولو أدبية على الأحزاب الأخرى (العربية بالذات) وأحزاب العالم الثالث، فكان لهذه الأحزاب مرجع يلجاون إليه، ولم يكن الوضع كذلك بالنسبة لمصر لأسباب ذكرها محمد سيد أحمد.

هناك قضايا كثيرة أخرى أثارها محمد سيد أحمد وتحتاج لسطور كثيرة للرد عليها مما لا يسمح لى به المجال هنا.

محمد يوسف الجندى



وساطة.. إنسانية

فى نهاية مقاله المستطرد عن ثورة يوليو بعنوان «عصر يتهاوى» بمجلتكم الغراء «وجهات نظر» العدد «٤٣» أغسطس ٢٠٠٢م.. أورد الأستاذ/ محمد حسنين هيكل ما نصه أن الرئيس أنور السادات قد سمح لأحمد فؤاد (ولى العهد الذى نودى به ملكًا تحت الوصاية بعد تنازل فاروق عن العرش) بالعودة إلى مصر بناء على وساطة من شاه إيران محمد رضا بهلوى، ومن ملك السعودية فيصل بن عبدالعزيز. وكان كلاهما يتوهم أن النظام الملكى يمكن أن يعود إلى مصر فى ظرف من الظروف بعد رحيل الرئيس السابق جمال عبدالناصر.

وإذا كانت الوساطة الكريمة من الملك فيصل بن عبدالعزيز لدى شقيقه الرئيس المصرى فى ذلك الوقت ـ السادات ـ بدافع إنسانى قد وجدت صدرًا طيبًا وكريمًا بالسماح لمصرى (أيًا كان تصنيفه وموقعه) بالعودة لبلده مصر الكبيرة ذات التاريخ والحضارة والعراقة، فإنه من غير الملائم أو المناسب النظر إلى هذه اللفتة الإنسانية من الملك فيصل فى ذلك الوقت واستجابة الرئيس المصرى لها على أنها «توهم» بعودة النظام الملكى إلى مصر.. والأوفق فهم هذه اللفتة الإنسانية فى ضوء ما يلى:

١ ـ إن منهج وثوابت الفكر السياسى السعودى تقوم منذ حكم موحد البلاد الملك عبدالعزيز آل سعود وحتى الآن على أسس راسخة من عدم التدخل فى شئون الدول الأخرى مما أكسب المملكة احترام المجتمع الدولى لها ومكانتها وثقة شعوب العالم فى حكم قادتها.

٢ ـ إن المنهج الصحيح لديننا الإسلامى يطالبنا ألا نفتش فى قلوب الناس لتفسير الوقائع والأحداث، والواقعة التى نحن بصددها لا تخرج عن شفاعة حسنة أفاضت بها إنسانية الملك فيصل ـ يرحمه الله ـ لدى شقيقه الرئيس السادات بتحقيق أمنية مصرى «كانت له حيثية» بالعودة إلى بلده مصر.. واستجاب الرئيس لتحقيق تلك الأمنية.

٣ـ إن الشقيقة مصر عندما فتحت أبوابها لمن لجأوا إليها من حكام سابقين لم يكن ذلك بدافع تغيير الحكم فى دول هؤلاء الذين لجأوا إليها ومنهم ملك ليبيا السابق إدريس السنوسى ووصولاً إلى شاه إيران محمد رضا بهلوى.

السفارة السعودية

اجتماع

قنبلة اسمها الزواج العرفى
خالد توحيد
القاهرة: مؤسسة الطوبجي، ٢٠٠٢

الأرقام الرسمية عن ظاهرة الزواج العرفى فى مصر أقل كثيرًا من الأرقام الحقيقية، بما يعنى أن هذه الظاهرة كارثة حقيقية أو قنبلة بحسب تعبير المؤلف الذى يفندها ويحلل أسبابها وينبه إلى مخاطر تجاهلها أو عدم منحها الاهتمام الذى تستحقه.

أدب

تحت أكثر من سماء
أمجد ناصر
أبو ظبى- المجمع الثقافى، ٢٠٠٢

طاف الشاعر أمجد ناصر فى أرجاء المعمورة وسجل مشاهداته وانطباعاته بلغة شاعرة وتسجيلية فى آن معًا، مشاهد من بيروت وصنعاء ودمشق والرباط وكندا وعشرات المدن والدول الأخرى.

قصة الأدب فى العالم
أحمد أمين- زكى نجيب محمود
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٢

إطلالة يقوم بها عالمان كبيران من رواد نهضة مصر الحديثة وأجنحتها التنويرية، حيث يقدمان رؤيتهما لقصة الأدب فى العالم وتطوره وعلاقة هذا التطور بما جرى فى أوطاننا.

أطفال

كتاب الهلال للأولاد والبنات
مجموعة من المحررين
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢

يخصص هذا العدد لموضوع الخيال العلمى، وهو موضوع شيق للصغار والكبار، ويحاول المحررون تبسيط المفهوم عبر قصتين، الأولى: «اشتباك إلكترونى» لفرج مكسيم، والثانية: الهروب الإلكترونى لياسمين عبد الفتاح، كما يقدم عددًا من أشهر أبطال أفلام الخيال العلمى وشخصياتها.

إعلام

تاريخ الإعلام فى الجزيرة العربية
عبد الرحمن الشبيلى
الرياض: المؤلف، ٢٠٠٢

تعد الصحافة السعودية حديثة العهد نسبيًا وبدأت بأم القرى، إلا أنها تطورت بسرعة كبيرة على مستوى الأداء والمضمون والتقنيات، والقارئ السعودى يحظى بتنوع حقيقى بين جرائد يومية تختلف فى معالجاتها وموضوعاتها، منها الرياض وعكاظ والمدينة والبلاد والندوة والوطن، والمؤلف يؤصل لتاريخ الإعلام فى جزيرة العرب والتطورات التى لحقته وطبعت مسيرته.

■■■

Into the Buzzsaw: Leading Journalists Expose the Myth of a Free Press
(منشار الرقابة: كبار الصحفيين يكشفون خرافة الصحافة الحرة فى الولايات المتحدة)
Gore Vidal, Kristina Borjesson (editors)
Prometheus Books, 2002, 275PP, $26.00

يكشف هذا الكتاب عن نظام الرقابة الشديد الذى يصطدم به الصحفى فى الولايات المتحدة عندما يتناول موضوعًا حساسًا تريد المؤسسات الكبرى سواء الحكومية أو التجارية أن يظل مستترًا.

اشترك فى الكتاب ١٨ مخبرًا صحفيًا وتليفزيونيًا يروى كل منهم قصته مع مؤسسته الصحفية التى حجبت موضوعه، والمؤسسة الكبرى التى كانت وراء منع النشر. تشمل المؤسسات التى جاء ذكرها فى هذه المقالات كلا من الـ«أسوشياتيد بريس»، والـ«سى.بى.اس نيوز» والـ«إف.بى.آى» وجريدة الـ«نيويورك تايمز» وغيرها.. أما القضايا التى تم حجبها فتشمل كارثة الرحلة ٨٠٠ طائرة الـ«تى.دبليو.آى» وكذلك قضية أصوات ناخبى ولاية فلوريدا فى الانتخابات الرئاسية الأخيرة، إلى جانب قضايا أخرى تمس جهازى الـ«سى.آى.إيه» والـ«إف.بى.آى»، وغيرها.

اقتصاد

السكان وقوة العمل فى مصر
الباحث الرئيسى: ماجد عثمان
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

تثير قضايا السكان جدلاً واسع النطاق فى مصر، فالبعض يعتبر النمو السكانى عائقًا أمام التنمية فيما يراه آخرون معززًا لفرصها، هذا الكتاب يلقى الضوء على السكان من حيث التركيبة والفئات العمرية والتعليم ونسبة الأمية ومستويات الدخول والبطالة وغيرها من المؤشرات ذات الصلة، ويستشرف واقع السكان وقوة العمل فى مصر حتى عام ٢٠٢٠، طارحًا بدائل للتعاطى مع هذه القضية المهمة.

■■■

المجتمع المدنى وسياسات الإفقار فى العالم العربى
تحرير: يسرى مصطفى
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

يسهم الكتاب فى إبراز الموقف الثقافى العربى من واحدة من القضايا المهمة الراهنة، وهى دور المجتمع المدنى فى تحقيق الديمقراطية والتنمية الشاملة، وحتى الآن فإن شكوكًا عديدة تحيط بدور منظمات المجتمع المدنى العربية وأغلبها عاجز لأسباب سياسية ومجتمعية مختلفة، فهل ثمة دور للمجتمع المدنى لمواجهة سياسات الإفقار فى العالم العربى فى المستقبل، أى من خلال عشرين سنة من الآن.

■■■

النفط والأموال العربية فى الخارج
عبد الخالق فاروق
القاهرة: دار المحروسة، ٢٠٠٢

نبه كثير من الاقتصاديين إلى خطورة تسرب أموال وعوائد النفط إلى الخارج بأكثر من صورة، فالشركات العاملة فى مجال التنقيب عن النفط فى البلدان العربية، تستعيد ما تنفقه ربما حتى قبل أن تسوق نصيبها من النفط العربى، المؤلف يعرض لتاريخ هجرة الأموال العربية إلى الخارج خصوصًا فى أعقاب حرب أكتوبر١٩٧٣، كما يعرض المؤلف لقضايا ذات صلة، مثل تناقضات دول الأوبك فيما يتصل بحصص الإنتاج والتأثيرات الدولية فى هذا الإطار.

■■■

Wages of Crime: Black Markets, Illegal Finance, and the Underworld Economy
(عوائد الجريمة: الأسواق السوداء، والتمويل غير القانونى، والاقتصاد والرى)
R.T. Naylor
Cornell University Press, 2002, 320PP., £ 29.95

المؤلف عالم اقتصاد كندى، يتناول النواحى المالية المتعلقة بالجماعات السياسية غير الرسمية، والمعاملات غير القانونية فى الأسلحة، وسرية البنوك وغسيل الأموال، والعالم التحتى لتجارة الذهب.

وهو يلفت النظر إلى أن الاستخدام الواسع للأموال «الخيرية» فى مساندة الحركات السياسية المختلفة ليس مقصورًا على العرب، حيث لا يمثلون سوى قلة فى هذا المجال. كذلك يحذر المؤلف من أن المحاولات الأخيرة فى سد التدفقات المالية كوسيلة من وسائل محاربة الإرهاب سوف يكون لها آثار مدمرة على الأنشطة التجارية القانونية، خاصة فى القطاعات غير الرسمية منها.

■■■

Happiness and Hardship: Opportunity and Insecurity in new Market Economies
(السعادة والشقاء: الفرص وعدم الأمان فى نظم اقتصاد السوق الجديدة)
Carol Graham and Stefano Pettinato
Brookings Inst. Pr, 2002, 174PP., $42.95

من خلال دراسات ماسحة لسبع عشرة دولة فى قارة أمريكا اللاتينية بالإضافة إلى روسيا، ثم مقارنتها بنتائج أبحاث مماثلة فى الولايات المتحدة وأوروبا، قام المؤلفان بتقديم إطار مفهومى جديد لعلاقة الاقتصاد بالإحساس الذاتى بالسعادة.

من ضمن ما توصلت إليه الدراسة، أن الإحساس بالسعادة يرتبط بالدخل الأعلى داخل الدولة الواحدة وليس عبر الدول، أى أن إحساس الفرد بوضعه النسبى فى المجتمع الذى يعيش فيه أهم لديه من الحجم المطلق لدخله. كذلك بينت الدراسة أن الطبقات الوسطى والوسطى المتدنية هم الأكثر شقاءً، فى حين أن الطبقات الأفقر على الإطلاق أكثر رضاءً منهم.

تاريخ

مصر فى القرن العشرين
إعداد: رءوف عباس- محمد صابر عرب
القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٢

مجلد فى جزءين يتناول الأول منه تاريخ مصر منذ الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ وإعلان الحماية على مصر، وتدخل الإنجليز لعزل الخديو عباس حلمى، وتنصيب السلطان حسين كامل، وما أعقب الحرب من سياسات قوضت إمكانات مصر ووضعتها تحت السيادة الكاملة لسلطة الاحتلال، وما تلا ذلك من قيام ثورة ١٩١٩ والنضال البطولى للشعب المصرى من أجل الاستقلال والدستور، ويعنى المجلد الثانى بثورة يوليو ومعاركها وما بقى منها لليوم.

■■■

Ornament of the World: How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain
(مفخرة العالم: كيف أقام المسلمون واليهود والمسيحيون ثقافة التسامح فى أسبانيا العصور الوسطى)
Maria Rosa Menocal
Foreword by Howard Bloom
Little, Brown & Co, 2002, 315PP., $26.95

تروى أستاذة الإنسانيات فى جامعة يايل، التاريخ المشرق لحضارة الأندلس، حيث شارك كل من المسلمين واليهود والمسيحيين فى ازدهار الآداب والعلوم والفنون وسط مناخ ساده التسامح الدينى والانفتاح الثقافى. وهى تقدم منجزات هذه الحضارة الفريدة التى قدمت الكثير إلى أوروبا والعالم أجمع.

■■■

Heaven on Earth: The Rise and Fall of Socialism
(فردوس على الأرض: صعود وسقوط الاشتراكية)
Joshua Muravchik
Encounter Books, 2002, 400PP., $27.95

«تعد الاشتراكية أكثر محاولات الإنسان طموحًا فى إحلال الدين بمذهب يدعى العلمية والعقلانية». هكذا يكتب المؤلف المنتمى للتيار الأمريكى المحافظ، وهو يتناول تاريخ الحركة الاشتراكية منذ أن ولدت فى الثورة الفرنسية وطوال مائتى عام حتى سقوطها فى التسعينيات من القرن العشرين. وقد اختار المؤلف أن يؤرخ للاشتراكية من خلال أهم قادتها من المفكرين والسياسيين الذين طوروا النظرية الاشتراكية، فيبدأ بالفرنسى بابوف، مرورًا بروبرت أوين، وفريدريك إنجيلز، وبينيتو موسولينى، وجوليوس نيريرى، ثم أخيرًا

قــــــراءات جـــــــديدة

جورباتشوف وزيايوبج وتونى بلير الذين اعتبرهم المؤلف «حانوتية» الاشتراكية الذين حملوها إلى مثواها الأخير.

تـــراث

التراث الكويتى فى لوحات

أيوب حسن الأيوب

الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ٢٠٠٢

مجلد أنيق يجمع عشرات اللوحات عن البيئة فى الكويت ومناظرها الطبيعية وأهم الحرف والصناعات، إنه سجل شامل للتراث الكويتى فى مناحٍ شتى.

تعــــليم

The Launching Years: Strategies for Parenting from Senior to College life

(سنوات الانطلاق: استراتيجيات الرعاية الأسرية من مرحلة الثانوية إلى المرحلة الجامعية)

Laura Kastner, Jennifer Wuatt

Three Rivers Press, 2002, 272PP., $13.00

الكتاب موجه للأبوين من أجل التعامل الأمثل مع أبنائهم فى المرحلة الانتقالية من التعليم الثانوى إلى بداية مرحلة التعليم الجامعى. تنصح المؤلفتان الآباء، وإحداهما أستاذ الطب النفسى والعلوم السلوكية بجامعة واشنطون، أن يعتبروا قرار اختيار الكلية قرارًا يمس هوية أولادهم وليس هويتهم هم. كما تقترحان وسائل التعامل مع ازدياد استقلال الأبناء فى هذه المرحلة، وكيفية الموازنة بين الحرية والمساندة التى تقدمها الأسرة لأبنائها.

■■■

Children as Pawns: The Politics of Educationd Reform

(الأطفال كأمانة: سياسات الإصلاح التعليمى)

Timothy A. Hacsi

Harvard University Press, 2002, 288PP., $ 39.45

يتساءل المؤلف عن كيفية تحسين المدارس، ثم يقترح أن تكون جهود الإصلاح متجذرة فى الدراسات والأبحاث الواقعية الجادة. ولكنه يعود ويحذر من الضغوط السياسية التى يمارسها أصحاب المصالح السياسية فى التلاعب بنتائج هذه الدراسات والتأثير على الرأى العام فى مدى صلاحية أو كفاءة أحد برامج الإصلاح.

يركز الكتاب على أربع قضايا تعليمية أساسية، أولاً مدى جودة فكرة التعليم ثنائى اللغة، وما إذا كان حجم الفصل له أهمية، ثم مشكلة الصعود الاجتماعى، وأخيرًا ما إذا كانت الأموال الأكثر تصنع مدارس أفضل.

روايات وقصص

ليالى الزعبلاوى

إيهاب سلام

القاهرة: دار الأيام، ٢٠٠٢

من خلف قضبان سجن أبو زعبل يطل علينا الزعبلاوى بطل هذه الرواية والراوى الرئيسى لأحداثها، ومن خلال السرد نتعرف على شخصيات عديدة محاصرة خلف القضبان لأسباب مختلفة ووراء كل منها حكاية تبعث على الشجن والتأسى، إنه عالم كامل لا نعرف عنه الكثير.

■■■

Nanny Diaries

(مذكرات مربية)

Emma Mclaughlin and Nicola Kraus

ST. Martins Press, 2002, 352PP., $ 24.95

تتصدر هذه الرواية قوائم الكتب الأكثر مبيعًا فى الولايات المتحدة منذ أن صدرت فى فبراير من العام الحالى، ونظرًا للنجاح والشعبية التى حققتها اشترت شركة «ميراماكس» حقوق إنتاجها فى فيلم سينمائى.

اشتركت مؤلفتان فى كتابة رواية «مذكرات مربية» حيث تمتلك كل منهما خبرة واقعية فى مهنة المربية لأسباب تتعلق بنفقات الدراسة الجامعية فى نيويورك وما إلى ذلك. وقد تميزت الرواية بالدخول فى العالم الواقعى للأسر الثرية التى تسكن ضاحية مانهاتن الشهيرة فى مدينة نيويورك، من خلال النساء اللاتى يعرفن أسرار الحياة فى هذه البيوت.

سـيـاســة

الافتراء على ثورة يوليو

عبد الله إمام

القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٢

مازالت ثورة يوليو١٩٥٢، بعد مرور أكثر من نصف قرن على قيامها حدثًا إشكاليًا يستدعى الجدل والخلاف، وكثير من أحداثها لم يتم حسمه برغم الكتابات الكثيرة التى تناولت الثورة ورجالها وتداعياتها، المؤلف الذى شغل لفترة رئيس تحرير جريدة الحزب العربى الناصرى يدحض ما يرى أنه افتراءات على ثورة يوليو، ومنها انحرافات المخابرات ومسئولية عبد الناصر عن نكسة يونيو، وقضية مقتل المشير عامر أو انتحاره.

■■■

القومية العربية ـ الأمة والدولة فى الوطن العربى

يوسف الشويرى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢

يسلط هذا الكتاب الضوء على جهد سياسى وكفاحى سعى منذ القرن التاسع عشر لإعادة هيكلة الوطن العربى أو توحيده بوسائل عدة وفقًا لطرائق مختلفة، وهذا الجهد يطرح المسألة القومية العربية باعتبارها حركة طمحت إلى معالجة حالة جديدة أصبح فيها الوطن العربى كله هدف اختراق استعمارى أوروبى، وتتناول الدراسة القومية العربية عبر ثلاث مراحل مستقلة: المرحلة الثقافية والمرحلة السياسية والمرحلة الاجتماعية.

■■■

المخابرات الأمريكية وأحداث ١١ سبتمبر

محمود محمد خلف

القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٢

يضم جهاز المخابرات الأمريكى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ووكالة مخابرات الدفاع ووكالة الأمن القومى وفروعًا أخرى عديدة تخرج عن هذه الثلاثية الأساسية، ومع ذلك جرى ما جرى فى سبتمبر، وهو ما وضع المخابرات الأمريكية فى موقف بالغ الحرج، ما هى علاقة المخابرات الأمريكية بما جرى فى ١١ سبتمبر، وهل كانت على علم وتقاعست عن أداء دورها، أم أن ثمة فسادًا فى أروقتها يحول دون تحقيقها لأهدافها.

■■■

تأميم شركة قناة السويس

(دراسة فى عملية اتخاذ القرار)

محمد السيد سليم

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٢

يلقى الكتاب من خلال الدراسة المقارنة للوثائق أضواء جديدة على الأسئلة المتعلقة بكيف ومتى عرف عبد الناصر بسحب عرض تمويل مشروع السد العالى، ومن الذى كتب مشروع قانون التأميم، وما هى البدائل التى عرضت على عبد الناصر قبل اتخاذه لقرار التأميم، وهل كان على عبد الناصر أن ينتظر حتى يتسلم شركة قناة السويس مع انتهاء عقد امتيازها سنة ١٩٦٨؟

■■■

جـرائم الحـرب فى فلسطين والبوسنة والهرسك

حسام على الشيخة

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٢

إن وقائع الجرائم الدولية التى يمارسها جيش الاحتلال الإسرائيلى إزاء الشعب الفلسطينى تطرح قضايا عديدة، ودفوعًا قانونية مهمة، ومن هنا تبدو أهمية تأصيل الثقافة السياسية والمعرفة الأكاديمية بدراسة جرائم الحرب فى إطار قواعد المسئولية الدولية وتطبيقها كما جرى فى البوسنة والهرسك ورواندا وفلسطين، ومن هنا تأتى أهمية هذا الكتاب.

■■■

حكم العسكر فى مصر المحروسة

عطية الصيرفى

القاهرة: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٢

يتابع المؤلف ـ وهو عامل ويسارى قديم ـ حكم العسكر فى مصر منذ الفراعنة وحتى اليوم، ويحلل طبائع حكم العسكر وما يمكن أن يجلبه من مآزق وأزمات وتأثيره على الحياة الاجتماعية والمعيشية للناس.

■■■

ناصريون وبعثيون

عبد العال الباقورى

القاهرة: دار الهدى، ٢٠٠٢

فى سبيل البحث عن أرضية مستقرة لنقاش عربى ـ عربى حول أحداث الأمس القريب يأتى هذا الكتاب الذى يضع العلاقة الملتبسة بين عبد الناصر والبعث فوق طاولة البحث والاستقصاء فى محاولة لاستخلاص منطلقاتها وبواعث تطورها التى ربما تسهم فى خلق واقع عربى مغاير.

■■■

أوراق مناضل إيطالى فى مصر

مارسيل شيريزى

القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٢

يضم الكتاب ذكريات إيطالى يهودى ولد وعاش فى مصر، واشتغل فى صفوف اليسار المصرى وتنظيماته، وقد كان همه برغم جنسيته الإيطالية أن يكسب نضال الأجانب واليهود الذين تواجدوا فى مصر بكثرة قبل الثورة إلى جانب نضال الشعب المصرى ضد الاستعمار البريطانى والصهيونية.

المؤلف الذى يقترب الآن من عامه التسعين طرد من مصر عام ١٩٥٣، ومازال يعيش فى إيطاليا عضوًا بالحزب الشيوعى الإيطالى ويعمل على تعبئة الإيطاليين لمساندة نضال الشعب الفلسطينى ضد العدوان الإسرائيلى.

■■■

The Hunt for the Engineer: The Fascinating True Story of How Israeli Agents Tracked and Killed the Hamas Master Bomber

(اصطياد المهندس: القصة الحقيقية لعملية رصد وقتل أكبر مدبر للتفجيرات فى حماس على يد العملاء الإسرائيليين)

Samuel. M. Katz

The Lyons Press, 2002, 320PP, $14.95

يروى هذا الكتاب تفاصيل القصة المحيطة بعملية اغتيال يحيى عياش المعروف بـ«المهندس» والذى أصبح أكثر رجل مطلوب فى تاريخ الدولة الإسرائيلية. فمع تكرار نجاح العمليات التفجيرية التى دبرها منذ عام ١٩٩٤، أصدر رئيس الوزراء آنذاك إسحاق رابين أوامره بتعبئة كل الموارد لوقف هذا السيل من التفجيرات، فكانت النتيجة حسب ما يقول مؤلف الكتاب واحدة من أكبر عمليات المخابرات فى التاريخ، حيث امتدت تحرياتها ونشاطها فى أنحاء العالم، واشترك فيها كل من جهاز المخابرات البريطانى (MI-5) والقوات الملكية الأردنية الخاصة، والـ(FBI) الأمريكية، وقسم شرطة مدينة نيويورك، وبالطبع عهد لجهاز الشين بيت الإسرائيلى السرى مسئولية الإمساك بعياش الذى يصفه المؤلف بالعبقرية.

عمل المؤلف مستشارًا لمناحم بيجين، كما كان عضوًا فى أول برلمان إسرائيلى، وهو من نشطاء الحركة اليهودية القومية وله عمود صحفى فى كل من صحيفة معاريف وصحيفة جيروزالم بوست الإسرائيليتين.

■■■

Security in the Persian Gulf: Origins, Obstacles, and the Search for Consensus

(الأمن فى الخليج الفارسى: الجذور والعقبات والبحث عن الاتفاق الجماعى)

Lawrence G. Potter, Gary Sick (editors)

Palgrave, 2002, 284PP.,$ 22.95

قـــــراءات جـــــــديـدة

دراسة جماعية شارك فيها أساتذة وباحثون معظمهم من منطقة الخليج الفارسى (العربى) من أجل تناول قضية الأمن من منظور دول وشعوب الخليج المختلفة. تضم الدراسة وجهات نظر إيرانية فى كل من مجلس التعاون الخليجى والدور الإيرانى، كما تضم وجهات النظر الإيرانية والعربية فى قضية السيادة على جزر طنب وأبو موسى. وفى قسم آخر فصل يحلل مواقف الأجيال الجديدة فى كل من إيران والسعودية، وثان يتتبع تاريخ المنطقة بالنسبة لمركزها فى العلاقات الدولية منذ الإمبراطورية البرتغالية وحتى اليوم.

■■■

Civil and Uncivil Violence in Lebanon: A History of the Internationalization of Communal Conflict

(العنف الأهلى وغير الأهلى فى لبنان: تاريخ تدويل صراع طائفى)

Samir Khalaf

Columbia University Press, 2002, 368PP.,$ 32.50

فى هذا الكتاب، يقوم الدكتور سمير خلف، أستاذ علم الاجتماع بالجامعة الأمريكية فى بيروت، بتحليل تاريخ الصراعات الأهلية فى لبنان من خلال اكتشاف علاقة التفاعل بين العوامل الداخلية والضغوط الخارجية، وذلك بدلاً من التركيز على إحداهما دون الأخرى. وفى النهاية يقدم استراتيجيات يقترحها لإعادة خلق ثقافة سياسية ومدنية جديدة فى لبنان قادرة على احتواء التحولات الداخلية والتطورات الدولية.

"سير ومذكرات"

عبد الرحمن بدوى نجم فى سماء الفلسفة

تحرير: أحمد عبد الحليم

القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٢

يشارك فى هذا الكتاب نخبة من مثقفى ومفكرى مصر تخليدًا واحتفاءً بالراحل الذى كان واحدًا من كبار الفلاسفة المصريين وأساتذة الفلسفة الذين أسهموا بكتاباتهم فى إثراء الفكر الفلسفى العربى والإسلامى، والذى وصفه طه حسين بأنه أول فيلسوف عربى.

■■■

عبد القادر القط وذكريات عمر

عبد البديع عبد الله

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

يمثل الدكتور عبد القادر القط بإسهاماته النقدية المميزة علامة مهمة فى مسيرة النقد العربى، ومتابعة ما كتبه تكشف عن عطائه الكبير من ناحية، كما تكشف من ناحية ثانية عن الحركة الإبداعية فى تضاعيفها والتى عبر عنها طوال حياته. المؤلف وقد كان رفيقًا للدكتور القط يعرض لمختلف مواقفه من القضايا الفكرية والأدبية وآرائه النقدية فى الشعر الحر، وإسهاماته فى حركة الترجمة وفى الشعر ليس بوصفه ناقدًا وإنما كشاعر.

■■■

من سجلات الشرف (الجزء الثالث)

إبراهيم خليل إبراهيم

القاهرة: دار أمواج، ٢٠٠٢

فى هذا الجزء يتناول المؤلف سيرة ومسيرة عدد آخر من الأبطال العسكريين الذين قدموا أرواحهم فداء للوطن، بينهم الشهيد عبد المنعم رياض وإبراهيم الرفاعى ومحمد عبد المعطى ومحمد المصرى وغيرهم.

■■■

يوسف السباعى الأيام والليالى

علاء الدين وحيد

المنصورة: دار سنابل، ٢٠٠٢

يضم الكتاب حصاد جلسات مطولة جمعت المؤلف بالأديب المصرى الراحل الذى شغل مناصب صحفية ورسمية عدة، فضلاً عن كونه واحدًا من الروائيين الذين احتفت السينما بأعمالهم فقدمت أغلبها.

المؤلف يلقى أضواء على سيرة يوسف السباعى من واقع علاقة حميمة جمعتهما، وخصوصًا أن السباعى لم يترك سيرة كاملة لحياته.

■■■

Soros: The Life and Times of a Messianic Billionaire

(سوروس: زمن وحياة الملياردير المخلص)

Michael T. Kaufman

Knopf Alfred, 2002, 352PP, $ 27.50

سيرة حياة جورج سوروس المعتمدة من جانبه والتى كتبها بالتعاون معه صحفى جريدة النيويورك تايمز مايكل كلوفمان. يعد سوروس من أساطين رجال المال فى العالم مثله مثل روكفلر أو كارنيجى، ويعتبره البعض رجل دولة بلا دولة.

ولد جورج سوروس لأسرة يهودية فى المجر، واضطر لإخفاء هويته اليهودية لإنقاذ حياته فى الحرب العالمية الثانية. وعندما رحل إلى إنجلترا ومنها إلى وول ستريت فى الولايات المتحدة أصبح أعظم مدير مالى فى العالم. وفى أوائل الخمسينيات من عمره، وبعد أن كون ثروة مالية طائلة، تحول سوروس إلى المشروعات الخيرية من خلال مؤسسات «المجتمع المفتوح» التى أنشأها متأثرًا بأفكار الفيلسوف كارل بوبر وقد عجلت هذه المؤسسات التى تتركز فى أوروبا الشرقية بالفعل فى إسقاط الشيوعية والتحول فى طريق المؤسسات الديمقراطية.

■■■

Ultimate Biography: Inside the Lives of the World's 250 Most Influential People

(حياة أكثر ٢٥٠ شخصية مؤثرة فى العالم)

Editors of Dorling Kindersley (editor)

DK Publishing.Inc, 2002, 256PP.,$29.95

تناول البرنامج التليفزيونى التسجيلى «بيوغرافى» الذى تنتجه محطة أى آند إى سيرة حياة أكثر من ٩٠٠ شخصية على مدار خمسة عشر عامًا.

وفى هذا الكتاب تجميع لسير ٢٥٠ من هذه الشخصيات التى قدمها البرنامج، رأى المحررون أنهم الأكثر تأثيرًا فى العالم. تضم الشخصيات رؤساء دول، ونجوم الغناء الشعبى، وقيادات دينية، ورجال أعمال.. إلخ.

"سينما"

الشخصية العربية فى السينما العالمية - الجزء الثانى

أحمد رأفت بهجت

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢

قليلة إلى حد الندرة تلك الأعمال التى ظهرت فيها شخصية العربى المسلم إيجابية فى السينما العالمية، وبشكل عام فإن شخصية العربى بدت متخلفة وفظة وإرهابية، وهو تصور يبدو أنه سيسود خصوصًا فى أعقاب أحداث سبتمبر ٢٠٠١، المؤلف يتناول بالنقد والتحليل شخصية العربى فى عديد من الأفلام العالمية.

"علوم"

عالم جديد شجاع (عصر الجينوم وإعصاره)

رئيس التحرير: أحمد شوقى

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٢

تقدم هذه الكراسة العلمية ثقافة الجينوم وعصره فى إطار ثقافى واسع، فهى لا تتوقف طويلاً أمام التقنيات الصعبة والتفاصيل العلمية الدقيقة شديدة التخصص، وإنما تقدم الدلالات الثقافية والآفاق المستقبلية المتوقعة، وتطرح كيفية التعامل بمسئولية أخلاقية ووعى كامل مع هذه التطورات المتسارعة.

"فكر"

النهضة اليابانية المعاصرة

مسعود ضاهر

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢

يحاول المؤلف أن يجيب عن السؤال، لماذا نجح اليابانيون وفشل العرب؟ وفى إجابته يطرق المؤلف عدة مستويات نظرية وسياسية واقتصادية وثقافية، أى أنه يقدم إطلالة شاملة على النهضة اليابانية محاولاً تفسير أسرار نجاحها الفائق، عبر سبعة فصول وخاتمة تتناول الموروث الإيجابى لحركة التحديث اليابانية، واليابان فى ظل الوصاية الأمريكية المباشرة وعناصر الاستمرارية والتغيير فى تجربة التحديث اليابانية. والدروس المستفادة من التجربة اليابانية وغيرها من الموضوعات.

■■■

طقوس التخلف

عبد الرحمن فتحى

القاهرة: دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢

يتناول الكتاب بعض الموضوعات الأساسية فى حياة الإنسان، وبعض الأفكار والنظريات التى تبدو وكأنها بدهيات، فى محاولة للكشف عن زيفها واضطرابها وعجزها عن دعم الإنسان فى مسيرته، كما يحاول أن يتلمس الطرق المستقيمة للبحث عن الأصول والبدائل التى يمكنها مساندة الإنسان، بإعادة النظر فى كثير من النظريات والأيديولوجيات التى تسعى إلى تكريس القيم المادية، متجاهلة القيم الإنسانية ومتحدية القوانين الطبيعية، مما أوقع الإنسان فى مأزق وجعل الأخطار المتنوعة تحيط به من كل جانب.

■■■

كتابات الزمن الآخر

سمير غريب

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢

مجموعة من المقالات التى نشرها المؤلف فى الفترة من عام ١٩٨٨ وحتى اليوم، وتعكس موقفه من عديد من القضايا الفكرية والسياسية، والمؤلف كان لسنوات مديرًا لصندوق التنمية الثقافية ورئيسًا لمجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية ووكيلاً لوزارة الثقافة، وهو قبل ذلك وبعده صحافى معنى بالشأن الثقافى وبالنقد التشكيلى على وجه الخصوص.

■■■

نهاية الإنسان

فرانسيس فوكوياما

ترجمة: أحمد مستجير

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٢

بعد نهاية التاريخ، وهى مقولة فوكوياما التى أقامت الدنيا ولم تقعدها، هاهو يخرج علينا بمقولة أخرى عن نهاية الإنسان بسبب البيوتكنولوجى، القضايا التى يثيرها فوكوياما مهمة وتستحق المناقشة، لكنها أيضًا تثير التساؤل عن ماهية هذا الإنسان الذى يخشى عليه فوكوياما وهل لهذا الإنسان صلة بملايين البشر الذين يعيشون تحت خط الفقر ودون حد أدنى من الرعاية الصحية فى مجاهل أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية؟

"فكر دينى"

الاشتراك اللفظى فى القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق

محمد نور الدين المنجد

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

بحث موضوعى يدحض فيه المؤلف مقولات كثير من الباحثين الذين يزعمون أن اللفظ القرآنى الواحد يحمل أكثر من دلالة، ويعدون ذلك من دواعى الإعجاز، أما المؤلف فيقرر أن كل لفظ مستقل ومتفرد بذاته حتى لو أوهمنا الظاهر بغير ذلك، ولا بد من فارق مهما كان ضئيلاً يمنح اللفظ تميزه عن أشباهه، وهو ما يعده المؤلف -

عبر عديد من النماذج التي يقدمها - من دلائل الإعجاز.

■■■

التفسير الوجيز ومعجم معاني القرآن العزيز

وهبة الزحيلي

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

تفسير يقتصر على بيان الآية إجمالاً، وعلى سبب نزولها الصحيح إن وجد، متجنبًا الإسرائيليات وملتزمًا أدق كتب التفسير قديمًا وحديثًا، وما أحاط بها من مأثورات ومعقولات، ومدى انسجامها مع أصول البيان في اللغة العربية ومقاصد الشريعة، وقد ألحق بالكتاب قواعد علم التجويد بتفصيلاتها.

■■■

المدخل في تاريخ الأديان

سعيد المراد

القاهرة: دار عين، ٢٠٠٢

يعرف البشر ديانات سماوية ثلاث هي الإسلام والمسيحية واليهودية، وبداخل كل منها مذاهب وتيارات شتى، فضلاً عن معتقدات أخرى غير سماوية يدين بها ملايين البشر مثل الكونفوشيوسية والبوذية، المؤلف يعرض لتاريخ هذه الأديان ومواطن نشوئها وشيوعها.

■■■

انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء

نبيل لوقا بباوي

القاهرة: دار البباوي للنشر، ٢٠٠٢

عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، تصاعدت الحملة على الإسلام والمسلمين، وعادت من جديد نغمة انتشار الإسلام بحد السيف، المؤلف وهو قبطي مصري أرثوذكسي يرد على هذه الاتهامات ويؤكد أن الإسلام انتشر بالحسنى وبالنموذج الذي قدمه المسلمون في البلاد التي فتحوها، مستعينًا بعشرات المراجع في الفقه والتاريخ الإسلامي وعشرات الكتب التي كتبها مسيحيون، وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف يعد رسالة للدكتوراة في الشريعة الإسلامية بإشراف وزير الأوقاف المصري.

■■■

Wahhabism: A Critical Essay

(الوهابية: مقالة نقدية)

Hamid Algar

Islamic Publications International, 2002, 96PP., $ 12.95

يتناول حامد الجر، الباحث في الفقه الإسلامي والتاريخ الحديث للشرق الأوسط، التاريخ السياسي للحركة الوهابية ومبادئها الإسلامية.

يصف المؤلف محمد بن عبد الوهاب مؤسس الحركة بأنه من ذوي «الوزن الخفيف» من الناحية الفكرية، كما يرى أن المبادئ المغالية للوهابية تضعها خارج دائرة الأصولية السنية أو الأرثوذكسية السنية في المفهوم الغربي. أما الناحية التاريخية، فيصف المؤلف الصعود السياسي للوهابيين في السعودية بأنه كان عنيفًا ودمويًا، وهو يلقي اللوم على الولايات المتحدة والمملكة المتحدة في دعمها ومساندتها للوهابية لسنوات عديدة.

فنـــــون

عودة سعاد حسني

إيناس عامر

القاهرة: سلسلة ومضة، ٢٠٠٢

بانوراما كاملة عن حياة سعاد حسني في السينما والحياة، تقدمها المؤلفة عبر عدة بورتريهات رسمتها لشخصيات مختلفة عاشت في حياة سندريلا الشاشة الراحلة، وكان لها تأثير في فنها واختياراتها لأدوارها وحياتها إجمالاً، وعبر بورتريهات أخرى لسعاد حسني ذاتها ترسم لنا المؤلفة صورة لسعاد حسني الأخرى.

■■■

Labour and Architecture: Collected Essays on Architecture and Design

(العمل والعمارة: مقالات عن العمارة والتصميم)

Kenneth Frampton

Phaidon Press, 2002, 352PP, £ 40.95

مجموعة من المقالات المهمة لناقد معماري مخضرم كتبها على مدار خمسة وثلاثين عامًا. المقالات تركز على عمارة القرن العشرين، متناولة الحركات والأفكار التي سادت فيه، وأشهر الأعمال المعمارية وأصحابها من المصممين المعماريين. تنقسم المقالات إلى ثلاث مجموعات رئيسية هي النظرية والتاريخ والفن.

■■■

The New Paradigm in Architecture: The Language of Postmodernism

(المنظور الجديد في العمارة: لغة ما بعد الحداثة)

Charles Jencks

Yale University Press, 2002, 288PP, $35.00

ظهر هذا الكتاب لأول مرة في منتصف السبعينيات مع بداية حركة معمارية جديدة، فأصبح أول كتاب يبحث قضية ما بعد الحداثة. وقد تمت ترجمته إلى إحدى عشرة لغة، وأعيدت طباعته ست مرات. في هذه المرة قام المؤلف بإعادة كتابته من جديد، وأضاف إليه فصلين جديدين ليواكب أحدث ما تطور إليه فن العمارة خاصة مع زيادة الاعتماد على الكمبيوتر في التصميمات الحديثة.

قصـص

الليلة الأخيرة

شريفة الشملان

بيروت: دار الكنوز، ٢٠٠٢

مجموعة قصصية جديدة لكاتبة سعودية نشرت أعمالها في عديد من الدوريات والصحف السعودية والعربية، وتكتب بانتظام في جريدة الرياض السعودية.

والمجموعة هي الرابعة بعد: منتهى الهدوء ١٩٨٩، ومقاطع من حياة ١٩٩٣، وغدًا يأتي ١٩٩٧.

من عناوين المجموعة: كبار الزوار، حيوانات وإنسان، الثقب، الرحيل، أين الطريق، أين أنا، أحياء دقيقة.

مـــدن

زبدة الحلب من تاريخ حلب (الجزء الأول)

كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة

تحقيق: سهيل زكار

دمشق: دار الكتاب العربي

مدينة حلب من أعرق مدن بلاد الشام، وقد شغلت أعظم الأدوار في تاريخ هذه البلاد في الإسلام، ومنذ القرن الرابع للهجرة، غدت حلب مركزًا لإمارة امتدت حدودها جنوبًا حتى بلدة الرستق على نهر العاصي، ويعد هذا الكتاب واحدًا من المراجع المهمة في تاريخ حلب، ومحقق الكتاب يعمل في تاريخ المدينة منذ ثلاثين سنة، كما أن اختصاصه الأساسي هو التاريخ الإسلامي.

مســـرح

المسرح المصري (مجلدان)

تقديم: أسامة أبو طالب

القاهرة: المركز القومي للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية، ٢٠٠٢

يعرض المجلد الأول لأهم النصوص المسرحية في الموسم المسرحي ١٩١٩-١٩٢٠، ويعرض الثاني للموسم المسرحي ١٩٩٩-٢٠٠٠، ويكشفان عن مسيرة المسرح عبر ثمانين عامًا وأهم القضايا والإشكالات التي عالجتها النصوص المسرحية في الموسمين.

■■■

زوبة المصرية

محمد أبو العلا السلاموني

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

زوبة فتاة مصرية هامت حبًا بنابليون بونابرت، المؤلف ينسج من هذه العلاقة الباهتة خيوط مسرحيته التي تتشابك وتتلاقى في دوائر عدة، منها علاقة الحب بالحرب والسياسة، ودوائر القطيعة والتلاقي بين الشرق والغرب، حدوده ومخاطره.

منوعـــات

طيور الكويت

عبد الله الحداد - فوزية السديراوي

الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ٢٠٠٢

دراسة مستفيضة عن أهم وأشهر فصائل الطيور التي تعيش في الكويت، ومنها مستقر في بيئتها ومنها عابر، إلا أن المؤلف ضمنها جميعًا كتابه.

■■■

مكافحة التدخين بين النظرية والتطبيق

حسن البنا محمد عبد المعز

الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠٠٢

يوثق الكتاب تجربة علمية متميزة في المدينة المنورة التي اعتبرتها منظمة الصحة العالمية خالية من التدخين، وبيَّن المؤلف أن مسئولية مكافحة التدخين تقع على عاتق الجميع كل بحسب موقعه وبحسب دوره في الأسرة والمجتمع، كما يجيب عن أسئلة المدخنين واستفساراتهم، ويلقي الضوء على برامج المجتمعات النشيطة والراغبة في تحقيق نجاح في هذا المجال.

نقـــد

النقد ومستقبل الثقافة العربية

فريال حسن خليفة

القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٢

يهتم الكتاب بمستقبل الثقافة العربية متجاوزًا الماضي والحاضر عبر رؤية نقدية، باعتبار أن النقد هو الأداة التي تكشف تناقضات الوعي في الماضي والحاضر.

وينقد الكتاب إشكاليات النهضة والحداثة عند الطهطاوي ومخاطر الموقف النظري عند الأفغاني وثنائية زكي نجيب محمود في تذبذب الموقف الفلسفي، كما يتلاقى مع طه حسين وإسماعيل أدهم في الموقف النقدي.

■■■

فن كتابة القصة

فؤاد قنديل

القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٢

دراسة في هذا الفن الجميل وقواعد كتابته ورسم شخصياته، مع الاعتراف بالفضاءات المفتوحة التي تمنح المبدع حرية الحركة من حيث البناء اللغوي والدرامي دون الالتزام بالقواعد الصارمة من حيث الحبكة والعقدة ولحظة التنوير.. إلخ، لكنها تبقى قواعد إرشادية للراغبين في اقتحام هذا المجال من حقول الإبداع.

■■■

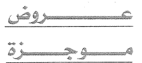
مصطلح نقد الشعر عند الإحيائيين

محمد مهدي الشريف

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢

يحتل علم المصطلح أهمية كبيرة، ومن شأن معرفة أي مصطلح من العلوم توحيد بساط البحث الذي يلتقي عليه العلماء، وتقضي بالتالي على الاضطراب الذي يمكن أن ينشأ عن سوء فهم المصطلح أو فهمه بأكثر من طريقة لدى النقاد.

المؤلف يتناول مصطلح نقد الشعر عند الإحيائيين، استنادًا إلى الخبرات التي وفرها الاهتمام بهذا المجال المعرفي الذي بدأ قبل نصف قرن تقريبًا.



كتب عربيـــة

تاكسي الكلام

صافي ناز كاظم

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢، ٢٤٦ صفحة



يضم هذا الكتاب في أقسام ستة، مقالات نشرتها الكاتبة في مناسبات ودوريات مختلفة خلال السنوات الأخيرة، وهو بجانب ما يضمه من أفكار ومواقف تتميز بالجدة والطرافة في آن معًا، يقدم إلينا وجوهًا ذات صلة بمسيرة المؤلفة الإبداعية التي بدأت منذ نصف قرن تقريبًا، حين كانت بعد في مرحلة الدراسة الثانوية، ويأتي كتابها هذا بعد اثني عشر كتابًا كان أولها رومانتيكيات ١٩٧٠.

تكتب مثلاً عن عشقها للقطط واقتنائها الدائم لواحدة منها أو أكثر، بعضها أحبها إلى درجة الانتحار حين اعتقلت في ١٩٧٣ و١٩٨١، ووجدت فيها أنسًا ورفقة قد لا نجدها بين البشر، وعلاجًا ناجعًا من أمراض الغضب والاكتئاب وعدم الثقة بالنفس.

تكتب عن علاقتها بابنتها الأديبة الصحافية «نوارة»، وعن أبيها الشاعر أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام عيسى أو الكيان الفني «إمام - نجم» كما تسميه، وتطالب بطرح تسجيلاتهما للجمهور، باعتبار أن هذه هي الوسيلة الوحيدة للتعريف «بهذا الصرح الفني الكبير»، بدلاً من الأصوات النشاز «الملوثة للنغم واللحن والكلمة والمعنى والقضية وتداعيات المراحل والأزمنة» التي تغني هذا التراث وتسيء إليه بحسب قول المؤلفة. وتكتب عن نجيب سرور الشاعر والمخرج والمؤلف والممثل والساخر «صاحب السخرية النائحة والباكية»، وتقول أنه مات بخنجر هزيمة ١٩٦٧ «بكل أبعادها ومضاعفاتها وإشعاعات نفاياتها المسمومة»، تكتب أيضًا عن نصير شمة وموسيقاه وقدراته الفذة على مداعبة عوده بتمكن وخيال بالغين.

وتنتقد مسلسل «أم كلثوم» خصوصًا الإساءة إلى شخصيات لحساب إعلاء شخصيات أخرى دون سند من واقع، وهكذا أسيء إلى أحمد شوقي وإلى مصطفى أمين وإلى منيرة المهدية وزكريا أحمد وآخرين، فضلاً عما ارتاته من خطايا في الملابس والديكور والسيناريو إجمالاً، وتعلن على الملأ متحدية الذوق العام كله أنها لا تحب عبدالحليم حافظ.

ومن المقالات البديعة في الكتاب مقالتان عن الأديبة الآنسة مي زيادة، وتكشف عن كثير من انعطافات حياتها وعلاقاتها التي أثرت إيجابيًا على مسيرتها الإبداعية شاعرة وقاصة وباحثة، فضلاً عن تدينها وغيرتها الوطنية التي جعلتها مهتمة بما يجري في وطنها العربي ورغبتها الجامحة في انتشاله من الانحطاط والتردي، تكتب أيضًا عن محمد محمود شعبان (بابا شارو) وعن عائشة صالح ونزار قباني ومنير كنعان وآخرين، و«تشاحن» منابر ثقافية وسياسية وشخصيات عامة، أما أجمل ما كتبت - برأيي - فمقال عن سيد مكاوي في بداية حياتها الصحفية (١٩٥٧)، رفضت مجلة الجيل نشره بحجة أنه «سيريالي» وهو في الحقيقة قطعة من الأدب الراقي.

□ □ □

صراع النفط العالمي ومستقبل نفط الخليج العربي

عيد بن مسعود الجهني

الرياض: مركز الخليج العربي للطاقة والدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٢، ٤٩٢ صفحة



ليس خافيًا أن النفط كسلعة صاحبة قوة ونفوذ وتأثير وتأثر كان أهم العوامل التي لعبت دورًا خطيرًا في صياغة السياسة العالمية خلال القرن العشرين، مما أكد بشكل لا نزاع فيه الارتباط الوثيق للنفط بالسياسة منذ أوائل قرن النفط المنصرم ومرورًا بالحربين العالميتين المدمرتين، ثم العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ وما تلاه من عدوان إسرائيلي صارخ على العرب عام ١٩٦٧ واستمرارًا بحرب رمضان المبارك / أكتوبر الشهيرة عام ١٩٧٣ عندما أصبح الصراع حول النفط معركة حقيقية حتى الألفية الثالثة.. حيث أصبح النفط يشكل ٧٥٪ من الصادرات العربية ويعتبر العمود الفقري لمعظم اقتصاداتها، وخلال هذا القرن برزت أزمة الطاقة بقوة على حافة جميع الصراعات الدولية في مناطق عديدة من العالم أدت إلى اهتزاز وقلقلة القواعد المستقرة في العالم بطريقة عميقة تحولت بقوة وسرعة في الشرق الأوسط لتصبح كل المعركة.

وقد استطاعت دول الخليج العربي بقيادة المملكة العربية السعودية عام ١٩٧٣ أن تستخدم النفط كسلاح في الصراع بين العرب وإسرائيل، لتبلغ أهمية البترول ذروتها وأن تضع العالم الغربي في مفترق الطرق وتجبرهم أن يعيدوا حساباتهم التي أسفرت عن نتائج مهمة.

وبقدر شجاعة وعبقرية استخدام هذا السلاح بقدر ما استنفر العالم الصناعي الذي تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية كرد فعل قوي أمام الإقحام الهائل لسلاح البترول الذي فاجأ مجتمعات الغرب والعالم بأسره.

وواجهت الدول الصناعية الكبرى التي أفاقت من غفوة طويلة، الأزمة بمنهج من الأمن والتعاون فيما بينها وأجبرتهم على ضرورة وحتمية التصدي للخطر النفطي الجسيم الذي واجههم لأول مرة في التاريخ محدثًا لها هزة رهيبة.

وشهدت حلبة الصراع العالمي معارك جديدة من نوع جديد، كان النفط هو القاسم المشترك فيها، وهو صراع استخدم لأول مرة أسلحة جديدة وأساليب مختلفة عن جميع الحروب السابقة - وقد ظهرت على ساحة الصراع قوتان، الأولى هي منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) التي حاولت أن تفرض إرادتها على سوق البترول الدولي لكن طموحاتها صدت، فهناك لاعبون آخرون يوجهون مع الأوبك دفة سوق النفط الدولية، ومن هنا وقفت في مواجهتها وكالة الطاقة الدولية (IEA) التي تساندها الدول الصناعية الكبرى المستهلكة للنفط التي تمتلك في جعبتها أدوات عديدة مؤثرة من التخطيط والتنسيق، يقف إلى جانبها شركات النفط العملاقة التي تحمل جنسية الدول الصناعية المستهلك الرئيسي للنفط.

وقد تنوعت أساليب وأسلحة كل طرف - فقد وجدت منظمة الأوبك أن التحكم في حجم الإنتاج وتحديد السعر هو الوسيلة والسلاح الناجع لضمان عدم هبوط السعر إلى مستوى متدن - بينما كانت وكالة الطاقة الدولية (IEA) ترد على ذلك بأساليب الترشيد في استهلاك النفط وفرض الضرائب الداخلية على استخدامه - إلى جانب نشاطها في البحث والتنقيب وإيجاد مصادر بديلة على نحو يضمن لها استمرار إمدادها بالنفط الرخيص.

لقد وضح بلا مواربة التأثير الكبير لمعطيات أسعار النفط على الأصعدة السياسية والاقتصادية ودخلت القاموس السياسي تعبيرات جديدة وموضوعات جديدة فلا تخلو الكتابات المتخصصة عن النفط من الكلام عن حرب الأسعار والتي كانت تتحكم فيها أطراف كثيرة ومن ضمنها الدول من كبار المنتجين وكبار المستهلكين إلى جانب شركات النفط الكبرى، والدول المنتجة خارج الأوبك، وقد أدى الصراع على الأسعار والإنتاج إلى حافة الهاوية على نحو أثر على الاستقرار في بقاع عديدة من العالم وأدى إلى العصيان المدني في بعض الدول الأوروبية.

وتعد الهزة النفطية الأولى في أكتوبر ١٩٧٣ القنبلة التي تفجرت لأول مرة لتعميق صراع النفط العالمي، وجاءت عوامل الاضطراب في إنتاج النفط الإيراني بسبب الثورة الإيرانية ثم الحرب العراقية - الإيرانية لتلعب دورًا بارزًا في التعجيل بحدوث هزة نفطية ثانية، فارتفعت الأسعار ارتفاعًا صارخًا خاصة في سوق التسليم الفوري (Spot Market) وواصلت أسعار العقود النفطية ارتفاعها لفترة ناهزت العشرة أشهر.. الأمر الذي جعل السعودية تنهج أسلوبًا مرنًا لجلب الاستقرار لسوق النفط الدولية التي اضطربت بشدة آنذاك فزادت إنتاجها النفطي للحيلولة دون حدوث هزة نفطية ثالثة.

□ □ □

السياحة ومستقبل مصر

محيا زيتون

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٤٩٠ صفحة



مثل كثير من الدول النامية، تجد مصر في السياحة مخرجًا مناسبًا للحصول على العملة الصعبة، يعوض إخفاقها الناجم عن المنافسة الشديدة في مجالات التصدير والتي لا تكون غالبًا في صالحها.

وقد حققت مصر بالفعل في خلال العقدين الأخيرين تطورًا ملحوظًا في مجال السياحة، وبادرت بتطوير مناطق سياحية جديدة على سواحل البحر الأحمر وجنوب سيناء، وقدمت الأراضي للمستثمرين في هذه المناطق بأسعار رمزية.

والمؤلفة تقسم كتابها الذي يأتي في إطار مشروع مصر ٢٠٢٠ والذي يتبناه منتدى العالم الثالث إلى جزءين، تدرس في الأول منه - في سبعة فصول - الوضع الراهن لقطاع السياحة من حيث الإيرادات والأهمية والأبعاد العالمية والأثر على البيئة والأبعاد الاجتماعية والثقافية للسياحة.

وتخصص الجزء الثاني - خمسة فصول - لسيناريوهات المستقبل وهي برأيها أربعة سيناريوهات هي: السيناريو المرجعي، وسيناريو الرأسمالية الجديدة، وسيناريو الدولة الإسلامية وسيناريو الاشتراكية الجديدة.

وتلاحظ الباحثة أن السياحة برغم أنها كانت مهمة خلال عقد الستينيات وحتى قبيل نكسة ١٩٦٧، إلا أنها لم تأخذ

عـــروض مـــوجـــزة

موقعها بوصفها قطاعًا رئيسيًا في الاقتصاد الوطني إلا في أعقاب سياسة الانفتاح الاقتصادي، وشهدت نموًا مطردًا في العقدين الأخيرين تحديدًا، ودلالة ذلك حصول قطاع السياحة على نصيب كبير من جملة الاستثمارات الوطنية وصل إلى أكثر من الضعف فيما بين عامي ١٩٨٧ و١٩٩٩ وعلى حساب قطاعي الصناعة والبترول، وبرغم أن معظم الاستثمارات السياحية تعد استثمارات محلية (٨٣٪)، فإن السياحة من القطاعات ذات القدرة العالية على جذب الاستثمار الأجنبي والعربي.

وتشير الدراسة إلى تضاعف عدد السائحين لمصر بنحو سبعة أضعاف في الفترة من ١٩٧٥ وحتى ٢٠٠٠، وزاد نصيب مصر من السياحة العالمية مع الأخذ في الاعتبار أحداث العنف والإرهاب التي أثرت على هذا القطاع في سنوات سابقة، وتشير أيضًا إلى زيادة أعداد السائحين الغربيين الذين يأتي معظمهم أو كلهم تقريبًا في شكل رحلات جماعية، وتوسعت من ناحية ثانية إمكانات «العرض» السياحي. فزادت الطاقة الفندقية بمعدل ١٠,٧٪ سنويًا خلال ربع القرن الأخير وظهرت الفنادق العائمة والقرى السياحية، وبلغ نمو الطاقة الفندقية للأولى ١٦,٤٪ سنويًا، والثانية نحو ٣٠٪ سنويًا، وزاد نصيب منطقة البحر الأحمر وجنوب سيناء من الطاقة الفندقية لتستوعب في عام ٢٠٠٠ نحو ٥٢٪ من إجمالي الطاقة الفندقية.

وتؤكد الدراسة على أهمية التدقيق في قياس الإيرادات السياحية وتحديد ما تسميه «تسربات النقد الأجنبي خارج القنوات الرسمية»، وتشير إلى المغالاة في تقدير الإيرادات السياحية الرسمية على نحو يجعلها أعلى من الإيرادات الفعلية للجهاز المصرفي. وترجح وجود قنوات غير مشروعة لتسرب الإيرادات السياحية خارج الاقتصاد الوطني، لكنها بشكل عام تشير إلى زيادة الإيرادات السياحية الرسمية بمعدل ٧,٦٪ سنويًا في الفترة من ١٩٨٢ وحتى ١٩٩٩، وتحتل السياحة المرتبة الثالثة بعد الصادرات وتحويلات المصريين من الخارج في موارد مصر من النقد الأجنبي، أما مساهمتها في الدخل الوطني فتبلغ ٢,٣٪، ومساهمتها في قوة العمل تبلغ ١,٧٪ ومن ثم تستنتج الباحثة أن السياحة لا يمكن التعويل عليها في تحقيق نمو اقتصادي مرتفع، أو في توفير فرص عمل على نطاق واسع يحل مشكلات البطالة، وتشير الدراسة إلى مسألة بالغة الأهمية تتعلق بالسياحة العكسية ودورها في تقويم أداء قطاع السياحة، وتشير إلى أن ما تم تحقيقه من إيرادات نتيجة للسياحة الوافدة، يخرج مثله وأكثر في شكل مدفوعات لسياحة المصريين في الخارج، وتشير - بالأرقام - إلى نقطة أكثر خطورة وهي أن نحو ثلاثة أرباع الإيرادات السياحية المقدرة رسميًا تتسرب خارج الاقتصاد الوطني.

ومن النتائج المهمة التي كشفتها الدراسة، وجود «هدر بيئي» خطير في بعض المناطق الساحلية بالبحر الأحمر، وهي مناطق ذات طبيعة هشة ونمو سياحي سريع.

وتتضمن المقارنة بين السيناريوهات البديلة نتائج بالغة الأهمية والطرافة في آن معًا، حيث تتفاوت أهمية الأشكال المختلفة للسياحة (ثقافية - ترفيهية - شاطئية) من سيناريو لآخر. كما تتفاوت مكانة السياحة ومعدلات الاستثمار وبالتالي معدلات الإشغال في الفنادق في كل منها، وسيبلغ عدد السائحين في عام ٢٠٢٠ وفقًا للسيناريو المرجعي ٢١ مليونًا يرتفع في سيناريو الرأسمالية الجديدة إلى ٢٣ مليونًا، لكنه ينخفض إلى ١٤ مليونًا في سيناريو الاشتراكية الجديدة، ويبلغ أدنى مستوى له في سيناريو الدولة الإسلامية حيث يبلغ عدد السيَّاح ٥ ملايين سائح.

□ □ □

حسين بيكار الفنان الشامل

صبحي الشاروني

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ١٦٠ صفحة



سياحة بصرية رائعة يمضيها قارئ هذا الكتاب، متتبعًا تاريخ الفنان الرائد حسين بيكار الذي عمل بتدريس فن التصوير في المدارس وفي كلية الفنون التي تخرَّج فيها عام ١٩٣٣، قبل أن يغادرها مستقيلاً من عمله كرئيس لقسم التصوير بها كي يعمل بصحافة أخبار اليوم.

ولد حسين أمين بيكار في ٢ يناير عام ١٩١٣ بحي الأنفوشي بالإسكندرية، وذاعت موهبته في الموسيقى وهو في الثامنة من عمره، وبدأت الأسر تطلبه لتعليم بناتها الموسيقى، وكانت دروس العزف من مظاهر تأهل الشابات للزواج في عشرينيات القرن الماضي في الأوساط الأرستقراطية، لكنه اختار طريقًا آخر، أهَّلته له موهبته الساطعة في مجال الرسم.

ينتمي بيكار إلى الجيل الثاني من الفنانين المصريين، وقد التحق بكلية الفنون الجميلة عام ١٩٢٨، وكانت وقتها تسمى مدرسة الفنون العليا وكان عمره آنذاك ١٥ عامًا، ودرس في البدايات على أيدي الأساتذة الأجانب حتى عام ١٩٣٠، ثم على يد يوسف كامل وأحمد صبري بعد عودتهما من رحلاتهما الدراسية في روما وباريس.

والذي يطالع لوحات الفنان بيكار لابد أن يتبادر إلى ذهنه سؤال منطقي: لماذا لم يظهر تأثير البحر في أعمال بيكار وهو ابن الإسكندرية كما هي حالة محمود سعيد أو سيف وأدهم وانلي، فيما بدا تأثير النوبة والصعيد والرسم الفرعوني أكثر؟!

بيكار نفسه لا يجد إجابة سوى أن تأثير الفن الفرعوني ومشاهداته في أعماق الصعيد التي قضى فيها زمنًا مدرسًا للفنون كانت أعمق من أي شيء آخر، ويمكننا أن نضيف إلى هذا أيضًا تأثير المغرب على لوحاته خصوصًا مدينة تطوان التي عاش فيها عدة سنوات، وفي هذه السنوات انتقل بيكار من الواقعية التي كانت مسيطرة على لوحاته تقريبًا إلى شيء من الفانتازيا.. «وما لبثت هذه الفانتازيات أن نضجت وأعطتني خبرة في أن أتصور شيئًا وأترجمه على الورق، أن أتخيل شيئًا وأرسمه دون الاستعانة بموديل».

وإلى جانب فن البورتريه والرسوم الطبيعية التي برع فيها بيكار بأسلوبه المميز «فرعوني الطابع» وألوانه المدهشة، وكذلك رسومه الصحافية التي قرَّبت فنه للناس وعرَّفته للجماهير، كان بيكار من أوائل من رسموا للأطفال، كما أنه من أوائل من عبَّروا بالقلم والريشة في الصحافة المصرية، سواء عبر رحلاته حول العالم، أو أشعاره التي كانت تنشر مصحوبة برسوماته التعبيرية.

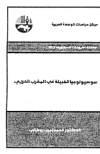
وسجلت ريشة بيكار عملية إنقاذ معبد أبي سمبل، ولوحاته في فيلم «العجيبة الثامنة» الذي يحكي قصة معبد رمسيس الثاني في أبي سمبل، وحصل بيكار على عشرات الجوائز محليًا وعربيًا وعالميًا، كانت آخرها جائزة مبارك عام ٢٠٠٠، وهي أكبر جوائز الدولة في مصر.

□ □ □

سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي

محمد نجيب بوطالب

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢، ١٨٦ صفحة



أصل الكتاب رسالة دكتوراة حصل الباحث بموجبها على الدرجة العلمية في الاجتماع من الجامعة التونسية عام ١٩٩٩، لذلك يخصص جزءًا لا يستهان به في تأصيل منهج بحثه ومناقشة الفروض النظرية الخاصة بالموضوع وإشكالات التركيب الاجتماعي القبلي ونقد النظريات التي تناولته، ثم يقدم تحليلاً لحضور القبيلة كبنية اجتماعية في التاريخ الاجتماعي والسياسي لأقطار المغرب العربي، ويرصد الآليات التي تحكمت في هذا البناء وحكمت علاقة الدولة بالمجتمع.

وحين يدرس المؤلف خصائص القبيلة المغاربية ساعيًا إلى اكتشاف الثابت والمتغير بين هذه الخصائص. وأولى هذه الخصائص هي المساواة الناجمة عن التقسيم البسيط للعمل والقاعدة الاجتماعية القائمة على التضامن، لكن المؤلف ينبهنا إلى عدم الاستسلام لهذا المفهوم المبسط للمساواة في القبيلة، ويشير إلى تفاوت في توزيع الثروة والسلطة، تخفيه العلاقات القائمة على روابط الدم، وتأتي الخصائص القومية، ويشير المؤلف إلى أن الروابط الروحية لا تشكل في حياة الجماعة غير جزء من نشاطها الموسمي، أما الإسلام كرابطة دينية فهو أوسع من الفضاء القبلي، إنها الرابطة التي جمعت مختلف القبائل في فضاء حضاري أشمل منعها من التفرق وحافظ عليها من التهميش، أما الخاصية الثالثة فهي الحرية، وهو الشعار الذي رفعته القبيلة في مواجهة كل أشكال التدخل في فضاءاتها، وما أفرز قيادات وطنية واجتماعية كان لها دور بارز في التاريخ السياسي، والخاصية الرابعة هي جاذبية الأصل الذي يدعي - حقيقة أو وهمًا - انتسابه إلى شجرة النسب الراجعة إلى الخلفاء الراشدين والرسول الكريم، بما يضفي مشروعية تاريخية على الجماعة القبلية، لكن المؤلف يشير إلى أن التاريخ الاجتماعي الحديث والمعاصر يؤكد أن الفاعلين الاجتماعيين في تاريخ المغرب العربي انحدروا أساسًا من سلالات قبائل الجنوب التونسي.

ثم هناك تداول السلطة وراثيًا في القبيلة وهي فكرة ضخَّمها باحثو الحقبة الاستعمارية منذ الاستشراق التقليدي في القرن الثامن عشر، لكن الباحث يؤكد أن ظاهرة احتكار بعض العائلات لسلطة الشيخ أو القائد ليست سوى ظاهرة حديثة فضلاً عن كونها غير دائمة، فضلاً عن أن الوثائق القبلية - كما يشير الباحث - تدل على أن السلطة المحلية كانت تخضع دومًا للمشاورة والانتخاب لدى غالبية القبائل. وأخيرًا فقد مثلت القبيلة عبر التاريخ الملجأ الحصين للفرد، ومثل التضامن القبلي وسيلة الدفاع الأساسية ضد كل أشكال القهر الخارجي.

ويقدم المؤلف نموذجًا تطبيقيًا على الحالة التونسية منذ القرن التاسع عشر، ويشير إلى أهم الفروع في «اتحاد ورغمة»، وهو اتحاد قبلي ذو أصول بربرية والصراع بين «ورغمة» وجيرانها، ثم إلى وضع القبيلة في إطار المجتمعات المدنية المعاصرة من حيث اندماجها في الدولة الوطنية وتضاؤل سلطة المشايخ وتوطين القبيلة والخطاب الرسمي في مواجهتها.

□ □ □

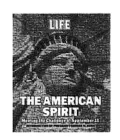
١١ سبتمبر
فى عيون أمريكية

The American Spirit: Meeting the Challenge of September 11

(الروح المعنوية الأمريكية: مواجهة تحدى ١١ سبتمبر)

George W. Bush (Introduction)

Time, Inc, Home Entertainment, 2002, 224 PP., 17.47



بعد حادث ١١ سبتمبر، بدأ عهد جديد فى الولايات المتحدة الأمريكية. لقد تغيرت العدسات التى يبصرون من خلالها على دولتهم وأمنها فى عالمنا الحاضر. أصدر محررو مجلة لايف (Life) كتابًا تعرض فيه تفاصيل الحادث وتوابعه من خلال صور وأبيات شعر وقصص مؤثرة. نرى فى هذا الكتاب كيف تبذل أمريكا قصارى جهدها لمواجهة تحدى العهد الجديد. هذا الكتاب الجزء المكمل للكتاب «أمة واحدة» أو «one Nation» حيث يعيد الزيارة إلى أولئك الذين نجوا بحياتهم من الحادث.

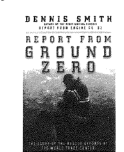
□ □ □

Report Fron Ground Zero: The Story of the Rescue Efforts at the World Trade center

(تقرير من المنطقة صفر: قصة محاولات الانقاذ فى مركز التجارة العالمى)

Dennis Smith

Viking Press, 2002, 366 PP., $17.47



هذا الكتاب يبين تقريرًا فريدًا من نوعه من خلال عدسات أحد رجال الإطفاء الذين أسرعوا إلى مركز التجارة العالمى بعد الحادث مباشرة لبدء جهود الإنقاذ. يعرض الكاتب دينيس سميث مذكراته الخاصة التى كتبها بعد مرور ثلاثة أشهر على الحادث. يحكى فيها عما رآه يومًا بعد يوم أثناء محاولة البحث عن الأحياء تحت الأنقاض، كما يعرض من خلاله نبذات عن مقابلاته شهود الحادث والعائلات التى فقدت أحبابها تحت الأنقاض.

□ □ □

What we Saw: The Events of September 11, 2001- In Words, Pictures and Video

(ما رأيناه: أحداث ١١ سبتمبر - ٢٠٠١ من خلال كلمات، صور، وفيديو)

Dan Rather

Simon & Scnusler, 2002, 143 PP., 20.97



يقدم مراسلو ومصورو وصحفيو شبكة أنباء سى.بى.اس (CBS) الأمريكية تفاصيل ما رأوها أثناء تغطيتهم لحادث ١١ سبتمبر - ليس فقط عند مركز التجارة العالمى إنما كانوا مبعوثين لتغطية الحادث فى ولاية بنسلفانيا حيث سقطت طائرة يونايتد أيرلاينز (United Airlines) رقم ١٧٥، كما تمت التغطية فى ولاية نيوجيرسى للتعرف على صدى الأحداث هناك.

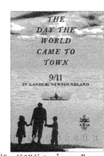
□ □ □

The Day the world came to town: 9/11 in Gander, Newfoundland

(اليوم الذى أتى فيه العالم إلى منطقتنا: ١١/٩ فى جاندر ونيوفاوندلاند)

Jim Defede

Regan Books, 2002, 256 PP., $ 16.77



الجديد فى هذا الكتاب تناوله لقصة اضطرار هبوط ثمان وثلاثين طائرة مدنية متجهة إلى أمريكا فى منطقة جاندر بنيوفاوندلاند فى كندا. لم يستطع ركاب الطائرات - كانوا أكثر من ٦ آلاف - سوى قضاء أربعة أيام فى مكان الهبوط بدون معرفة ما سيفعلونه أثناء انتظارهم فى مكان لا يعرفونه، لكن خلال هذه الأيام تمتعوا بمساعدة أهل جاندر الذين فتحوا لهم أبواب منازلهم، وقاموا بالإرشاد السياحى «المؤقت» للزائرين، وأكرموهم أفضل إكرام. هذا الكتاب يتناول بالتفصيل هذه القصص والمواقف الفريدة النادرة.

□ □ □

Messages to Ground Zero: Children Respond to September 11, 2001.

(كلمات للمنطقة صفر: الأطفال يستجيبون إلى ١١ سبتمبر)

Shelley Harwayne, New York City Board of Education

Heinemann, 2002, 176PP, $ 14.95



هذا الكتاب يحتوى على مجموعة من الرسائل موجهة إلى ضحايا ١١ سبتمبر وعائلاتهم إلى جانب أبيات شعر وأعمال فنية من صنع أيديهم، استجابة لذلك الحادث المروع. كل تلك الرسائل والأعمال الفنية قد بعثت إلى أطفال آخرين لانعكاس مساندتهم الصادقة البريئة لزملائهم. هذه المطبوعة تعتبر أرشيفًا عميقًا يبين من خلاله الأفكار والمشاعر الداخلية لدى هؤلاء.

□ □ □

Twin Towers: The Life of New York City's World Trade Center

(البرجان: حياة مركز التجارة العالمى فى مدينة نيويورك)

Angus Kress Gillespe

New American Library Trade, 2002, 304 PP., $ 10.50



الكتاب يغطى تاريخ مركز التجارة العالمية بنشأتها فى البداية كفكرة على الورق ثم تطورها إلى بدء تخطيطه المعمارى حتى بنائه بالفعل، من هنا نرى الاختلاف فى الظروف تجاه هذا المركز من بدايتها حتى نهايتها يوم ١١ سبتمبر، ٢٠٠١.

□ □ □

After September 11: New York and the World

(بعد ١١ سبتمبر: نيويورك والعالم)

The Staff of Reuters

Reuters Prentice Hall, 2002, 224PP., $ 20.30



لا شك أنه قد صدرت العديد من المطبوعات والكتب التى تتناول أحداث ١١ سبتمبر وتوابعها النفسية والاجتماعية إلى جانب تأثيرها فى لحظتها. فى هذا الكتاب مراسلون من أشهر وكالات الأنباء فى العالم مثل رويترز البريطانية، يسعون لفهم الأسباب التى أدت إلى تلك الأحداث ويتساءلون ما إذا كانت أمريكا بالفعل قد تغيرت تغييرات جذرية بعد هذا اليوم، كما يحلل مراسلو رويترز التغيرات التى حدثت فى العلاقات الدولية وبالأخص من ناحية الشرق الأوسط استجابة للحادى عشر من سبتمبر.

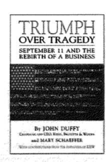
□ □ □

Triumph Over Tragedy: September 11 and the Rebirth of a Business

(الانتصار على المأساة: ١١ سبتمبر وميلاد جديد لشركة)

John Duffy, Mary S.Schaeffer

John Wiley & Sons, 2002, 240 PP., $17.47



يحكى الكتاب عن معجزة شركة مقرها فى نيويورك استطاعت إحياء نفسها بعدما فقدت ثلث العاملين على كل المستويات فى الحال إلى جانب تدمير مقر الشركة وتعرف بشركة «كيف، بروييث، وودز» Keefe, Bruyehe & Woods.
هذا الكتاب يعطى لنا مثالاً حيًا عن

١١ سبتمبر
في عيون أمريكية

مؤسسة استطاعت أن تتغلب على كل العوائق التي تؤدي إلى إهلاكها، وأن تثبت أن الحياة بعد الممات شيء غير مستحيل بالإرادة والعزيمة والإيمان والتخطيط الإداري السليم.

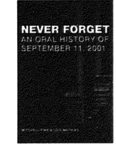
□ □ □

Never Forget: An Oral History of September 11

(لن ننسى: تقرير شفهي عن ١١ سبتمبر)

Mitchel Fink, Lois Mathias

Regan Books, 2002, 320 PP., $ 17.47



في هذا الكتاب، يقدم الكاتب ميتشل فنك تقارير شخصية عن الشهود، سواء كانوا موظفين في مركز التجارة العالمي أو شهود في البنتاجون الأمريكي، أو من الفرق المنقذة للضحايا، أو شهود من «رجل الشارع» الذي عاش هذا الحدث المأساوي، من خلال مقابلات الكاتب مع هؤلاء نرى إلى أي مدى كانت تجاربهم الشخصية مشحونة بالحزن والاكتئاب والانزعاج النفسي.

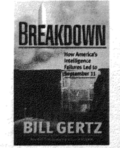
□ □ □

Breakdown: How America's In telligence Failvres Led to September 11

(الانهيار: كيف كان القصور في المخابرات الأمريكية سببًا في ١١ سبتمبر)

Bill Gertz

Regnery Publishing, 2002, 256 PP., $19.57



في هذا الكتاب يعرض جيرتز أوجه القصور التي أتاحت للإرهابيين فرصة الهجوم كما يناقش إلى أي مدى - بالمعلومات التي كانت لدى المخابرات والجيش الأمريكي في ذلك الوقت - كان من الممكن منع حادث ١١ سبتمبر. يتكلم الكاتب أيضًا عن سوء إدارة الرئيس الأمريكي السابق، بيل كلينتون، للوكالات العسكرية والمخابرات التي ساعدت الإرهابيين على الهجوم، وفي آخر جزء يبين لنا الاحتياطات الأمنية التي تتخذ حاليًا للحماية الزائدة، كما يقترح إجراءات أخرى تستطيع أن تتخذها الإدارة الأمريكية لحماية نفسها بدرجة أشد.

□ □ □

World Trade Center

(مركز التجارة العالمي)

Peter Skinner

Metro Books, 2002, 160PP, $ 14.98.



بالرغم من عظمة بناء مركز التجارة العالمي، وتصميمه المعماري المميز، وشهرته بالمكان الذي يتمركز فيه التجارة وإدارات الأعمال المختلفة وحركات مالية، شهد البرجان هلاكهما في يوم لن ينساه أحد خاصة شهود الحدث والعائلات التي فقدت أعزاءها بسبب الحادث. هذا الكتاب يعرض صورًا مشحونة بالانزعاج النفسي ومحركة للشعور والتي تنزل في كتاب من هذا النوع لأول مرة.

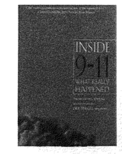
□ □ □

Inside 9 / 11: What Really Happened

(داخل ١١/٩: ماذا حدث بالفعل)

Der Spiegel Magazine

St. Martins Press, 2002, 320PP. $ 17.47.



المحررون في مجلة «دير سبيجل» وضعوا تقريرًا متكاملاً عن حادثة ١١ سبتمبر. الكتاب ينقسم إلى ثلاثة أجزاء.. الجزء الأول يتناول تسلسل أحداث هذا اليوم إلى جانب خلفية عن الإرهابيين خاصة عن السنين التي قضوها بمدينة «هامبورج» في ألمانيا. كما يحتوى أحد الملاحق في آخر الكتاب على مقتطفات من وصية محمد عطا، وجزء من الحديث المنقول من شريط أسامة بن لادن وجدول للتوقيت الذي تم فيه اختطاف كل طائرة.

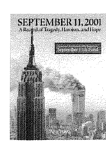
□ □ □

September 11: A Record of Tragedy, Heroism and Hope

(١١ سبتمبر: سجل عن مأساة، بطولة، وأمل)

New York Magazine Staff

Harry N. Abrams, 2001, 128 PP, $ 49.99



كتب هذا الكتاب أحد صحفيي مجلة «تايم» (TIME) الأمريكية ويجيب فيه عن الأسئلة المطروحة مثل من هم المختطفون؟ وما هو الإسلام؟ ولماذا هاجم الإرهابيون أمريكا؟ ولماذا ذهبت أمريكا إلى أفغانستان؟

□ □ □

Above Hallowed Ground: A Photographic Rocord of September 11, 2001

(فوق أرض مقدسة: سجلات صور عن ١١ سبتمبر ٢٠٠١)

Photographers of the New York City Police Department, Newyork, David Fitepatrick

Viking Press, 2002, $ 20.97.



الكتاب يحسم لنا مدى خطورة وهلع هذا الحدث من خلال صورة التقطت بعد أول طائرة ببضع لحظات بعد اصطدامها بأول برج. كل صورة في هذا الكتاب لم تعرض بعد، إلى جانب أنهم التقطوا من خلال عدسات من كانوا بالمكان في لحظة اصطدام أول طائرتين وأثناء محاولات الإنقاذ التي تلت ذلك. كثير من رجال الشرطة الذين لا يحترفون التصوير انتهزوا اللحظة وصوروا لقطات نادرة عن قرب.

□ □ □

One Nation: America Remembers September 11, 2001

(أمة واحدة: أمريكا تتذكر ١١ سبتمبر ٢٠٠١)

Life Magazine Staff, Rudolf Guiliani (Introduction)

Little Brown & Comp, 2002, 192 PP., $ 20.30

أصدر المحررون بمجلة لايف (Life) الأمريكية هذا الكتاب كذكرى للضحايا، وتمجيد للناجين.. الكتاب يتضمن أيضًا قصص الناجين، ومقابلات مع عائلات الضحايا.

□ □ □

Divided We Stand: A Biography of New York City's World Trade Center

(منقسمون: سيرة مركز التجارة العالمي بمدينة نيويورك)

Eric Darton

Basic Books, 2001, 256PP, $ 10.50

يتحدث الكاتب في هذا العدد عن بناء المركز من الناحية المعمارية، السياسية والتجارية. كما يتابع تاريخ المركز من كونه مركزًا لشركات شحن حتى تطوره إلى مركز التجارة العالمي، ويتابع أيضًا تاريخ تطوره التكنولوجي والمالي، هذا الكتاب يعطى لنا صورة أوضح عن عظمة البرجين اللذين فقدا في ١١ سبتمبر.

□ □ □




أمـــريكا تعـــيـــد إخـــراج أحـــــداث ســـــبتمبر

جاء شهر سبتمبر وحلت معه التداعيات المثيرة لأحداث الهجمات المفاجئة على نيويورك وواشنطن قبل عام.. وكأنه كان من الضرورى أن يستعيد العالم كل التفاصيل الدقيقة التى وقعت فى اليوم المشئوم.. كل العالم: سواء تلك الدول التى يهمها إرضاء الولايات المتحدة الأمريكية وكسب ودها، أو تلك التى وضعتها أمريكا على قائمة الدول المنبوذة أو المتهمة بالضلوع فى تدبير الهجوم وتنفيذه.

وبترتيب أوركسترالى غير مسبوق أملته طبيعة التوازنات الدولية أكثر مما تمليه حقائق الأشياء، تنافست أبواق الإعلام الغربية - فى أوروبا على وجه التحديد - فى تقديم البرامج التسجيلية والتحقيقات التليفزيونية وعشرات الآلاف من الوثائق المصدرة، فإذا الوقائع التى رجت أمريكا من ذهولها يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١، يعاد عرضها دقيقة بدقيقة، ولحظة بلحظة - فى مراحل الإعداد الأولى قبل أن تقع وهى فى حكم النوايا، وبعد أن وقعت وقد انقلبت أوضاع العالم رأسًا على عقب.



ولكن على العكس مما توقعته واشنطن أو رسمته وخططت له، فقد أخذت الشكوك تتزايد لدى دوائر واسعة فى الرأى العام الأوروبى حول مدى صدق الصورة التى قدمتها أمريكا لأحداث سبتمبر. وقد أبدى كثير من المعلقين المحترمين ارتيابه الشديد فى أجواء السرية والغموض التى فرضتها الإدارة الأمريكية، سواء فيما يتعلق بوقائع الهجوم الذى تعرضت له نيويورك وواشنطن، أو بالعمليات العسكرية التى قامت بها القوات الأمريكية فى أفغانستان، وأخيرًا ما يتعلق أيضًا بالسياسة الأمريكية إزاء توجيه ضربة عسكرية ضد العراق. وكتب وليام بفاف وهو من أكثر المعلقين الأمريكيين احترامًا فى الصحافة الأمريكية، إن الرقابة العسكرية التى فرضها البنتاجون حول الحرب فى أفغانستان، حجبت عن الشعب الأمريكى معظم الحقائق، فلم تصل إليه تفاصيلها إلا من خلال بعض المراسلين الأوروبيين أو من خلال تقارير نشرتها صحف ومحطات تليفزيون عربية. وذلك على العكس مما ألفه الرأى العام الأمريكى الذى تابع أحداث الحرب العالمية الثانية، وحرب فيتنام، وحرب كوريا وعاش وقائعها كما حدثت بدون تشويه، بينما لا يعرف الأمريكيون شيئًا عما جرى للقاعدة وطالبان وعن المعارك التى وقعت فى أفغانستان، إلا من خلال تصريحات دونالد رامسفيلد وزير الدفاع. وهى رقابة لا يخفى الصحفى الأمريكى الكبير دهشته من أن الميديا الأمريكية قبلت بها واستسلمت لها بدون أدنى مقاومة حتى الآن.

ويبدو مفهومًا أن تساير الحكومات الأوروبية الحليفة إدارة الرئيس بوش فى سياساتها المعلنة، تجنبًا للوقوع فى تناقض أو خلاف ظاهر. ولكن الدلائل كلها تشير إلى أن الشرخ هذه المرة بات يتناول جوهر القضايا والمبادئ المشتركة التى جمعت بين الطرفين عقودًا طويلة منذ الحرب العالمية الثانية. وهذا ما دعا عالم السياسة الأمريكى فرانسيس فوكوياما إلى التحذير فى محاضرة ألقاها فى ميلبورن من أن الغرب مهدد بوقوع تصدع فى البناء الذى حكم النظام العالمى سنوات طويلة. وأن هذا التصدع ليس ظاهرة عابرة، ولكنه تعبير عن اختلاف النظرة إلى شرعية الديمقراطية فى الإطار الأوسع للحضارة الغربية.



ينعكس ذلك بجلاء شديد فى المقارنة بين سيل الكتب التى ظهرت فى أوروبا حول أحداث سبتمبر ومقدماتها وتداعياتها، وتلك التى ظهرت فى أمريكا حول نفس الموضوع.. الأغلبية الغالبة من الكتب التى ظهرت باللغات الفرنسية والألمانية والإنجليزية والإسبانية على امتداد العام المنصرم أثارت من الشكوك والتساؤلات أكثر مما قدمت من إجابات: وطعنت فى معظم الأدلة والوقائع التى استندت إليها الأجهزة الأمريكية.

ومن أحدث الكتب التى ظهرت فى الذكرى الأولى لأحداث سبتمبر، ولقيت رواجًا واسعًا بين الناطقين بالألمانية كتاب «المؤامرات، ونظريات المؤامرة، وأسرار ١١ سبتمبر» لمؤلفه شتوك بروكر. وفيه يقدم المؤلف بمقدمة لا تخلو من مغزى يقول فيها: فى يوم ٧ ديسمبر ١٩٤١ الذى وقع فيه هجوم مفاجئ كالصاعقة على بيرل هاربر، ذهلت أمريكا لهذا الهجوم اليابانى الغادر. واليوم يؤكد المؤرخون أن الرئيس روزفلت علم بأمر الهجوم قبل وقوعه، بل إنه استفز اليابانيين للقيام به.. فقد كان روزفلت حريصًا على دخول الحرب العالمية الثانية، بينما كان أكثر من ٨٠٪ من الشعب الأمريكى - قبل بيرل هاربر - يعارض دخول الحرب.

ونفس الشىء حدث فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حين وقع هجوم غامض مفاجئ بالطائرات على مبنى مركز التجارة العالمى فى نيويورك ومبنى البنتاجون فى واشنطن، الأمر الذى أثار غضب أمريكا والعالم. وفور الحادث مباشرة أعلن أن أسامة بن لادن وجماعة «القاعدة» هى المسئولة عن الهجوم، وأعلن جورج دبليو بوش حربًا عالمية ضد الإرهاب الدولى.. وهى حرب لم تكن تجد مساندة قبل ذلك.. والآن تتجمع الأدلة على أن الحكومة الأمريكية كانت على علم مسبق باستخدام الطائرات كقذائف موجهة فى هجوم ضد أمريكا.

ويبدو لافتًا للنظر أن الفرنسيين والألمان هم أكثر الذين شككوا فى الروايات الأمريكية، وتحروا عن حقائقها وحفروا تحتها بحثًا عن أسسها وقواعدها. ومن هنا لم يكن غريبًا أن ينعكس ذلك فى موقف المعارضة أو التحفظ الشديد الذى تقوده الدولتان الأوروبيتان ضد مغامرة الحرب التى يزمع بوش شنها ضد العراق.



ويكشف المؤلف الألمانى لهذا السبب عن حقائق تحرص المصادر الأمريكية على تجاهلها أو إبقائها طى الكتمان.. فجَدّ الرئيس الحالى جورج دبليو بوش هو بريسكوت بوش الذى كان من أكبر المؤيدين والممولين للزعيم النازى هتلر. والأب جورج بوش الذى كان يرأس وكالة المخابرات المركزية هو الذى سلح صدام حسين فى حربه ضد إيران، ثم قاد الحملة ضده وهو رئيس للولايات المتحدة الأمريكية فى حرب الخليج بعد غزو الكويت. وتمكن جورج بوش الابن من تأسيس أول شركة بترولية له، بفضل المكاسب الضخمة التى حققها من إدارة أموال أسرة بن لادن التى عملت فى مجال المقاولات فى أمريكا، ثم هو يحارب الآن أحد أبناء هذه الأسرة.

وليس سرًا أن أسامة بن لادن هو من صنع المخابرات الأمريكية التى مولته ودربته كأداة للإرهاب ضد الاتحاد السوفيتى. وفى يناير ٢٠٠١ أصدرت حكومة الرئيس بوش أوامرها إلى المخابرات المركزية والـ إف. بى. آى (التحقيقات الفيدرالية) بوقف التحقيقات فى أنشطة قبيلة بن لادن. وفى يوليو ٢٠٠١ نشرت صحيفة «لوفيجارو» الفرنسية أن مبعوثًا من المخابرات الأمريكية زار أسامة بن لادن وهو يعالج فى المستشفى الأمريكى فى دبى.

ويضيف الكاتب عددًا من الحقائق والتساؤلات ذات المغزى:

* لماذا لم تفصح أمريكا حتى الآن عن بيانات الحركة الجوية ومضمون الاتصالات اللاسلكية التى جرت قبل وأثناء الحادث؟ ولماذا لم تظهر أسماء المتهمين الـ ١٩ فى قوائم الركاب؟ ولماذا اتضح أن خمسة من المتهمين مازالوا على قيد الحياة؟ ولماذا لم تنشر أى صور أو تسجيلات فيديو لموقع الهجوم الذى حدث ضد البنتاجون؟ ولماذا تناثر حطام الطائرة التى سقطت فى بنسلفانيا عدة أميال؟ وهل كان ذلك نتيجة إصابتها بقذيفة مضادة؟ وما هى علاقات العمل التى ربطت بين أسرة بوش من ناحية وشركة هاليبرتون التى يرأسها نائب الرئيس ديك تشينى لمشروعات مد خطوط الأنابيب فى أفغانستان من ناحية أخرى بأسامة بن لادن؟ ولماذا استمرت المحادثات السرية مع نظام طالبان حول بناء خط الأنابيب حتى يوليو ٢٠٠١؟

وينتهى المؤلف إلى أنه بعد أكبر حملة مطاردة واعتقالات وتحقيقات فى التاريخ قامت بها السلطات الأمريكية، لم تزل الأدلة التى حصلت عليها الأجهزة ضد بن لادن والقاعدة بعد عام من الحادث، كما كانت هى هى بعد ساعات قليلة من وقوعه.. أى لا شىء على وجه التحديد واليقين!!



ما الذى تبدو عليه صورة العالم اليوم بعد مرور أكثر من عام على الهجوم الغامض على واشنطن ونيويورك؟

من المؤكد أن العالم لم يزدد علمًا بما حدث بل ازداد جهلاً واسترابة سواء فى الظروف والتداعيات، أو فى المقاصد والنوايا التى أحاطت ونجمت عن الحادث. ومازالت وسائل الإعلام الأمريكية تخلق مناخًا من التوتر والخوف والغضب يستغلها الرئيس بوش وإدارته فى تجهيز الشعب الأمريكى لشن حرب ضد العراق.. تتضاعف حدتها مثل إعصار جارف يغطى فشل إدارة بوش فى مواجهة القضايا الحقيقية التى تهم العالم والتى تتحمل أمريكا باعتبارها الدولة العظمى الوحيدة مسئولية حلها: فلا هى نجحت فى تحقيق أهدافها من الحرب ضد الإرهاب، وإقرار الأوضاع فى أفغانستان، وصراع باكستان والهند حول كشمير، واستئصال شأفة القاعدة والعثور على بن لادن ومحاكمته.. ولا هى حققت خطوة واحدة فى حل صراع الشرق الأوسط، ولا هى نجحت فى إقناع العالم بتصور موحد لمحاربة مظاهر الفقر والتعاسة والبؤس التى تسوده.

شىء واحد بذلت إدارة الرئيس بوش أقصى جهودها فى تحقيقه هو: زيادة عدد الأعداء والخصوم، وتعميق الهوة بين أمريكا وحلفائها الأوروبيين وغير الأوروبيين، وتغذية مشاعر الكراهية، وتبرير الحرب والعدوان بين الشعوب واستخدام القوة العسكرية لتحقيق أهداف سياسية، وإملاء أوضاع إقليمية وعالمية جديدة.. فهل تنجح؟

سلامة أحمد سلامة

سمعت عن آخر قرض ؟!

دلوقتى تقدر تقسط
السيارة المستعملة
مع البنك العربى
وبأقل سعر فائدة !!

قرض المستعمل

تأمين مجانى على الحياة

أعلى نسبه تمويل

أسعار مميزة للتأمين على السيارة

أطول مدة تقسيط

إذا كنت تريد شراء سيارة جديدة أو مستعملة .. قسط مع البنك العربى



اتصل الآن ٣٣١٩٩٢٢

٧ أيام فى الاسبوع من التاسعة صباحاً حتى التاسعة مساءاً

البنك العربي

Checkmate Adv.